

فتح المجد

شرح كتاب التوحيد

تأليف

الإمام عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
ت 1285 هـ.

(حقوق النشر لكل مسلم)

مقدمة الشارح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِهِ نَسْتَعِنْ وَعَلَيْهِ التَّكَلُّنُ .

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عداون إلا على الظالمين ، كالمبتدعة والمشركين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ولا شريك له ، إله الأولين والآخرين ، وقيوم السماوات والأرضين . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه أجمعين .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن كتاب التوحيد الذى ألفه الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب ، وغفر له ولمن أجاب دعوته إلى يوم يقوم الحساب - قد جاء بديعاً في معناه من بيان التوحيد ببراهينه ، وجمع جملة من أدلة لإيضاحه وتبيينه . فصار على المودعين ، وحجة على الملحدين . فانتفع به الخلق الكبير ، والجم الغفير . فإن هذا الإمام رحمه الله في مبدأ من شرطه قد شرح الله صدره للحق المبين ، الذي بعث الله به المرسلين : من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين ، وإنكار ما كان عليه الكثير من شرك المشركين ، فأعلى الله همته ، وقوى عزيمته ، وتصدى

لدعوة أهل نجد إلى التوحيد ، الذى هو أساس الإسلام والإيمان ، ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار والقبور ، والطواوغيت والأوثان ، وعن الإيمان بالسحرة والمنجمين والكهان .

فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلاله يدعو إليها كل شيطان ، وأقام الله به علم الجهاد ، وأدحش به شبه المعارضين من أهل الشرك والعناد ، ودان بالإسلام أكثر أهل تلك البلاد ، الحاضر منهم والباد وانتشرت دعوته ومؤلفاته في الآفاق ، حتى أقر الله له بالفضل من كان من أهل الشقاق . إلا من استحوذ عليه الشيطان . وكره إليه الإيمان ، فأصر على العناد والطغيان . وقد أصبح أهل جزيرة العرب بدعوته ، كما قال قتادة رحمة الله عن حال أول هذه الأمة إن المسلمين لما قالوا (لا إله إلا الله) أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم ، وضاق بها إبليس ، وجندوه . فأبى الله إلا أن يمضيها ويظهرها ويفلجها وينصرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ، ويسير من الدهر ، في فناء الناس ، لا يعرفونها ولا يقرؤن بها .

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته ، وسرروا واستبشروا بطلعته ، وأنثوا عليه نثراً ونظموا .

فمن ذلك ما قاله عالم صنعاء : محمد بن إسماعيل الأمير في هذا الشيخ رحمة الله تعالى :

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه يعد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهراً ما طوى كل جاهل ومبتدع منه ، فوافق ما عندي
ويعم أركان الشريعة هادماً مشاهد ، ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله يغوث وود ، بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائيد باسمها كما يهتف المضرر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة أهلت لغير الله جهراً على عدم
وكم طائف حول القبور مقبل ومستلم الأركان منهم بالأيدي
وقال شيخنا عالم الإحساء أبو بكر حسين بن غنام رحمة الله تعالى فيه :

لقد رفع المولى به رتبة الهدى بوقد به يعلى الضلال ويرفع
سقاهم نمير الفهم مولاهم فارتوى وعام بتiar المعرف يقطع
فأحيا به التوحيد بعد اندراسه وأوهى به من مطلع الشرك مهيع
سما ذروة المجد التي ما ارتقى لها سواه ولا حاذى فناها سميدع
وشمرفي منهاج سنة أحمد يشيد ويحيى ما تعفى ، ويرفع

يناظر بالآيات والسنّة التي أمرنا إليها في التنازع نرجع
 فأضحت به السمحاء يبسم ثغراها وأمسى محياتها يضيء ويلمع
 وعاد به نهج الغواية طامساً وقد كان مسلوكاً به الناس ترتع
 وجرت به نجد ذبول افتخارها وحق لها بالألمعى ترفع
 فأثاره فيها سوام سوافر وأنواره فيها تضيء وتلمع
 وأما كتابه المذكور فموضوعه في بيان ما بعث به الله رسله : من توحيد العبادة ، وبيانه بالأدلة
 من الكتاب والسنّة ، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر أو ينافي كماله الواجب ، من الشرك الأصغر
 ونحوه ، وما يقرب من ذلك أو يوصل إليه .

وقد تصدى لشرحه حفيده المصنف ، وهو الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى فوضع عليه
 شرحأً أجاد فيه وأفاد ، وأبرز فيه من البيان ما يجب أن يطلب منه ويراد ، وسماه تيسير العزيز
 الحميد ، في شرح كتاب التوحيد .

وحيث أطلق شيخ الإسلام فالمراد به أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، و
 الحافظ فالراد به أحمد بن حجر العسقلاني .

ولما قرأت شرحهرأيته أطرب في موضع ، وفي بعضها تكرار يستغنى بالبعض منه عن الكل ،
 ولم يكمله . فأخذت في تهذيبه وتقريبه وتكميله ، وربما أدخلت فيه بعض النقول المستحسنة تتميماً
 للفائدة وسميتها فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد .

وأسأل الله أن ينفع به كل طالب للعلم ومستفيد ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وموصلاً من
 سعي فيه إلى جنات النعيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * * * *

قال المصنف رحمه الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم .

ابتدأ كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز وعملاً بحديث " كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله
 الرحمن الرحيم فهو أقطع " أخرجه ابن حبان من طريقين . قال ابن صلاح : وال الحديث حسن . ولأنبي
 دواد وابن ماجه " كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد

فهو أقطع " ولأحمد " كل أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع " وللدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً " كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع " .

والمصنف قد اقتصر فى بعض نسخه على البسمة ، لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقتصر عليها فى مراساته ، كما فى كتابه لهرقل عظيم الروم ووقع لى نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها بالبسملة ، وثنى بالحمد والصلاه على النبي صلى الله عليه وسلم والله . وعلى هذا فالابتداء بالبسملة حقيقى ، وبالحمدلة نسبى إضافى ، أى بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدواً به .

والباء فى بسم الله متعلقة بمحذوف ، واختار كثير من المتأخرین كونه فعلاً خاصاً متأخراً .
 أما كونه فعلاً ، فلأن الأصل فى العمل للأفعال .
 وأما كونه خاصاً ، فلأن كل مبتدئ بالبسملة فى أمر يضم ما جعل البسمة مبدأ له .
 وأما كونه متأخراً ، فدلالة على الاختصاص ، وأدخل فى التعظيم ، وأوفق للوجود ، ولأن أهم ما يبدأ به ذكر الله تعالى .

وذكر العالمة ابن القيم رحمه الله تعالى لحذف العامل فوائد ، منها أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله . ومنها : أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالبسملة في كل عمل وقول حركة . فكان الحذف أعم . إنتمي ملخصاً .

وباء بسم الله للمصاحبة . وقيل : للاستعانة . فيكون التقدير : بسم الله أُولف حال كوني مستعيناً بذكره ، متبركاً به . وأما ظهوره في " اقرأ باسم ربك " وفي " بسم الله مجريها " فلأن المقام يقتضى ذلك كما لا يخفى .

والاسم مشتق من السمو وهو العلو . وقيل : من الوسم وهو العالمة ، لأن كل ما سمي فقد نوه باسمه ووسم .

قوله (الله) قال الكسائي والفراء : أصله الإله ، حذفوا الهمزة ، وأدغموا اللام في اللام ، فصارتا لاماً واحدة مشددة مفخمة . قال العالمة ابن القيم رحمه الله : الصحيح : أنه مشتق ، وأن أصله الإله ، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شد . وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلي . والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى . وهى الإلهية كسائر أسمائه الحسنى ، كالعليم والقدير ، والسميع ، والبصير ، ونحو ذلك . فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب ، وهي قديمة ، ونحن لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملائقة لمصادرها فى اللفظ والمعنى

، لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله . وتسمية النهاة للمصدر والمشتق منه : أصلاً وفرعاً . ليس معناه أن أحدهما متولد من الآخر . وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة .

قال أبو جعفر بن جرير الله أصله الإله أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم . فاللتقت اللام التي هي عين الاسم واللام الزائدة وهي ساكنة فأدغمت في الأخرى ، فصارتا في اللفظ لاماً واحدة مشددة . وأما تأويل الله فإنه على معنى ما روى لنا عن عبد الله بن عباس قال : هو الذي يأله كل شيء ويعبد كل خلق وساق بسنته عن الصحاح عن عبد الله بن عباس قال : الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين فإن قال لنا قائل : وما دل على أن الألوهية هي العبادة وأن الإله هو المعبد ، وأن له أصلاً ففي فعل ويفعل ، وذكر بيت رؤبة بن العجاج .

للله در الغانيات المدة سبحان واسترجع من تألهى

يعنى من تعبدى وطلبى الله بعملى . ولا شك أن التأله التفعل ، من أله يأله وأن معنى الله إذا نطق به : عبد الله . وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقوا منه بفعل يفعل بغير زيادة . وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع - وساق السندي إلى ابن عباس أنه قرأ " ويدرك والهتك " قال : عبادتك . ويقول : إنه كان يعبد ولا يعبد وساق بسند آخر عن ابن عباس ويدرك والإهتك . قال : إنما كان فرعون يعبد ولا يعبد وذكر مثله عن مجاهد ، ثم قال : فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا أن الله عبد وأن الإله مصدره وساق حديثاً عن أبي سعيد مرفوعاً أن عيسى أسلمه أمه إلى الكتاب ليعلمه . فقال له المعلم : اكتب باسم الله . فقال عيسى : أتدري ما الله ؟ الله إله الآلهة .

قال العالمة ابن القيم رحمة الله : لهذا الاسم الشسيف عشر خصائص لفظية وساقها . ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقد قال أعلم الخلق صلى الله عليه وسلم : " لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " وكيف نحصي خصائص اسم لسماته كل كمال على الإطلاق ، وكل مدح وحمد ، وكل ثناء وكل مجد ، وكل جلال وكل كمال ، وكل عز وكل جمال ، وكل خير وإحسان ، وجود وفضل وبر فله ومنه ، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره ، ولا عند خوف إلا أزاله ، ولا عند كرب إلا كشفه ، ولا عند هم وغم إلا فرجه ، ولا عند ضيق إلا وسعه ، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة ، ولا ذليل إلا أثاله العز ، ولا فقير إلا أصاره غنياً ، ولا مستوحشاً إلا آنسه ، ولا مغلوب إلا أيده ونصره ، ولا مضطرب إلا كشف ضره ، ولا شريد إلا آواه . فهو الاسم الذي تكشف به الكربات ، وتنزل به البركات ، وتجاب به الدعوات ، وتقال به العثرات ، وتسدف به السينيات ، وتسجلب به الحسنات . وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسماء ، وبه أنزلت الكتب ، وبه أرسلت الرسل ،

وبه شرعت الشرائع . وبه قامت الحدود ، وبه شرع الجهاد ، وبه انقسمت الخلية إلى السعداء والأشقياء ، وبه حقّت الحاقة . ووّقعت الواقعة . وبه وضعـت المـوازنـين القـسـط ونـصـبـ الصـراـط ، وقام سـوقـ الجـنـةـ والنـارـ . وبـهـ عـبـدـ رـبـ العـالـمـينـ وـحـدـ ، وـبـحـقـهـ بـعـثـتـ الرـسـلـ ، وـعـنـهـ السـؤـالـ فـيـ القـبـرـ وـيـوـمـ الـبـعـثـ وـالـنـشـورـ وـبـهـ الـخـاصـ وـإـلـيـهـ الـمـحاـكـمـةـ ، وـفـيـهـ الـمـوـالـةـ وـالـمـعـادـةـ ، وـبـهـ سـعـدـ مـنـ عـرـفـهـ وـقـامـ بـحـقـهـ ، وـبـهـ شـقـىـ مـنـ جـهـلـهـ وـتـرـكـ حـقـهـ ، فـهـوـ سـرـ الـخـلـقـ وـالـأـمـرـ . وـبـهـ قـاماـ وـثـبـتاـ ، وـإـلـيـهـ اـنـتـهـيـاـ ، فـالـخـلـقـ بـهـ وـإـلـيـهـ وـلـأـجـلـهـ . فـمـاـ وـجـدـ خـلـقـ وـلـاـ أـمـرـ وـلـاـ ثـوـابـ وـلـاـ عـقـابـ إـلـاـ مـبـتـدـئـاـ مـنـهـ وـمـنـتـهـيـاـ إـلـيـهـ ، وـذـلـكـ مـوجـبـهـ وـمـقـتـضـاهـ 3 : 191 " رـبـنـاـ مـاـ خـلـقـتـ هـذـاـ بـاطـلـاـ سـبـحـانـكـ فـقـتـاـ عـذـابـ النـارـ " إـلـيـ آخرـ كـلـامـهـ رـحـمـهـ اللهـ

قوله (الرحمن الرحيم) قال ابن جرير : حدثني السري بن يحيى حدثنا عثمان بن زفر سمعت العزرمي يقول : الرحمن بجميع الخلق ، والرحيم بالمؤمنين . وساق بسنده عن أبي سعيد - يعني الخدرى - "قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن عيسى ابن مريم قال : الرحمن : الرحمن الآخرة والدنيا . والرحيم : رحيم الآخرة" .

قال ابن القيم رحمة الله تعالى : فاسم الله دل على كونه مألوهاً معبوداً . يأله الخلائق : محبة وتعظيمًا وخصوصاً ، ومفزواً إليه في الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته ، المتضمنين لكمال الملك والحمد ، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه ، مستلزم لجميع صفات كماله . إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى ، ولا سميع ، ولا بصير ، ولا قادر ، ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم في أقواله وأفعاله . صفات الجلال والجمال أخص باسم الله ، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع (العطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبر أمر الخليقة : أخص باسم الرب) ، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة والعطاف أخص باسم الرحمن .

وقال رحمة الله أيضاً : الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم . وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : ' وكان بالمؤمنين رحيماً ' 9 : 117
إنه بهم رءوف رحيم" ولم يجيء قط رحمان بهم .

وقال : إن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت ، فإنها دالة على صفات كماله . فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ، فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع ، بل ورد الاسم العلم ، كقوله تعالى "الرحمن على العرش استوى "انتهى ملخصاً .

قال المصنف رحمه الله تعالى : الحمد لله .

ش : و معناه الثناء بالكلام على الجميل الاختياري على وجه التعظيم ، فموردہ : اللسان والقلب ، والشكر يكون باللسان والجنان والأركان ، فهو أعم من الحمد متعلقاً ، وأخص منه سبباً ، لأنه يكون في مقابلة النعمة ، والحمد أعم سبباً وأخص متعلقاً، لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها . فبينهما عموم وخصوص وجهى ، يجتمعان في مادة وينفرد كل واحد عن الآخر في مادة .

قال المصنف رحمه الله : وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .

ش : أصح ما قيل في معنى صلاة الله على عبده : ما ذكره البخاري رحمه الله تعالى عن أبي العالية قال : "صلاة الله على عبده ثناؤه عليه عند الملائكة" وقرر ابن القيم رحمه الله ونصره في كتابيه جلاء الأفهام وبدائع الفوائد .

قلت : وقد يراد بها الدعاء ، كما في المسند عن علي مرفوعاً " الملائكة تصلى على أحدكم ما دام في مصالاه : اللهم اغفر له اللهم ارحمه " .

قوله (على آله) أي أتباعه على دينه ، نص عليه الإمام أحمد هنا . وعليه أكثر الأصحاب . وعلى هذا فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين .

قال المصنف رحمه الله تعالى : كتاب التوحيد

ش : كتاب : مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابة وكتباً ، ومدار المادة على الجمع . ومنه : تكتب بنو فلان ، إذا اجتمعوا . والكتيبة لجماعة الخيل ، والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحراف . وسمى الكتاب كتاباً : لجمعه ما وضع له .

والتوحيد نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات . وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات . وتوحيد في الطلب والقصد . وهو توحيد الإلهية والعبادة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول هو : إثبات حقيقة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكرمه بكتبه وتکلیمه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح ، كما في أول سورة الحديد ، وسورة طه ، وآخر الحشر ، وأول تنزيل السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكمالها ، وغير ذلك .

النوع الثاني : ما تضمنته سورة " قل يا أيها الكافرون " قوله تعالى : '3 : 64' " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون " وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها . وأول سورة المؤمن : ووسطها وآخرها ، وأول سورة الأعراف وآخرها . وجملة سورة الأنعام ، وغالب سور القرآن . بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد ، شاهدة به داعية إليه .

فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمي الخبرى وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبى . وإنما أمر ونهى ، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه ، فهو حقوق التوحيد ومكملاته وإنما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل به في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإنما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب . فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله في التوحيد ، وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم . انتهى .

قال شيخ الإسلام : التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله : لا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكلا إلا عليه ، ولا يوالى إلا له ، ولا يعادى إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله . وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات . قال تعالى : '2 : 163' " وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " قال تعالى : '16 : 51' " وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون " وقال تعالى : '23 : 117' " ومن يدع مع الله إليها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون " وقال تعالى : '43 : 45' " وسائل من أرسلنا من قبلك من رسالنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون " وأخبر عن كلنبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وقال : '4 : 60' " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برأء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبذا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده " وقال عن المشركين : '36 : 35، 37' " إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكرون * ويقولون إننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون " وهذا في القرآن كثير .

وليس المراد بالتوحيد : مجرد توحيد الربوبية . وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف . ويظنه هؤلاء أنهم إذا أثبتو ذلك بالدليل فقد أثبتو غاية التوحيد . وأنهم إذا شهدوا هذا وفروا فيه فقد فروا في غاية التوحيد فإن الرجل لو أقر بما يستحقه رب تعالى من الصفات وزوجه عن كل ما ينزعه عنه . وأقر بأنه وحده خالق كل شيء ، لم يكن موحداً حتى يشهد بأن لا إله إلا الله وحده . فيقرر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة . ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له . والإله هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة . وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع . فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله . وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية . وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن مشركي العرب كانوا مقيرين بأن الله وحده خالق كل شيء . وكانوا مع هذا مشركين . قال تعالى : '12 : 106' "وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُون" قالت طائفة من السلف تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله وهم مع هذا يعبدون غيره قال تعالى : '23 : 84 - 89' "قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مُلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يَجْبِرُ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَإِنِّي تَسْحَرُونَ" فلييس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شيء وخالقه يكون عابداً له ، دون ما سواه . داعيا له دون ما سواه راجيا له خائفاً منه دون ما سواه . يوالى فيه ويعادي فيه . وبطبيعة رسالته ويأمر بما أمر به . وينهى عما نهى عنه . وعامة المشركين أقرروا بأن الله خالق كل شيء . وأثبتو الشفعاء الذين يشركون به وجعلوا له أنداداً . قال تعالى : '39 : 43، 44' "أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقُلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشُّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مَلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" وقال تعالى : '10 : 18' "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضْرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبَئُنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سَبَّحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" وقال تعالى : '6 : 14' "وَلَقَدْ جَئْنَاهُمْ فِرَادِي كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أُولَمْ رَبْرَبْتُمْ مَا خَوْلَنَاكُمْ وَرَاءَ ظَهْوَرَكُمْ وَمَا نَرَى مَعْكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيْكُمْ شَرَكَاءَ لَقَدْ تَقْطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعَمُونَ" وقال تعالى : '2 : 165' "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يَحْبُّونَهُمْ كَحْبَ اللَّهِ" ولهذا كان أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها . ويصوم وينسك لها ويتقدّم إليها .

ثم يقول : إن هذا ليس بشرك . إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لـ . فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك . انتهى كلامه رحمة الله تعالى .

قال المصنف رحمة الله تعالى : قوله تعالى : ' 51: 56 ' وما خلقت الجن والإنس إلا
ليعبدون"

ش : بالجر عطف على التوحيد . ويجوز الرفع على الابتداء .

قال شيخ الإسلام : العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على السنة الرسل .

وقال أيضاً : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

قال ابن القيم : ومدارها على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية .

وببيان ذلك : أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح . والأحكام التي للعبودية خمسة :

واجب ومستحب وحرام ومكره ومحاج . وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

وقال القرطبي : أصل العبادة التذلل والخضوع . وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات .

لأنهم يتزمرونها وي فعلونها خاضعين متذليلين لله تعالى .

ومعنى الآية : أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته . فهذا هو الحكم في

خلقهم .

قلت : وهي الحكمة الشرعية الدينية .

قال العماد ابن كثير : وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور . وذلك هو حقيقة دين

الإسلام . لأن معنى الإسلام : الاستسلام لله تعالى ، المتضمن غاية الانقياد والذلة والخضوع . انتهى .

وقال أيضاً في تفسير هذه الآية : ومعنى الآية أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له .

فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء . ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم . بل هم

القراء في جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم . وقال علي بن

أبي طالب رضي الله عنه في الآية إلا لأمرهم أن يعبدونني وأدعوه إلى عبادتي وقال مجاهد : إلا

لأمرهم وأنهم اختاروا الزجاج وشيخ الإسلام . قال : ويدل على هذا قوله ' 75: 36 ' أيحسب

الإنسان أن يترك سدى" قال الشافعى : لا يؤمر ولا ينهى وقال في القرآن في غير موضع "اعبدوا

ربكم" "اتقوا ربكم" فقد أمرهم بما خلقوا له . وأرسل الرسل بذلك . وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية

قطعاً ، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين ويحتاجون بالآية عليه .

قال وهذه الآية تشبه قوله تعالى : ' 4 : 64 ' " وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله" ثم قد يطاع وقد يعصى . وكذلك ما خلقهم إلا لعبادته . ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون . وهو سبحانه لم يقل : إنه فعل الأول . وهو خلقهم ليفعل بهم كلهم . الثاني : وهو عبادته ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني . فيكونوا هم الفاعلين له . فيحصل لهم بفعله سعادتهم ويحصل ما يحبه ويرضاه منه ولهم . انتهى .

ويشهد لهذا المعنى : ما تواترت به الأحاديث .

فمنها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً : لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم . أن لا تشرك - أحسبه قال : ولا أدخلك النار - فأبيت إلا الشرك" فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه : من توحيده وأن لا يشرك به شيئاً . فخالف ما أراده الله منه فأشرك به غيره . وهذه هي الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم .

فبين الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية عموماً وخصوصاً مطلقاً .

يجتمعان في حق المخلص المطين . وتتنفرد الإرادة الكونية القدرية في حق العاصي . فافهم ذلك تنج من جهالات أرباب الكلام وتابعهم .

قال المصنف رحمه الله تعالى : قوله ' 16 : 36 ' " ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " .

ش : الطاغوت : مشتق من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الطاغوت الشيطان . وقال جابر رضي الله عنه الطاغوت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين رواهما ابن أبي حاتم . وقال مالك : الطاغوت كل ما عبد من دون الله .

قلت : وذلك المذكور بعض أفراده ، وقد حد العلامة ابن القيم حداً جاماً فقال الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده : من معبد أو متبع أو مطاع . فطاغوت كل قوم : من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة

من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طاغيت العالم . إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها . رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت وعن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

وأما معنى الآية : فأخبر تعالى أنه بعث في كل طائفة من الناس رسولاً بهذه الكلمة "أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت" أي اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : '256' : "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها" وهذا معنى لا إله إلا الله فإنها هي العروة الوثقى .

قال العمامي ابن كثير في هذه الآية : كلام - أي الرسل - يدعو إلى عبادة الله ، وبينه عن عبادة ما سواه ، فلم يزل سبحانه يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم ، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذي طبق دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى : '21' : "25" وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون" وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت" فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : "لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء" ، فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منافية ، لأنها نهاهم عن ذلك على ألسن رسله ، وأما مشيئته الكونية - وهي تمكينهم من ذلك قدرًا - فلا حجة لهم فيها ، لأنها تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضي لعبادة الكفر ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلهذا قال : '16' : "36" فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلاله" انتهى .

قلت : وهذه الآية تفسير الآية التي قبلها . وذلك قوله : "فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلاله" فتدبر .

ودللت هذه الآية على أن الحكم في ارسال الرسل ، دعوتهم أممهم إلى عبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه ، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت شريعتهم كما قال تعالى "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً" وأنه لا بد في الإيمان من عمل القلب والجوارح .

قال المصنف رحمة الله تعالى : قوله تعالى : ' 17' : 23 ' وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا .

ش : قال مجاهد قضى يعني وصى ، وكذا قرأ أبي بن كعب وابن مسعود وغيرهم ولابن جرير عن ابن عباس وقضى ربك يعني أمر .

وقوله تعالى : "أن لا تعبدوا إلا إياه" المعنى ، أن تعبدوه وحده دون ما سواه ، وهذا معنى لا إله إلا الله .

قال ابن القيم رحمة الله تعالى ، والنفي الممحض ليس توحيداً ، وكذلك الإثبات بدون النفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات ، وهذا هو حقيقة التوحيد .

وقوله : " وبالوالدين إحساناً" أي وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له . كما قال تعالى في الآية الأخرى ' 13' : 14 ' أَن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيكَ إِلَيِّ الْمَصِيرَ" وقوله : "إِمَا يَبْلُغُنَّ عَنْكُمُ الْكَبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كُلُّهُمَا فَلَا تُقْلِنْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا" أي ألا تسمعهما قولاً سيئاً ، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء "ولَا تَنْهَرُهُمَا" أي : لا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبي رباح لا تنفض يديك عليهما .

ولما نهاد عن الفعل القبيح والقول القبيح أمره بالفعل الحسن والقول الحسن فقال : "وقل لهم قولًا كريماً" أي ليناً طيباً بأدب وتقدير قوله "واخفض لهم جناح الذل من الرحمة" أي تواضع لهم "وقل رب ارحمهما" أي في كبرهما وعند وفاتهما "كما رباني صغيراً" وقد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها : الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال : آمين ، آمين ، آمين ، فقالوا يا رسول الله ، على ما أمنت ؟ قال أتاني جبريل فقال : يا محمد رغم أنف أمري ذكرت عنده فلم يصل عليك قل : آمين ، فقلت : آمين ثم قال : رغم أنف أمري دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل آمين : فقلت آمين ، ثم قال : رغم أنف أمري أدرك أبيه أو أحدهما فلم يدخله الجنة قل : آمين ، فقلت آمين" وروى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم "رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه ، أحدهما أو كلاهما لم يدخل الجنة" قال العماد ابن كثير : صحيح من هذا الوجه عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين . وكان متكتأً فجلس ، فقال ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت" رواه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهمما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رضي الرب فى رضي الوالدين ، وسخطه فى سخط الوالدين " ، عن أسيد الساعدى رضى الله عنه قال : "بینا نحن جلوس عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبي شئ أبىهما به بعد موتهما ؟ فقال : نعم ، الصلاة عليهمما والاستغفار لهمما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما " رواه أبو داود وابن ماجة . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جداً .

قال المصنف رحمه الله تعالى : قوله : '4 : 36' "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً" .
ش : قال العمام ابن كثير رحمه الله في هذه الآية : يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه الخالق الرازق المتفضل على خلقه في جميع الحالات ، وهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته . انتهى .

وهذه الآية هي التي تسمى آية الحقوق العشرة ، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام ، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الأنعام ، ليكون ذكره بعدها أنساب .

قال المصنف رحمه الله تعالى : قوله تعالى : '6 : 151-153' "قل تعالوا أتـل ما حرم ربكم عليـكم أن لا تـشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً " الآيات .

ش : قال العمام ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (قل) لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله (تعالوا) أي هلموا وأقبلوا (أتل) أقص عليـكم (ما حرم ربكم عليـكم) حقاً ، لا تخرصاً ولا ظناً ، بل وحيـاً منه وأمراً من عنده (ألا تـشركوا به شيئاً) وكأنـ في الكلام محدودـاً دلـ عليه السياق تقديـره : وصـاكـم ألا تـشركـوا به شيئاً ، ولـهـذا قالـ في آخر الآية (ذـلكـم وصـاكـم بـه) اـ هـ .

قلـتـ : فيـكونـ المعـنىـ : حـرمـ عـلـيـكـمـ ماـ وـصـاكـمـ بـتـرـكـهـ مـنـ الإـشـراكـ بـهـ ، وـفـيـ الـغـنـيـ لـابـنـ هـشـامـ فـىـ قولـهـ تعـالـىـ "ـأـنـ لـاـ تـشـركـواـ بـهـ شـيـئـاـ"ـ سـبـعـةـ أـقوـالـ ، أـحـسـنـهاـ :ـ هـذـاـ الـذـيـ ذـكـرـهـ اـبـنـ كـثـيرـ ،ـ وـبـلـيهـ :ـ بـيـنـ لـكـمـ ذـلـكـ لـثـلـاـ تـشـركـواـ ،ـ فـحـذـفتـ الجـملـةـ مـنـ أـحـدـهـماـ ،ـ وـهـىـ (ـوـصـاكـمـ)ـ وـحـرـفـ الـجـرـ وـمـاـ قـبـلـهـ مـنـ الـأـخـرىـ .ـ وـلـهـذاـ إـذـاـ سـئـلـواـ عـمـاـ يـقـولـ لـهـمـ رـسـولـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـواـ :ـ يـقـولـ اـعـبـدـواـ اللـهـ وـلـاـ تـشـركـواـ بـهـ .ـ

شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم كما قال أبو سفيان ، لهرقل وهذا هو الذي فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم قولوا لا الله إلا الله تفلحوا .

وقوله تعالى : "وبالوالدين إحساناً" قال القرطبي : الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما ، وإزالة الرق عنهما ، وترك السلطة عليهما ، و(إحساناً) نصب على المصدرية ، وناصبه فعل من لفظه تقديره : وأحسنوا بالوالدين إحساناً .

وقوله "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم" إلاملاق : الفقر ، أى لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر ، فإني رازقكم وإياهم ، وكان منهم من يفعل ذلك بالذكور خشية الفقر ، ذكره القرطبي . وفي الصحيحين "عن ابن مسعود رضي الله عنه (قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم 25 : 68 - 70" والذين لا يدعون مع الله إليها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيمة ويخلد فيه مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيمـا " .

وقوله : "ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن" قال ابن عطية : نهي عام عن جميع أنواع الفواحش ، وهي المعاصي .

(ظهور) و (بطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جلتا له من الأشياء . انتهى .

وقوله : " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق " في الصحيحين : "عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً : لا يحل دم امرء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة" .

وقوله : "ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون" قال ابن عطية : (ذلكم) إشارة إلى هذه المحرمات والوصية الأمر المؤكد المقرر . قوله (لعلكم تعقلون) (لعل) للتعليل أى إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لعقلتها عنه ونعمل بها ، وفي تفسير الطبرى الحنفى : ذكر أو لا (تعقلون) في (تذكرون) ثم (تتقون) لأنهم إذا عقلوا تذكروا وخافوا واتقوا .

وقوله : " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدـه " قال ابن عطية : هذا نهى عام عن القرب الذى يعم وجوه التصرف وفيه سد الذريعة ، ثم استثنى ما يحسن وهو السعى فى نمائـه

، قال مجاهد : التي هي أحسن ، إشارة فيه ، وفي قوله : (حتى يبلغ أشد) قال مالك وغيره : هو الرشد وزوال السفة مع البلوغ ، روى نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبي وربيعة وغيرهم .
وقوله : "أوفوا الكيل والميزان بالقسط" قال ابن كثير : يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء " لا نكلف نفساً إلا وسعها " أي من اجتهد بأداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ الوع وبذل جهده فلا حرج عليه .

وقوله : "إذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى" هذا أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد .
قال الحنفي : العدل في القول في حق الولي والعدو لا يتغير في الرضى والغضب بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى فلا يميل إلى الحبيب والقريب⁵: 8" ولا يجرمنكم شتان قوم على أن لا تعدلوا
اعدلوا هو أقرب للائقى " .

وقوله "وبعهد الله أوفوا" قال ابن جرير : وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فأوفوا . وإيفاء ذلك
بأن يطليعوه بما أمرهم به ونهاهم عنه . وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ذلك هو
الوفاء بعهد الله . وكذا قال غيره ، قوله "ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون" تتعظون وتنتبهون بما كنتم
فيه .

وقوله : " وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" قال القرطبي :
هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم . فإنه نهي وأمر وحذر عن اتباع غير سبيله على ما بينته
الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف . و (أن) في موضع نصب . أي أثلو أن هذا صراطي ، عن الفراء
والكسائي . ويجوز أن يكون خفطاً . أي وصاكم به وبأن هذا صراطي . قال: والصراط الطريق الذي هو
دين الإسلام . (مستقيماً) نصب على الحال ومعناه مستويًا قيماً لا اعوجاج فيه . فأمر باتباع طريقه
الذي طرقه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهياته الجنة وتشعبت منه طرق ، فمن سلك
الجاداة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : "ولا تتبعوا السبل فتفرق
بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" أي يميل . انتهى .

وروى الإمام أحمد والنسياني والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم - وصححه - "عن ابن مسعود
رضي الله عنه قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ بيده ، ثم قال هذا سبيل الله مستقيماً ،
ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماليه ثم قال : وهذه سبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان
يدعو إليه ، ثمقرأ " وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل " الآية " . وعن مجاهد : ولا
تتبعوا السبل ، قال : البدع والشهوات .

قال ابن القيم رحمه الله : ولنذكر في الصراط المستقيم قولًا وجيزًا فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتصلقاته ، وحقيقة شئ واحد ، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه ولا طريق إليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسليه ، وجعله موصلاً لعبادة الله وهو إفراده بالعبادات ، وإفراد رسليه بالطاعة ، فلا يشرك به أحداً في عبادته ولا يشرك برسوله صلى الله عليه وسلم أحداً في طاعته . فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فأي شئ فسر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين . ونكتة ذلك ، أن تحبه بقلبك وترضيه بجهدك كله ، فلا يكون في قلبك موضع إلا معهوراً بحبه ، ولا يكون لك إرادة متعلقة بمرضاته . فال الأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله . وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به ، وقل ما شئت من العبارات التي هذا آخيتها وقطب رحاتها . قال : وقال سهل بن عبد الله : عليكم بالآثر والسنن ، فإني أخاف ، إنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في جميع أحواله ذموه ونفروا عنه وتبرأوا منه ، وأذلوه وأهانوه . اهـ .

قال المصنف رحمه الله تعالى : قال ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ : "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم" - إلى قوله - " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه " الآية .

ش : قوله : ابن مسعود هو عبد الله بن مسعود بن غافل - بمعجمة وفاء - ابن حبيب الهمذى أبو عبد الرحمن ، صحابي جليل من السابقين الأولين ، وأهل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان من كبار علماء الصحابة ، أمر عمر على الكوفة ، ومات سنة اثننتين وثلاثين رضى الله عنه .

وهذا الأثر رواه الترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى بنحوه . وقال بعضهم : معناه من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كتب وختم عليها فلم تغير ولم تبدل فليقرأ : (قل تعالوا - إلى آخر الآيات) شبهاها بالكتاب الذى كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص . فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص إلا بكتاب الله ، كما قال فيما رواه مسلم : " وإنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله" وقد روى عبادة بن الصامت قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أياكم يباعنی على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا قوله تعالى : " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم" حتى فرغ

من الثلاث الآيات . ثم قال من وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه " رواه ابن أبي حاتم و الحاكم وصححه و محمد بن نصر فى الاعتصام .

قلت : ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص أمه إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه . وفي كتابه الذى أنزله ' 16 : 89 ' تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين " وهذه الآيات وصية الله تعالى ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى : وعن معاذ بن جبل قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي : يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، قلت : يا رسول الله أفلأبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا " . أخرجاه في الصحيحين .

ش : هذا الحديث في الصحيحين من طرق . وفي بعض روایاته نحو مما ذكره المصنف .
و معاذ بن جبل رضي الله عنه هو ابن عمرو بن أوس الأنباري الخزرجي أبو عبد الرحمن صحابي مشهور من أعيان الصحابة ، شهد بدرًا وما بعدها . وكان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن رضي الله عنه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم معاذ يحشر يوم القيمة أمام العلماء برتبة أي بخطوة ، قال في القاموس والرتوة الخطوة وشرف من الأرض ، وسوعية من الزمان ، والدعوة ، والفطرة ، ورمية بسهم أو نحو ميل أو مدى البصر . والراتي العالم الرباني . انتهى
وقال في النهاية أنه يتقدم العلماء برتبة أي برمية سهم . وقيل : بميل ، وقيل : مد البصر .
وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث . مات معاذ سنة ثمانى عشرة بالشام في طاعون عمواس . وقد استخلفه صلى الله عليه وسلم على أهل مكة يوم الفتح يعلمه دينهم .
قوله : (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم) فيه جواز الإرداد على الدابة ، وفضيلة معاذ رضي الله عنه .

قوله : (على حمار) في رواية اسمه عفير ، قلت : أهداه إليه المقوقس صاحب مصر .
وفيه : تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوب الحمار والإرداد عليه ، خلافاً لما عليه أهل الكبير .

قوله : (أتدرى ما حق الله على العباد) أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم وحق الله على العباد وهو ما يستحقه عليهم وحق العباد على الله معناه أنه متحقق لا محالة ، لأنه وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده '30 : 6' " وعد الله لا يخلف الله وعده " .

قال شيخ الإسلام : كون المطبيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ، ليس هو استحقاق مقابلة ، كما يستحق المخلوق على المخلوق ، فمن الناس من يقول : لا معنى للاستحقاق ، إلا أنه أخبر بذلك ووعده صدق ، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا ، كما دل عليه الكتاب والسنة قال تعالى '47' وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ" لكن أهل السنة يقولون : هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه الحق ، ولم يوجبه عليه مخلوق ، والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطبيعين له ، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب ، وغلطوا في ذلك ، وهذا الباب غلطت فيه الجبرية والقدرة أتباع جهنم والقدرة النافية .

قوله (قلت الله ورسوله أعلم) فيه حسن الأدب من المتعلم ، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك ، بخلاف أكثر المتكلفين .

قوله : (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) أي يوحدوه بالعبادة . ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمة الله حيث عرف العبادة بتعريف جامع فقال :

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذَلِكَ عَابِدُهُ هَمَا قَطَّبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ - أَمْرُ رَسُولِهِ - لَا بِالْهُوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

قوله : (ولا يشركوا به شيئاً) أي يوحدوه بالعبادة ، فلا بد من التجرد من الشرك في العبادة ، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتياً بعبادة الله وحده ، بل هو مشرك قد جعل لله نداً . وهذا معنى قول المصنف رحمة الله :

(وفيه أن العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه ، وفي بعض الآثار الإلهية : إنني والجن والانسان في نبا عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إنني العباد نازل ، وشرهم إلى صاعد ، أتحبب إليهم بالنعم ، ويتبعضون إلى بالمعاصي) .

قوله : (وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً) قال الحافظ : اقتصر على نفي الإشراك لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء ، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله

صلى الله عليه وسلم فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك وهو مثل قول القائل : ومن توضأ صحت صلاته ، أى مع سائر الشروط . اهـ .

قوله : (أفلا أبشر الناس) فيه استحباب بشاراة المسلم بما يسره ، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا . قال المصنف رحمة الله .

قوله (لا تبشرهم فيتكلوا) أى يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال . وفي رواية : فأخبر بها معاذ عند موته تائماً أى تحرجاً من الإثم . قال الوزير أبو المظفر : لم يكن يكتفيها إلا عن جاحد يحمله جهله على سوء الأدب بتترك الخدمة في الطاعة ، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة ، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة ، فلا وجه لكتمانها عنهم .

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم ، الحث على إخلاص العبادة لله وأنها لا تنفع مع الشرك ، بل لا تسمى عبادة . والتنبيه على عظمة حق الوالدين . وتحريم عقوبتهما . والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام . وجواز كتمان العلم للمصلحة .

قوله : (آخر جاه) أى البخاري ومسلم . و البخاري رحمة الله هو الإمام محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن برديبه الجعفي مولاه ، الحافظ الكبير صاحب الصحيح والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك من مصنفاته . روى عن الإمام أحمد بن حنبل والحميدى وابن المدينى وطبقتهم . وروى عنه مسلم والنمساني والترمذى والفربرى رواى الصحيح . ولد سنة أربع وتسعين ومائة ومات سنة ست وخمسين ومائتين .

و مسلم رحمة الله هو ابن حجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابورى صاحب الصحيح والعلل والوجدان وغير ذلك روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وطبقتهم . وروى عن البخاري . وروى عنها الترمذى وإبراهيم بن محمد بن سفيان رواى الصحيح وغيرهما . ولد سنة أربع ومائتين . ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنى سبور رحمة الله .

فضل التوحيد

قوله : (باب بيان فضل التوحيد وما يکفر من الذنوب)

باب خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا (قلت) ويجوز أن يكون مبتدأ خبره ممحض تقديره هذا . و ما يجوز أن تكون موصولة والعائد ممحض ، أى وبيان الذي يکفره من الذنوب ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى وتكفير الذنوب ، وهذا الثاني أظهر .

قوله : وقول الله تعالى : '6' : 82 "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمان وهم مهتدون" قال ابن جرير : حدثني المثنى - وساق بسنده - عن الربيع ابن أنس قال : الإيمان الإخلاص لله وحده) .

وقال ابن كثير في الآية : أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيمة ، المهتدون في الدنيا والآخرة . وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق : هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه .

وعن ابن مسعود : (لما نزلت هذه الآية قالوا : فأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس بذلك ، ألم تسمعوا إلى قول لقمان : "إن الشرك لظلم عظيم") .

وساقه البخاري بسنده فقال "حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثني إبراهيم عن علقة عن عبد الله رضي الله عنه قال : لما نزلت : "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" قلنا : يا رسول الله ، أينما لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس كما تقولون ، لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، بشرك . أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه : "يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " .

ولأحمد بنحوه عن "عبد الله" قال : (لما نزلت "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله : فأينما لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : "يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " إنما هو الشرك) " . وعن عمر أنه فسره بالذنب . فيكون المعنى : الأمان من كل عذاب . وقال الحسن والكلبي : أولئك لهم الأمان ، في الآخرة ، وهم مهتدون في الدنيا .

قال شيخ الإسلام : والذي شق عليهم أنهم ظنوا أن الظالم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتمام إلا لمن لم يظلم نفسه ، فبین لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله ، فلا يحصل الأمان وإلاهتمام إلا لمن يلبس إيمانه بهذا الظلم ، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الظلم والاهتمام ، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله : '35' 32 "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير" وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتبع كما قال تعالى : '99' 8 ، 7 " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " وقد " سأله أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أينما لم يعمل سوءاً ؟ فقال : يا أبا بكر ألسنت تنصب ؟ ألسنت تحزن ؟ أليس يصيبك الألواء ؟ فذلك ما

تجزون به" فبین أن المؤمن إذا مات دخل الجنة قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالعذاب . فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة : الشرك ، وظلم العباد . وظلمه لنفسه بما دون الشرك . كان له الأمان التام والاهتداء التام . ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمان والاهتداء المطلق . بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى : وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة . ويحصل له من نقص الأمان والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله إنما هو الشرك أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمان التام والاهتداء التام . فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمان التام والاهتداء التام اللذين يكونون بهما مهتمدين إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، من غير عذاب يحصل لهم . بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة . وقوله إنما هو الشرك إن أراد الأكبر ، فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة . وإن كان مراده جنس الشرك . يقال ظلم العبد نفسه ، كبخله لحب المال ببعض الواجب - هو شرك أصغر . وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله الشرك أصغر ونحو ذلك . فهذا فاته من الأمان والاهتداء بحسبه . ولهذا كان السلف يدخلون الذنب في هذا الشرك بهذا الاعتبار ملخصاً .

وقال ابن القيم رحمه الله : قوله : "الذين آمنوا ولم يلبسو إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمان وهم مهتمدون" قال الصحابة : وأينا يا رسول الله لم يلبس إيمانه بظلم ؟ قال : ذلك الشرك . ألم تسمعوا قول العبد الصالح "إن الشرك لظلم عظيم" لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه

وأن من ظلم نفسه أى ظلم كان لم يكن آمناً ولا مهتمداً . أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهدایة على الإطلاق هو الشرك . وهذا والله هو الجواب ، الذي يشفى العليل ويروي الغليل . فإن الظلم المطلق التام هو الشرك . الذي هو وضع العبادة في غير موضعها . والأمن والهدى المطلق : هما الأمان في الدنيا والآخرة .

والهدى إلى الصراط المستقيم . فالظلم المطلق التام رافع للأمن والاهتداء المطلق التام . ولا يمنع أن يكون الظلم مانعاً من مطلق الأمان ومطلق الهدى . فتأمله . فالمطلق للمطلق ، واللحصة للحصة ا ه ملخصاً .

الحديث عبادة من شهد أن لا إله إلا الله إلخ

وقوله (عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقها إلى مريم وروح منه . والجنة حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " . أخرجاه) .

Ubāda ibn al-Samit ibn Qays al-Anṣārī al-Khuzayrī ، أبو الوليد ، أحد النقباء بدرى مشهور مات بالرملة سنة أربع وثلاثين وله اثنتان وسبعين سنة ، وقيل : عاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه . قوله (من شهد أن لا إله إلا الله) أي من تكلم بها عارفاً لمعناها ، عاملاً بمقتضها ، باطنًا ظاهراً ، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها ، كما قال الله تعالى : ' 47 : 19 ' فاعلم أنه لا إله إلا الله" وقوله ' 43 : 86 ' إلا من شهد بالحق وهم يعلمون" أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه : من البراءة من الشرك ، وإخلاص القول والعمل : قول القلب ولسان وعمل القلب والجوارح - وغير نافع بالإجماع .

قال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم : باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين بل لا بد من استيقان القلب - هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة ، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان . وأحاديث هذا الباب تدل على فساده . بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها . وأنه يلزم منه توسيع النفاق ، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح . وهو باطل قطعاً . وفي هذا الحديث ما يدل على هذا . وهو قوله : من شهد فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق .

قال النووي : هذا حديث عظيم جليل الموضع ، وهو أجمع - الأحاديث المشتملة على العقائد . فإنه صلى الله عليه وسلم جمع فيه ما يخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها . فاقتصر صلى الله عليه وسلم في هذه الأحرف على ما يبيان جميعهم أه .

معنى لا إله إلا الله

ومعنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله . وهو في غير موضع من القرآن ، وبأيتك في قول الباقي صريحاً قوله (وحده) تأكيد للإثبات (لا شريك له) تأكيد للنفي . قال الحافظ : كما قال تعالى : ' 21 : 163 ' إِنَّهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" وقال : ' 25 : 21 ' وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ” وقال : '7' : '65' ” وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ” فأجابوه رداً عليه بقولهم : ” أجيئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ” وقال تعالى : '22' : '62' ” ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ” .

فتتضمن ذلك نفي الإلهية عما سوى الله ، وهي العبادة . وإثباتها لله وحده لا شريك له ، والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه .

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع والتذلل رغباً ورهباً ، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى ، كما تقدم في أدلة هذا الباب وما قبله . فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نداء ، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل .
(ذكر كلام العلماء ، في معنى لا إله إلا الله)

قد تقدم كلام ابن عباس ، وقال الوزير أبو المظفر في الإفصاح : قوله : شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ”فاعلم أنه لا إله إلا الله ” قال : وجملة واسم (الله) بعد (إلا) من حيث أنه الواجب له الإلهية ، فلا يستحقها غيره سبحانه . قال : الفائدة في ذلك : أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبتت الإيجاب لله سبحانه كنت من كفر بالطاغوت وآمن بالله .

وقال ابن القيم في البدائع ردًا لقول من قال : إن المستثنى مخرج من المستثنى منه . قال ابن القيم : بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه ، فلا يكون داخلاً في المستثنى ، إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل في الإسلام بقوله : لا إله إلا الله لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى . وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص . فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا : (الله إله) ولا يستريب أحد في هذا البتة . انتهى بمعناه .

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (لا إله إلا الله) أي لا معبد إلا هو . وقال الزمخشري : الإله من أسماء الأجناس . كالرجل والفرس ، يقع على كل معبد بحق أو باطل ، ثم غالب على المعبد بحق .

وقال شيخ الإسلام : الإله هو المعبد المطاع ، فإن الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد . وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخصوص له غاية الخضوع ، قال : فإن الإله هو المحبوب المعبد الذي تألهه القلوب بحبها

، وتخضع له وتذل له ، وتخافه وترجوه ، وتنيب إليه في شدائدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجمأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقته ، فإذا صحت صحة كل مسألة وحال وذوق ، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله .

وقال ابن القيم : (الإله) هو الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً وإنابة ، وإكراماً وتعظيمياً وذلاً وخوضعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلأ .

وقال ابن رجب : (الإله) هو الذي يطاع فلا يعصي ، هيبة له وإجلالاً ، ومحبة وخوفاً ورجاء ، وتوكلأ عليه ، وسؤالاً منه ودعاء له ، ولا يصلح هذا كله إلا الله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول (لا إله إلا الله) وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك .

وقال البقاعي : لا إله إلا الله ، أى انتفاء عظيمياً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم ، فإن هذا العلم هو أعظم الذكري المنجية من أهوال الساعة ، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعاً ، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صرف .

وقال الطيببي : (الإله) فعال بمعنى مفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، من الله إله أى عبد عبادة . قال الشارح : وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم .

فدللت (لا إله إلا الله) على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى كائناً ما كان ، وإثبات الإلهية لله وحده دون كل ما سواه ، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره ، كما قال تعالى عن الجن : '72 : 1' قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إننا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فاما به ولن نشرك برينا أحداً " فلا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً ، واعتقد ذلك وقبله وعمل به . وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل ، فقد تقدم في كلام العلماء أن هذا جهل صرف ، فهى حجة عليه بلا ريب .

فقوله في الحديث وحده لا شريك له تأكيد وبيان لمضمون معناها . وقد أوضح الله ذلك وبينه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين ، مما أجهل عباد القبور بحالهم ! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الاخلاص لا إله إلا الله ! فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله لفظاً ومعنى . وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظاً وجحدوها معنى ، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله

بأنواع العبادة ، كالحب والتعظيم ، والخوف والرجاء والتوكيل والدعاء ، وغير ذلك من أنواع العبادة .
بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب ، فإن أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى ، ويعتقدون أنه أسرع فرجاً من الله ، بخلاف حال المشركين الأولين ، فإنهم يشركون في الرخاء ، وأما في الشدائـد فإنـما يخلصـون للـله وحـده ، كما قال تعالى '29 : 65' "إذا ركـبوا في الفـلك دـعوا الله مخلصـين لـه الدين فـلما نـجاـهم إـلـى البر إـذـا هـم يـشـرـكـون" الآية . فـيـهـذا يـتـبـيـنـ أنـمـشـرـكـيـ أـهـلـ هـذـهـ الأـزـمـانـ أـجـهـلـ بـالـلـهـ وـبـتـوـحـيـدـهـ مـشـرـكـيـ العـرـبـ وـمـنـ قـبـلـهـ .

معنى محمد رسول الله

وقوله : (وَأَنْ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) أي وشهد بذلك ، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل ، ومعنى العبد هنا المملوك العابد ، أي أنه مملوك لله تعالى . والعبودية الخاصة وصفه ، كما قال تعالى : '39 : 26' "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدٍ" فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة فالنبي صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين . وأما الربوبية والإلهية فهما حق الله تعالى ، لا يشركه في شيء منهما ملك مقرب ولانبي مرسـلـ . وقوله : عـبـدـهـ وـرـسـوـلـهـ أـتـىـ بهـاتـيـنـ الصـفـتـيـنـ وـجـمـعـهـماـ دـفـعاـ لـلـإـفـرـاطـ وـالـتـفـرـيـطـ ،ـ فـإـنـ كـثـيرـاـ مـنـ يـدـعـيـ أـنـهـ مـنـ أـمـتـهـ أـفـرـطـ بـالـغـلـوـ قـلـاـ وـعـمـلاـ ،ـ وـفـرـطـ بـتـرـكـ مـتـابـعـتـهـ ،ـ وـاعـتـدـ عـلـىـ الـآـرـاءـ الـمـخـالـفـةـ لـمـاـ جـاءـ بـهـ ،ـ وـتـعـسـفـ فـيـ تـأـوـيـلـ أـخـبـارـهـ وـأـحـكـامـهـ ،ـ بـصـرـفـهـ عـنـ مـدـلـولـهـ وـالـصـدـوـفـ عـنـ الـانـقـيـادـ لـهـ مـعـ إـطـرـاحـهـ فـإـنـ شـهـادـهـ أـنـ مـحـمـدـ رـسـوـلـ اللهـ تـقـضـيـ الإـيمـانـ بـهـ وـتـصـدـيقـهـ فـيـمـاـ أـخـبـرـ ،ـ وـطـاعـتـهـ فـيـمـاـ أـمـرـ ،ـ وـالـانتـهـاءـ عـمـاـ عـنـهـ نـهـىـ وـزـجـرـ ،ـ وـأـنـ يـعـظـ أـمـرـهـ وـنـهـيـهـ ،ـ وـلـاـ يـقـدـمـ عـلـيـهـ قـوـلـ أـحـدـ كـاثـنـاـ مـنـ كـانـ .ـ وـالـوـاقـعـ الـيـوـمـ وـقـبـلـهـ -ـ مـنـ يـتـنـسـبـ إـلـىـ الـعـلـمـ مـنـ الـقـضـاءـ وـالـمـفـتـيـنـ -ـ خـلـافـ ذـكـ ،ـ وـالـلـهـ الـمـسـتـعـانـ .ـ وـرـوـيـ الدـارـمـيـ فـيـ مـسـنـدـهـ عـنـ "عـبـدـ اللـهـ بـنـ سـلـامـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ أـنـ كـانـ يـقـوـلـ :ـ إـنـاـ لـنـجـدـ صـفـةـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ :ـ إـنـاـ أـرـسـلـنـاـكـ شـاهـدـاـ وـمـبـشـراـ وـنـذـيرـاـ وـحـرـزاـ لـلـأـمـيـنـ ،ـ أـنـتـ عـبـدـيـ وـرـسـوـلـيـ ،ـ سـمـيـتـهـ الـمـتـوـكـلـ ،ـ لـيـسـ بـفـظـ وـلـاـ غـلـيـظـ ،ـ وـلـاـ صـخـابـ بـالـأـسـوـاقـ ،ـ وـلـاـ يـجـزـىـ بـالـسـيـئـةـ مـثـلـهـ ،ـ وـلـكـنـ يـعـفـوـ وـيـتـجـاـوزـ ،ـ وـلـنـ أـقـبـضـهـ حـتـىـ يـقـيمـ اللـهـ الـمـتـعـوجـةـ بـأـنـ يـشـهـدـ أـنـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ ،ـ يـفـتـحـ بـهـ أـعـيـنـاـ عـمـيـاـ وـأـذـانـاـ صـمـاـ وـقـلـوبـاـ غـلـفـاـ"ـ قـالـ عـطـاءـ بـنـ يـسـارـ :ـ وـأـخـبـرـنـيـ أـبـوـ وـاقـدـ الـلـيـثـيـ أـنـ عـيـسـىـ سـمـعـ كـعـبـاـ يـقـوـلـ مـثـلـ مـاـ قـالـ بـنـ سـلـامـ .ـ

معنى أن عيسى عبد الله رسوله وكلمته

قوله : (وأن عيسى عبد الله ورسوله) أى خلافاً لما يعتقد النصارى أنه الله أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً²³ : 91 "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله" فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم وبقين بأنه مملوك لله ، خلقه من أنثى بلا ذكر ، كما قال تعالى : 3' 59 "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" فليس رباً ولا إلهاً . سبحانه الله عما يشركون . قال تعالى¹⁹ : 29 - 36 "فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً * قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلنينبياً * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بوالدي ولم يجعلني جباراً شقياً * والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم " وقال : 4' 172 "لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جمِيعاً" ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود : أنه ولد بغيٍ ، لعنهم الله تعالى . فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جمِيعاً في عيسى عليه السلام ، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه : أنه عبد الله ورسوله .

قوله : (وكلمته) إنما سمي عيسى عليه السلام كلمة لوجوده بقوله تعالى : كن كما قاله السلف من المفسرين . قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية بالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له كن فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن ولكن بكن كان . فكن من الله تعالى قول ، وليس كن مخلوقاً ، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى انتهى .

قوله : (ألقاها إلى مريم) قال ابن كثير : خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنفح فيها من روحه بأمر ربه عز وجل : فكان عيسى بإذن الله عز وجل ، فهو ناشيء عن الكلمة التي قال له كن فكان والروح التي أرسل بها : هو جبريل عليه السلام .

وقوله : (وروح منه) قال أبي بن كعب : عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله تعالى واستنبطها بقوله : 7' 271 "الست بربركم قالوا بلى" بعثه الله إلى مريم فدخل فيها رواه عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم . قال الحافظ : ووصفه بأنه منه ، فالممعن أنه كائن منه ، كما في قوله تعالى⁴⁵ : 12 "وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جمِيعاً منه" فالممعن أنه كائن منه ، كما أن معنى الأية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه أي أنه مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته .

قال شيخ الإسلام : المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به ، وامتنع أن تكون إضافة مخلوق مربوب . وإذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسي وجبريل عليهما السلام وأرواحبني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى ، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره .

لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين :

أحدهما : أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها ، فهذا شامل لجميع المخلوقات ، كقولهم : سماء الله ، وأرض الله . فجميع المخلوقين عبيد الله ، وجميع المال مال الله .

الوجه الثاني : أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه ، كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره . وكما يقال في مال الخمس والفيء : هو مال الله ورسوله . ومن هذا الوجه : فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره . فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه ، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه . ا . هـ ملخصاً .

قوله : (والجنة حق والنار حق) أي وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله تعالى في كتابه أنه أعد لها للمتقين حق ، أي ثابتة لا شك فيها ، وشهد أن النار التي أخبر بها تعالى في كتابه أنه أعد لها للكافرين حق كذلك ثابتة ، كما قال تعالى : '57:1' ساقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتى به من يشاء والله ذو الفضل العظيم " وقال تعالى : '24:2' فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين " وفي الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، خلافاً للمبتدعة . وفيهما الإيمان بالمعاد

قوله : (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) هذه الجملة جواب الشرط وفي رواية : أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء . قال الحافظ : معنى قوله : على ما كان من العمل أي من صلاح أو فساد ، لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة ، ويحتمل أن يكون معنى قوله : على ما كان من العمل أن يدخله الجن على حسب أعمال كل منهم في الدرجات .

قال القاضي عياض : ما ورد في حديث عبادة يكون مخصوصاً لمن قال ما ذكره صلى الله عليه وسلم وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه فيكون له من الأجر ما يرجح على سيناته ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة .

حديث عتبان بن مالك : أن الله حرم على النار

(قال : ولهمَا في حديث عتبان فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجهه . الله) .

قوله : (ولهمَا) أي البخاري ومسلم في صحيحيهما بكماله . وهذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان .

وعتبان بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة ، ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري ، من بنى سالم بن عوف ، صحابي مشهور ، مات في خلافة معاوية .

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده "عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل قال : يا معاذ ، قال : ليبيك يا رسول الله وسعديك . قال : يا معاذ ، قال ليبيك يا رسول الله وسعديك . قال : يا معاذ ، قال : ليبيك يا رسول الله وسعديك – ثلثاً – قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار ، قال : يا رسول الله أفلأ أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يتكلوا ، فأخبر بها معاذ عند موته تائماً " . وساق بسند آخر : "حدثنا معتمر قال : سمعت أبي ، قال : سمعت أنساً قال : ذكر لي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ابن جبل : من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : لا ، إنني أخاف أن يتكلوا " .

قلت : فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص .

قال شيخ الإسلام وغيره : في هذا الحديث ونحوه أنها فيمن قالها ومات عليها ، كما جاءت مقيدة بقوله : خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين فإن حقيقة التوحيد انجداب الروح إلى الله تعالى جملة ، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة ، لأن الإخلاص هو انجداب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً ، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه "يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، وما يزن خردلة ، وما يزن ذرة" وتواترت بأن كثيراً من يقول لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها ، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم ، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله ، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله ، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال ، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ، وأكثر من

يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ، ولم تختلط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه . وغالب من يفتتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء ، كما في الحديث "سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت له" وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم ، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى : '23' 43 'إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنما على آثارهم مقتدون" .

وحيينئذ فلا منافاة بين الأحاديث ، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً ، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء ، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ، ولا كراهة لما أمر الله . وهذا هو الذي يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص ، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين ، لا تترك له ذنباً إلا محى عنه كما يمحو الليل النهار ، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر ، فهذا غير مصر على ذنب أصلاً ، فيغفر له ويحرم على النار ، وإن قالها على وجه خلص بها من الشرك الأكبر دون الأصغر ، ولم يأت بعدها بما ينافق ذلك ، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات ، كما في حديث البطاقة فيحرم على النار ، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنبه ، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مصرًا على ذلك ، فإنه يستوجب النار . وإن قال لا إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر ولكنه لم يمت على ذلك ، بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيد الله ، فإنه في حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته ، وقويت نار الذنب حتى أحرقت ذلك بخلاف المخلص المستيقن ، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ولا يكون مصرًا على سيئات ، فإن مات على ذلك دخل الجنة .

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر فيضييف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين ، فيضعف قول لا إلا الله ، فيمتنع الإخلاص بالقلب ، فيصير المتكلم بها كالهادى أو النائم ، أو من يحسن صوته بالآلية من القرآن من غير ذوق طعم وحلوة ، فهو لم يقولوها بكمال الصدق واليقين ، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك بل يقولونها من غير يقين وصدق ويحيطون على ذلك ، ويموتون على ذلك ، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة . فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها وقسماً القلب عن قولها ، وكروه العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذلك

غير الله ، واطمأن إلى الباطل ، واستحلى الرفث ، ومخالطة أهل الغفلة ، وكراه مخالطة أهل الحق ، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه ، وبفيه ما لا يصدقه عمله .

قال الحسن : ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقه الأعمال . فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه ، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه .

وقال بكر بن عبد الله المزنی : ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشئ وقر في قلبه . فمن قال : لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها بل اكتسب مع ذلك ذنوباً ، وكان صادقاً في قولها موقناً بها ، لكن له ذنوب أضعفته صدقه ويقينه ، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي ، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة ، ومات مصراً على الذنوب ، بخلاف من يقولها بيقين وصدق ، فإنه إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً ، ويكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته . والذين يدخلون النار من يقولها : إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها ، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم ، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم ، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام ، لأن الذنب قد أضعفه ذلك الصدق واليقين من قلوبهم ، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات فترجح سيئاتهم على حسناتهم . انتهى ملخصاً .

وقد ذكر هذا كثیر من العلماء كابن القیم و ابن رجب وغيرهم .

قلت : وبما قرره شيخ الإسلام تجتمع الأحاديث .

قال : وفي الحديث دليل على أنه لا يکفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس ، وفي تحريم النار على أهل التوحيد الكامل وفيه إن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لوجه الله تعالى على ما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

(تنبیه) قال القرطبی في تذکرته : قوله في الحديث من إيمان أي من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح ، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الإيمان ، والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قنأه ، ولم يرد مجرد الإيمان الذي هو التوحيد ونفي الشركاء والإخلاص بقول لا إله إلا الله ما في الحديث نفسه من قوله أخرجو - ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قوماً لم يعملا خيراً فقط يريد بذلك التوحيد المجرد من الأعمال ا ه ملخصاً من شرح سنن ابن ماجة .

قال المصنف رحمه الله (”وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال موسى عليه السلام : يا رب علمتني شيئاً أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى لا إله إلا الله . قال : كل عبادك يقولون هذا ، قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعمرهن غيري

والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله رواه ابن حبان والحاكم وصححه" .

أبو سعيد : اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل وأبوه كذلك ، استصغر أبو سعيد بأحد وشهد ما بعدها ، مات بالمدينة سنة ثلث أو أربع أو خمس وستين وقيل سنة أربع وستين .

قوله (أذكرك) أي أنتي عليك به (وأدعوك) أي أسألك به .

قوله (قل يا موسى لا إله إلا الله) فيه أن الذاكر بها يقولها كلها ، ولا يقتصر على لفظ الجلالة ، ولا على هو كما يفعله غلاة جهال المتصوفة ، فإن ذلك بدعة وضلال .

قوله : (كل عبادك يقولون هذا) ثبت بخط المصنف بالجمع ، والذى فى الأصول يقول بالإفراد مراعاة للفظة كل وهو فى المسند من حديث عبد الله بن عمر بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى كل ومعنى قوله كل عبادك يقولون هذا أي إنما أريد شيئاً تخصنى به من بين عموم عبادك ، وفي رواية بعد قوله كل عبادك يقولون هذا - قل لا إله إلا الله ، قال لا إله إلا أنت يارب ، إنما أريد شيئاً تخصنى به .

ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له ، كانت من أكثر الأذكار وجوداً ، وأيسرها حصولاً ، وأعظمها معنى . والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدةعة التي ليست في الكتاب ولا في السنة .

قوله (وعامرهن غيري) هو بالنصب عطف على السموات ، أي لو أن السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله تعالى ، والأرضين السبع ومن فيهن ، وضعوا في كفة الميزان ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى ، مالت بهن لا إله إلا الله .

وروى الإمام أحمد عن "عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله " .

قوله : (في كفة) هو بكسر الكاف وتشديد الفاء ، أي كفة الميزان .

قوله : (مالت بهن) أي رجحت . وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك ، وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال . وأساس الملة والدين ، فمن قالها بإخلاص ويقين ، وعمل بمقتضها ولوازمها وحقوقها

، واستقام على ذلك ، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء ، كما قال الله تعالى : '46 : 13' "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" .

ودل الحديث على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر . كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قد يرى رواه أحمد والترمذى ، وعنه أيضاً مرفوعاً يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلاائق يوم القيمة فينشر له تسعه وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ثم يقال : أتتكم من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون فيقول : لا يارب . فيقال : أفلأك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا ، فيقال : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها :أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة رواه الترمذى وحسنه .

والنسائى وابن حبان والحاكم . وقال : صحيح على شرط مسلم ، وقال الذهبي في تلخيصه : صحيح .

قال ابن القيم رحمه الله : فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعدها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض . قال : وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة وتقابلها تسعه وتسعون سجلاً كل سجل منها مدي البصر ، فتشغل البطاقة وتطييش السجلات ، فلا يعذب . ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنبه .

قوله : (رواه ابن حبان والحاكم) ابن حبان اسمه محمد بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان بن معاذ ، أبو حاتم التميمي البستي الحافظ صاحب التصانيف : كال الصحيح ، والتاريخ ، والضعفاء ، والثقات وغير ذلك . قال الحكم : كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ، ومن عقلا الرجال . مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بست - بضم الموحدة وسكون المهملة .

وأما الحكم فاسمته محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري أبو عبد الله الحافظ ويعرف بابن البيع ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وصنف التصانيف ، كالمستدرك وتاريخ نيسابور وغيرهما ، ومات سنة خمس وأربعين مائة .

علو الله على عرشه

الحديث : لو أتيتني بقرب الأرض خطايا

قال المصنف رحمة الله (وللترمذى) - وحسنه - "عن أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى يا بن آدم لو أتيتني بقرب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقربها مغفرة)".

ذكر المصنف رحمة الله الجملة الأخيرة من الحديث ، وقد رواه الترمذى بتمامه فقال : "عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تبارك وتعالى : يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا بن آدم ، إنك لو أتيتني - الحديث".

الترمذى : اسمه محمد بن عيسى بن سورة - بفتح المهملة - بن موسى بن الضحاك السلمي أبو عيسى ، صاحب الجامع وأحد الحفاظ ، كان ضرير البصر ، روى عن قتيبة وهناد والبخاري وخلق . مات سنة تسع وسبعين ومائتين .

وأنس : هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرج] ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم خدمه عشر سنين ، وقال له : اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة مات سنة اثنتين وقيل : ثلاط وتسعين ، وقد جاوز المائة .

والحديث قد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه ، وهذا لفظه "من عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيتني لا يشرك بي جعلت له مثلها مغفرة" رواه مسلم ، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله : (لو أتيتني بقرب الأرض) بضم القاف : وقيل بكسرها والضم أشهر وهو مؤها أو ما يقارب مؤها .

قوله : (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً) شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة ، وهو السلام من الشرك : كثيرة وقليلة ، صغيرة وكبيرة . ولا يسلم من ذلك إلا من سلم الله تعالى ، وذلك هو القلب السليم كما قال تعالى : '89' يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم " .

قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بقرب الأرض خطايا لقيه الله بقربها مغفرة – إلى أن قال –
فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه ، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه
عند الموت ، أعقب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكليّة . فمن تحقق
 بكلمة التوحيد قلب أخرجت منه كل ما سوى الله : محبة وتعظيمًا ، وإجلالًا ومهابة وخشية وتوكلاً ،
وحيئنَّ تحرق ذنبه وخطيئته كلها ، وإن كانت مثل زيد البحر أهلاً ملخصاً .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى الحديث : ويعنى لأهل التوحيد المحسن الذي لم
يشوبوه بالشرك ما لا يعنى له ليس كذلك . فلو لقى الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً أبنته ربه بقرب
الأرض خطايا أتاه بقربها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده . فإن التوحيد الخالص الذي لا
يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ، لأنّه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه ، وخوفه ورجائه وحده
ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض ، فالنجاسة عارضة والداعف لها قوى . اهـ .

وفي هذا الحديث : كثرة ثواب التوحيد ، وسعة كرم الله وجوده ورحمته والرد على الخواج
الذين يكفرون المسلم بالذنوب ، وعلى المعزلة القائلين بالعزلة بين المنزليين ، وهي الفسوق ، ويقولون
ليس بمؤمن ولا كافر ، ويخلد في النار . والصواب قول أهل السنّة : أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان ، و
لا يعطاه على الإطلاق ، بل يقال هو مؤمن عاص ، أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته . وعلى هذا يدل
الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة . و "عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما أسرى برسول
الله صلى الله عليه وسلم انتهي به إلى سدرة المنتهى ، فأعطي ثلاثاً : أعطى الصلوات الخمس ،
وحواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمتنا شيئاً : المقدمات " رواه مسلم .

قال ابن كثير في تفسيره : وأخرج الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه والنسائي "عن أنس بن مالك
قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية '74 : 56' 'هو أهل التقوى وأهل المغفرة' وقال
: قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معني إله ، فمن اتقى أن يجعل معني إلهًا كان أهلاً أن أغفر
له " .

قال المصنف رحمه الله : (تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين
حديث عتبان تبين لك معنى قوله : لا إله إلا الله وتبين لك خطأ المغرورين .
وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ،
مع أن كثيراً من يقولها يخف ميزانه . وفيه إثبات الصفات خلافاً للمعطلة . وفيه أنك إذا عرفت

حديث أنس و قوله في "Hadith Utibani إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله " تبيّنت لك أن ترك الشرك في قولها باللسان فقط .

من حق التوحيد دخل الجنة
قوله : (باب من حق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) أي ولا عذاب .
(قلت) تحقيقه تخلصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي .

معنى أن إبراهيم كان أمّة
قال الله تعالى : '16 : 120' "إن إبراهيم كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين" وصف
إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد .
الأولى : أنه كان أمّة ، أي قدوة وإماماً معلماً للخير . وما ذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين
الذين تنال بهما الإمامة في الدين .
الثانية : قوله قانتاً قال شيخ الإسلام : القنوت دوام الطاعة ، والمصلبي إذا أطّال قيامه أو رکوعه
أو سجوده فهو قانت . قال تعالى : '39 : 9' "أَمْنٌ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذِرُ الْآخِرَةَ
وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ" ا هـ . ملخصاً .
الثالثة : أنه كان حنيفاً (قلت) قال العلامة ابن القيم الحنيف الم قبل على الله ، المعرض عن كل
ما سواه ا هـ .

الرابعة : أنه كان من المشركين ، أي لصحة إخلاصه وكمال صدقه ، وبعده عن الشرك .
قلت : يوضح هذا قوله تعالى : '4 : 60' "قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه" أي
على دينه من إخوانه المرسلين ، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى : "إذ قالوا لقومهم إنا برأء منكم وما
تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول
إبراهيم لأبيه لاستغفرون لك وما أملك لك من الله من شيء" وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه قال
لأبيه آزر : '49 : 48 ، 19' "وأعزّلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى أن لا أكون
بدعاء ربّي شقياً * فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً"
فهذا هو تحقيق التوحيد . وهو البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم ، والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم .
فالله المستعان .

قال المصنف رحمة الله في هذه الآية : "إن إبراهيم كان أمة" لثلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين (قانتاً لله) لا للملوك ولا للتجار المترفين (حنيفاً) لا يميل يميناً ولا شمalaً ، كفعل العلماء المفتونين (ولم يك من المشركين) خلافاً لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين . أـ هـ .
وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : "إن إبراهيم كان أمة" على الإسلام . ولم يك في زمانه أحد على الإسلام غيره .

قلت : ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم : من أنه كان إماماً يقتدى به في الخير .
قال : (وقوله تعالى : 23' : 57 - 59') إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون .
وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة فأثنى عليهم بالصفات التي أعظمها : أنهم بربهم لا يشركون .
ولما كان المرء قد يعرض له ما يقترح في إسلامه : من شرك جلي أو خفي ، نفي ذلك عنهم ، وهذا هو تحقيق التوحيد ، الذي حسنت بهم أعمالهم وكملت ونفعتهم .

قلت : قوله حسنت وكملت هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر ، وأما الشرك الأكبر فلا يقال في تركه ذلك ، فتدبر . ولو قال الشارح : صحت لكان أقوم .

قال ابن كثير : "والذين هم بربهم لا يشركون" أي لا يعبدون مع الله غيره ، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد ، لم يتخد صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له .

من يدخل الجنة بغير حساب

قال المصنف : ("عن حصين بن عبد الله بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاتي ولكنني لدغت ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثنا الشعبي ، قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حمة . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عرضت على الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . إذ رفع لى سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتني ، فقيل : هذا موسى وقومه ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم : فعلهم اللذين صحبو

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم : فعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عكاشة بن محسن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال : أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : سبقك بها عكاشة ") .

هكذا أورده المصنف غير معزو ، وقد رواه البخاري مختصراً ومطولاً ، ومسلم ، واللفظ له ، والترمذى والنمسائى .

قوله : عن (حسين بن عبد الرحمن) هو السلمي ، أبو الهذيل الكوفى . ثقة ، مات سنة ست وثلاثين ومائة ، وله ثالث وتسعون سنة .

وسعيد بن جبير : هو الإمام الفقيه من جلة أصحاب ابن عباس ، روایته عن عائشة وأبی موسى مرسلة . وهو كوفي مولى لبني أسد ، قتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين ولم يكمل الخمسين . قوله : (انقض) هو بالقاف والضاد المعجمة أى سقط . والبارحة هي أقرب ليه مضت . قال أبو العباس ثعلب : يقال قبل الزوال : رأيت الليلة ، وبعد الزوال : رأيت البارحة ، وكذا قال غيره ، وهي مشتقة من برح إذا زال .

قال : (أما إني لم أكن في صلاة) قال في مغني الليبيب : أما بالفتح والتحقيق على وجهين : أحدهما أن تكون حرف استفتاح بمنزلة ألا فإذا وقعت أن بعدها كسرت . الثاني أن تكون بمعنى حقاً أو أحق . وقال آخرون : هي كلمتان الهمزة للاستفهام ، ما اسم بمعنى شئ ، أى بذلك الشئ حق ، فالمعنى أحق هذا ؟ وهو الصواب و ما نصب على الظرفية ، وهذه تفتح أن بعدها . انتهى .
والأناسب هنا هو الوجه الأول والقائل هو حسين ، خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه وهو يصلى ، فنفي عن نفسه إبهام العبادة ، وهذا يدل على فضل السلف وحرصهم على الإخلاص وبعدهم على الرياء والتزيين بما ليس فيهم .

وقوله (ولكني لدغت) بضم أوله وكسر ثانيه ، قال أهل اللغة : يقال لدغته العقرب وذوات السموم ، إذا أصابته بسمها ، وذلك بأن تأبره بشوكتها .

قوله : (قلت وارتقيت) لفظ مسلم استرتقيت أى طلبت من يرقيني .

قوله (فما حملك على ذلك) فيه طلب الحجة على صحة المذهب .

وقوله (حديث حدثنا الشعبي) اسمه : عامر بن شراحيل الهمداني ولد في خلافة عمر ، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم مات سنة ثلاثة وثلاثمائة .

قوله : (عن بريدة) بضم أوله وفتح ثانية تصغير بربدة . ابن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهمتين - ابن الحارت الأسلمي ، صحابي شهير . مات سنة ثلاثة وستين . قاله ابن سعد .

قوله : (لا رقية إلا من عين أو حمة) وقد رواه أحمد وابن ماجة عنه مرفوعاً . ورواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين به مرفوعاً قال الهيثمى : رجال أ Ahmad ثقات .

والعين هي إصابة العائن غيره بعينه . والhma - بضم المهملة وتحقيق الميم - سم العقرب وشبيهها . قال الخطابى : ومعنى الحديث : لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والhma . وقد روى النبي صلى الله عليه وسلم ورقي .

قوله : (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) أي من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن بخلاف من يعمل بجهل ، أو لا يعلم بما يعلم فإنه مسيء آثم . وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم .

قوله : (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم . دعا له فقال : "اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل " فكان كذلك . مات بالطائف سنة ثمان وستين .

قال المصنف رحمه الله : (وفيه عمق علم السلف لقوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا . فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني) .

قوله : (عرضت على الأمم) وفي الترمذى والنمسائى من روایة عبذر بن القاسم عن حصين بن عبد الرحمن أن ذلك كان ليلة الإسراء قال الحافظ : فإن كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء ، وأنه وقع بالمدينة أيضاً (قلت) وفي هذا نظر .

قوله : (رأيت النبي ومعه الرهط) والذي في صحيح مسلم الرهيط بالتصغير لا غير ، وهم الجماعة دون العشرة ، قاله النووي .

قوله : (والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد) فيه الرد على من احتج بالكثرة .

قوله : (إذ رفع لي سواد عظيم) المراد هنا الشخص الذي يرى من بعيد .

قوله : (فظننت أنهم أمتى) لأن الأشخاص التي ترى في الأفق لا يدرك منها إلا الصورة وفي صحيح مسلم ولكن انظر إلى الأفق ولم يذكره المصنف ، فلعله سقط في الأصل الذي نقل الحديث منه . والله أعلم .

قوله : (فقيل له : هذا موسى وقومه) أي موسى بن عمران كليم الرحمن ، وقومه : أتباعه على دينه من بنى إسرائيل .

قوله : (فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) أي لتحقيقهم التوحيد ، وفي رواية ابن فضيل ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً و"في حديث أبي هريرة في الصحيحين أنهم تضيئون وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر " وروى الإمام أحمد والبيهقي في "حديث أبي هريرة فاستزدرت ربى فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً" قال الحافظ : وسنه جيد .

قوله : (ثم نهض) أي قام ، قوله : (فخاض الناس في أولئك) خاض بالخاء والضاد المعجمتين وفي هذا إباحة المعاشرة والباحثة في نصوص الشرع على وجه الاستفادة وبيان الحق ، وفيه عمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل ، وفيه حرصهم على الخير ، ذكره المصنف .

قوله : (فقال لهم الذين لا يستردون) هكذا ثبت في الصحيحين وهو كذلك في حديث ابن مسعود في مسنده أحمد . وفي رواية مسلم ولا يرقون قال شيخ الإسلام ابن تيمية : هذه الزيادة وهم من الرواية ، لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم ولا يرقون وقد "قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل على الرقى : من استطاع منكم أن ينفع أخيه فلينفعه" . و"قال : لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً" قال : وأيضاً فقد "رقى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم" و "رقى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه" قال والفرق بين الراقي والمسترقي : أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلب ، والراقي محسن . قال : وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكيل ، فلا يسألون غيرهم أن يرقى بهم ولا يكويهم . وكذا قال ابن القيم .

قوله : (ولا يكتونون) أي لا يسألون غيرهم كما لا يسألون غيرهم أن يرقى بهم ، استسلاماً للقضاء ، وتلذذاً بالباء .

قلت : والظاهر أن قوله لا يكتونون أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل ذلك باختيارهم . أما الكي في نفسه فجائز ، كما في الصحيح "عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى أبي بن كعب طيباً فقطع له عرقاً وكواه" .

وفي صحيح البخارى "عن أنس أنه كوى من ذات الجنب والنبي صلى الله عليه وسلم حى" وروى الترمذى وغيره "عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كوى أسعد بن زراة من الشوكة".

وفي صحيح البخارى "عن ابن عباس مرفوعاً الشفاء في ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنا أنهى أمتي عن الكى وفي لفظ : وما أحب أن أكتوى".

قال ابن القيم رحمه الله : قد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع (أحدها) فعله . (والثانى) عدم محبته . (والثالث) الثناء على من تركه . (والرابع) النهي عنه . ولا تعارض بينها بحمد الله ، فإن فعله يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه ، وأما الثناء على من تركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكرامة .

قوله : (ولا يتطيرون) أي لا يتشاركون بالطهور ونحوها . وسيأتي إن شاء الله تعالى ببيان الطهارة وما يتعلق بها في بابها .

قوله : (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذي تتنوعت عنه هذه الأفعال والخصال وهو التوكل على الله ، وصدق الالتجاء إليه ، والاعتماد بالقلب عليه ، الذي هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف : من المحبة والرجاء والخوف ، والرضا به رباً وإلهًا ، والرضا بقضاءه .

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً ، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري ، لا انفكاك لأحد عنه ، بل نفس التوكل : مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى : 65' 3' "ومن يتوكل على الله فهو حسنه" أي كافيه وإنما المراد أنهم يتذمرون المكرهة مع حاجتهم إليها ، توكلًا على الله تعالى ، كالاكتواء والاسترقاء ، فتركهم له لكونه سبباً مكرهًا ، لا سيما والمريض يتثبت -فيما يظنه سبباً لشفائه- بخيط العنكبوت .

وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه ، فغير قادر في التوكل ، فلا يكون تركه مشروعًا ، لما في الصحيحين "عن أبي هريرة مرفوعاً ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله" . "وعن أسامة بن شريك قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب ، فقالوا يا رسول الله أنتداوى ؟ قال : نعم . يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد . قالوا : وما هو ؟ قال : الهرم" رواه أحمد .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسبات ، وإبطال قول من أنكرها ، والأمر بالتداوي ، وأنه لا ينافي التوكل ، كما لا ينافي دفع ألم الجوع والعطش ، والحر والبرد : بأضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمبادرتها الأسباب التي نصبهما الله تعالى مقتضية

لأسبابها قدرًا وشرعًا ، وأن تعطيلها يقبح في نفس التوكل ، كما يقبح في الأمر والحكمة . ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل ، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإن كان معطلًا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلًا ولا توكله عجزًا .

وقد اختلف العلماء في التداوى هل هو مباح ، وتركه أفضل ، أو مستحب أو واجب ؟
فالمشهور عند أحمد : الأول لهذا الحديث وما في معناه ، والمشهور عند الشافعية الثاني ، حتى ذكر النووي في شرح مسلم : أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف ، واختاره الوزير أبو الظفر . قال : ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكд حتى يدانى به الوجوب . قال : ومذهب مالك أنه يستوي فعله وتركه فإنه قال : لا بأس بالتداوى ولا بأس بتركه .

وقال شيخ الإسلام : ليس بواجب عند جماهير الأئمة وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد .

فقوله : (فقام عكاشة بن محسن) هو بضم العين وتشديد الكاف ، ومحسن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ابن حرثان - بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة - الأسيدي : منبني أسد بن خزيمة . كان من السابقين إلى الإسلام ومن أجمل الرجال ، هاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها ، واستشهد في قتال الربدة مع خالد بن الوليد بيد طليحة الأسيدي سنة اثنتي عشرة ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفرس يوم القادسية مع سعيد بن أبي وقاص ، واستشهد في وقعة الجسر المشهورة .

قوله : (فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال أنت منهم) وللبيهاري في رواية :
فقال اللهم اجعله منهم وفيه : طلب الدعاء من الفاضل .

قوله : (ثم قام رجل آخر) ذكر مبهمًا ولا حاجة بنا إلى البحث عن اسمه .

قوله : (فقال سبقك بها عكاشة) قال القرطبي : لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة ، فلذلك لم يجبه ، إذ لو أجابه لجاز أن يقلب ذلك كل من كان حاضرًا فيتسلسل الأمر ، فسد الباب بقوله ذلك أه .

باب الخوف من الشرك

قال المصنف رحمه الله تعالى : وفيه استعمال المعارض وحسن خلقه صلى الله عليه وسلم .

قوله : باب (الخوف من الشرك)

وقول الله عز وجل : '4: 48 و 116' "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ" قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه (لا يغفر أن يشرك به) أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك (ويغفر ما دون ذلك من يشاء) أي من الذنوب لمن يشاء من عباده . انتهى .

فتبيين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب ، لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتتب منه ، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به ، وإن شاء عذبه به ، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله ، لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم ، وتنقص لرب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره وعدل غيره به ، كما قال تعالى : '1: 6' "ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ" وأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته ، والذل له ، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك ، فمتى خلا منه خرب وقامت القيمة ، كما "قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله رواه مسلم . ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى ومشاركة في خصائص الإلهية : من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء ، والتوكيل وأنواع العبادة كلها بالله وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبّهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، شبّههاً بمن له الحمد كله ، وله الخلق كله ، وله الملك كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وب بيده الخير كله ، فأذمة الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشاً لم يكن . لا مانع لما أعطي ولا معطي لما منع ، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا يمسك لها ، وما يمسك فلا يرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات : بال قادر الغني بالذات . ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والإذابة والتوكيل والتوبة والاستعانة ، وغاية الحب مع غاية الذل : كل ذلك يجب عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده ، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره . فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبّه له ولا مثيل له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . هذا معنى كلام ابن القيم رحمة الله .

وفي الآية رد على الخارج المكفرین بالذنب . وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار .

ولا يجوز أن يحمل قوله : "ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" على التائب ، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى :

39' 53' " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا " فهنا عم وأطلق ، لأن المراد به التائب ، وهناك خص وعلق ، لأن المراد به من لم يتلب . هذا ملخص قول شيخ الإسلام .

واجنبني وبني أن نعبد الأصنام قوله : (وقال الخليل عليه السلام) 14' 35' "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" الصنم ما كان منحوتاً على صورة ، والوثن ما كان موضوعاً على غير ذلك . ذكره الطبرى عن مجاهد . قلت : وقد يسمى الصنم وثناً كما قال الخليل عليه السلام 29' 17' "إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقو إفكا" الآية ويقال : إن الوثن أعم ، وهو قوى ، فالأصنام أوثان ، كما أن القبور أوثان .

قوله : "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" أي اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام ، وباعد بيننا وبينها . وقد استجاب الله تعالى دعاءه ، وجعل بنبيه أنبياء ، واجنبهم عبادة الأصنام . وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله : "رب إنهم أضللن كثيراً من الناس" فإنه هو الواقع في كل زمان . فإذا عرف الإنسان أن كثيراً وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام : أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله .

قال إبراهيم التيمي : من يؤمن البلاء بعد إبراهيم ؟ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . فلا يؤمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه : من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيد ، والنهي عن الشرك به .

خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أمهه من الشرك قال المصنف : (وفي الحديث : "أخاف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فسئل عنه فقال : الرياء") أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معزو . وقد رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي ،

وَهُذَا لِفْظُ أَحْمَدَ : حَدَّثَنَا يُونُسٌ حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ يَزِيدَ - يَعْنِي ابْنَ الْهَادِ - عَنْ عُمَرٍ وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ أَخْوَافَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرُكُ الْأَصْغَرُ . قَالُوا وَمَا الشَّرُكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الرِّيَاءُ . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِذَا جَازَى النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ ترَاءُوا فِي الدُّنْيَا فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْهُمْ جَزَاءً " .

قال المنذري : ومحمود بن لبيد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح له منه سماع فيما أرى .
وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال : له صحبة ، ورجحه ابن عبد البر والحافظ . وقد رواه الطبراني
بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج . مات محمود سنة ست وتسعين . وقيل سنة
سبعين وله تسع وتسعون سنة .

قول : (إن أخوْف ما أخوْف عَلَيْكُم الشَّرْكُ الْأَصْغَرُ) هذا من شفقته صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَمْتَهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ ، فَلَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَمْرَهُمْ بِهِ ، وَلَا شَرَّ إِلَّا بَيْنَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ بِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا صَحَّ عَنْهُ : " مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُ أَمْتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُ لَهُمْ . . . " الْحَدِيثُ ، إِذَا كَانَ الشَّرْكُ الْأَصْغَرُ مُخْفَفًا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ كَمَالِ عِلْمِهِمْ وَقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ ، فَكَيْفَ لَا يَخَافُهُ وَمَا فَوْقَهُ مِنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ وَإِيمَانَ بِمَرَاتِبٍ ؟ خَصْوَصًا إِذَا عَرَفَ أَنَّ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ الْيَوْمَ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَّا مَا أَقْرَبَهُ الْمُشْرِكُونَ ، وَمَا عَرَفُوا مِنْ إِلَهِيَّةِ الَّتِي نَفَقُهَا كَلْمَةُ الْإِحْلَاصِ عَنْ كُلِّ مَا سُوِّيَ اللَّهُ .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الشرك أخفى من دبيب النمل . قال أبو بكر : يا رسول الله ، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو ما دعى مع الله ؟ قال : ثكلتك أمك ، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل " الحديث . وفيه : أن تقول أعطاني الله وفلان ، والنند أن يقول الإنسان : لولا فلان قتلني فلان اهـ . من الدر .

قال المصنف : (وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من مات وهو يدعوه لله ندأ دخل النار" رواه البخاري).

قال ابن القيم رحمة الله : الند الشبيه ، يقال : فلان ند فلان ، وند يده ، أى مثله وشبيهه اهـ . قال تعالى : ²² "فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون" .

قوله : (من مات وهو يدعو لله نداءً) أي يجعل لله نداءً في العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به دخل النار . قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

والشرك فاحذر ، فشرك ظاهر ذا القسم يقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أياً كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان
واعلم أن اتخاذ الند على قسمين :

الأول : أن يجعله لله شريكًا في أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم ، وهو شرك أكبر .
والثاني : ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت .
وكيسير الرياء ، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال له رجل : "ما شاء الله وشئت ، قال : أجعلتني لله نداء؟ بل ما شاء الله وحده" رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد والنمسائي وابن ماجه . وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد .

وفيه : بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي ، كطلب الشفاعة من الأموات ، فإنها ملك لله تعالى وببيده ، ليس بيده غيره منها شيء ، وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر ، كما يأتي تقريره في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .
قال المصنف رحمه الله تعالى : (ولمسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار") .

جابر : هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام - الأنصاري ثم السلمي - بفتحتين -
صحابي جليل هو وأبوه ، ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما مات بالمدينة بعد السبعين ، وقد
كف بصره ، وله أربع وتسعون سنة .

قوله : (من لقي الله لا يشرك به شيئاً) قال القرطبي : أى لم يتخذ معه شريكًا في الإلهية ، ولا
في الخلق ، ولا في العبادة ، ومن العلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة : أن من مات على
ذلك فلا بد له من دخول الجنة ، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة . وأن من مات
على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ، ويخلد في النار أبد الآباد ، من غير انقطاع
عذاب ولا تصرم آماد .

وقال النووي : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين
الكتابي اليهودي والنصراني ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر
عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك
ـ وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به . لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًا .

عليها دخل الجنة أولاً ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا عليها فهو تحت المشيئة . فإن عفا الله عنه دخل الجنة أولاً ، وإلا عذب في النار ثم أخرج من النار وأدخل الجنة .

وقال غيره : اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم . إذ من كذب رسول الله فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، وهو كقولك : من توضأ صحت صلاته . أي مع سائر الشروط ، فالمراد : من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به إجمالاً في الإجمالي وتفصيلاً في التفصيلي . انتهى .

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله بعث معاذ إلى اليمين يدعوه إلى قوله : (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله)

لما ذكر المصنف رحمة الله التوحيد وفضله ، وما يوجب الخوف من ضده ، نبه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه ، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة . كما هو سبيل المسلمين وأتباعهم كما قال الحسن البصري لما تلا قوله تعالى : '41' 33' " ومن أحسن قولًا من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين " فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولی الله ، هذا صفوۃ الله ، هذا خیرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته . ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته : إنني من المسلمين . هذا خليفة الله .

قال رحمة الله : (وقوله 12' 108' " قل هذه سببلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ".)

قال أبو جعفر ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) يا محمد (هذه) الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان . والإنتهاء إلى طاعته وترك معصيته (سببلي) طريقتي ، ودعوتي (أدعو إلى الله تعالى وحده لا شريك له (على بصيرة) بذلك ، ويقين علم مني به (أنا) ويدعو إليه على بصيرة أيضاً من اتبعني وصدقني وأمن بي (سبحان الله) يقول له تعالى ذكره : وقل. تنزيهاً لله تعالى وتعظيمياً له من أن يكون له شريك في ملکه أو معبود سواه في سلطانه (وما أنا من المشركين) يقول : وأنا برئ من أهل الشرك به . لست منهم ولا هم مني انتهى .

قال في شرح المنازل : يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهي البصيرة التي تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المائي إلى البصر ، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة وهي أعلى درجات العلماء . قال تعالى : "قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني" أي أنا وأتباعي على بصيرة . وقيل (من اتبعني) عطف على المرفوع في (أدعوه) أي أنا أدعو إلى الله على بصيرة ، ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة ، وعلى القولين : فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى ، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة ، وإن كان من أتباعه على الانتماء والدعوى .

قال المصنف رحمه الله : فيه مسائل (منها التنبية على الإخلاص لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه ، ومنها : أن البصيرة من الفرائض . ومنها : أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه الله تعالى عن المسبة . ومنها أن من قبح الشرك كونه مسبة لله تعالى . ومنها إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك) آه .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى : '16' 125' "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" الآية . ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو ، فإنه إما أن يكون طالباً للحق محبًا له . مؤثراً له على غيره إذا عرفه . فهذا يدعى بالحكمة . ولا يحتاج إلى موعظة وجداول . وإما أن يكون مشتغلًا بضد الحق . لكن لو عرفه آثره واتبعه . فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب . وإما أن يكون معانداً معارضًا ، فهذا يجادل بالتي هي أحسن . فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجلاد إن أمكن . انتهى .

بعث معاذ إلى اليمن يدعوهم إلى التوحيد

قال : (وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذًا إلى اليمن قال : "إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب . فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله - وفي رواية : إلى أن يوحدوا الله - فإنهم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة . فإنهم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنىائهم وتترد على فقرائهم . فإنهم أطاعوك لذلك فإياك وكرام أموالهم . واتقد دعوة المظلوم . فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" آخر جاه) .

قال الحافظ : كان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر . قبل حج النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكره المصنف - يعني البخاري في أواخر المغاري - وقيل : كان ذلك في آخر سنة تسع عند منصرفه صلى الله عليه وسلم من تبوك . رواه الواقدي بإسناد إلى كعب بن مالك . وأخرجه ابن سعد في طبقات عنه واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثم توجه إلى الشام فمات بها .

قال شيخ الإسلام : ومن فضائل معاذ رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن مبلغاً عنه . وفقهاً ومعلماً وحاكمًا .

قوله (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب) قال القرطبي : يعني اليهود والنصارى ، لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب ، وإنما نبه على ذلك ليتهيأ لمناظرهم .
وقال الحافظ : هو كالتوطئة للوصية لجمع همته عليها .

قوله (فليكن أول ما تدعوههم إليه شهادة أن لا إله إلا الله شهادة رفع على أنه اسم يكن مؤخر . و أول خبرها مقدم . ويجوز العكس .

قوله : (وفي رواية إلى أن يوحدو الله) هذه الرواية ثابتة في كتاب التوحيد من صحيح البخاري . وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله فإن معناها توحيد الله بالعبادة ونفي عبادة ما سواه . وفي رواية فليكن أول ما تدعوههم إليه عبادة الله وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، كما قال تعالى : '256' " فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها " والعروة الوثقى هي (لا إله إلا الله) وفي رواية للبخاري فقال : ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله .

قلت : لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها ، أحدها : العلم المنافي للجهل . الثاني : اليقين المنافي للشك . الثالث : القبول المنافي للرد . الرابع : الانقياد المنافي للترك . الخامس : الإخلاص المنافي للشرك . السادس : الصدق المنافي للكذب . السابع : المحبة المنافية لضدتها .

وفيه دليل على أن التوحيد - الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب . ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام : "أن عبدوا الله ما لكم من إله غيره" وقال نوح : "أن لا تعبدوا إلا الله" وفيه معنى (لا إله إلا الله) مطابقة .

قال شيخ الإسلام : وقد علم بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمن به الخلق : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدو وليناً ، والمحاج دمه وما له : معصوم الدم والمال . ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان . قال : وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطنًا وظاهرًا ، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء ا ه .

قال المصنف رحمه الله تعالى : (وفيه أن الإنسان قد يكون عالماً وهو لا يعرف معنى لا إله إلا الله أو يعرفه ولا يعمل به) .

قلت : فيما أكثر هؤلاء - لا كثراهم الله تعالى .

قوله : (إِنْ هُمْ أَطَاعُوكُمْ لِذَلِكَ أَيْ شَهَدُوا وَانْقَادُوا لِذَلِكَ (فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوةً) فِيهِ : أَنَّ الصَّلَاةَ أَعْظَمُ وَاجْبَ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ . قَالَ النَّوْوَى مَا مَعَنَاهُ : أَنَّهُ يَدْلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَطَالِبَ بِالْفَرَائِضِ فِي الدُّنْيَا لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْلَامِ . وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ لَا يَكُونُوا مُخَاطِبِيْنَ بِهَا ، وَيَزَادُ فِي عَذَابِهِمْ بِسَبِبِهَا فِي الْآخِرَةِ . وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْكُفَّارَ مُخَاطِبُوْنَ بِفَرْوَحَةِ الشَّرِيعَةِ الْمَأْمُورُ بِهِ وَالْمَنْهُى عَنْهُ . وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِيْنِ ا ه .

قوله : (فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تَؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَاهُمْ فَتَرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ) .
فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات ، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء ، وإنما خص النبي صلى الله عليه وسلم الفقراء لأن حقهم في الزكاة أكمل من حق بقية الأصناف الثمانية .

وفيه : أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها : إما بنفسه أو نائبه ، فمن امتنع عن آدائها إليه أخذت منه قهراً .

في الحديث دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد ، كما هو مذهب مالك وأحمد .
وفيه : أنه لا يجوز دفعها إلى غني ولا إلى كافر غير المؤلف ، وإن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون ، كما هو قول الجمهور ، لعموم الحديث .

قلت : والفقير إذا أفرد في اللفظ تناول المسكين وبالعكس ، كنظائره . كما قرره شيخ الإسلام .

قوله (إياك وكرائم أموالهم) بنصب كرائم على التحذير ، وجمع كريمة قال صاحب المطالع هي الجامعة للكمال الممكن في حقها ، من غزارة لبن ، وجمال صورة ، وكثرة لحم وصوف . ذكر النwoي (قلت) وهي خيار المال وأنفسه وأكثره ثمناً .

وفيه : أنه يحرم على العامل في الزكاةأخذ كرائم المال ، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال . بل يخرج الوسط ، فإن طابت نفسه بالكريمة جاز .

قوله : (واتق دعوة المظلوم) أي اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم ، وهذا الأمران يقيان من رزقهما من جميع الشرور دنيا وأخرى .

وفيه تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم .

قوله : (فإنه) أي الشأن (ليس بينها وبين الله حجاب) هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن ، أي فإنها لا تحجب عن الله فيقبلها .

وفي الحديث أيضاً قبول خبر الواحد العدل ، ووجوب العمل به . وبعث الإمام العمال لجباية الزكاة . وأنه يعظ عماله وولاته ، ويأمرهم بتقوى الله تعالى ، ويعلّمهم ، وبينهاهم عن الظلم ويعرّفهم سوء عاقبته . والتنبيه على التعليم بالتدريج . قاله المصنف .

قلت : وبيبدأ بالأهم فالأهم .

واعلم أنه لم يذكر في الحديث الصوم والحج ، فأشكل ذلك على كثير من العلماء . قال شيخ الإسلام : أجاب بعض الناس : أن بعض الرواية اختصر الحديث وليس كذلك . فإن هذا طعن في الرواية . لأن ذلك إنما يقع في الحديث الواحد ، مثل حديث وفد عبد القيس حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره ، فاما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيها كذلك ، ولكن عن هذا جوابان : أحدهما : أن ذلك بحسب نزول الفرائض ، وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة . فإنه أمر بالصلاحة في أول أوقات الوحي ، ولهذا لم يذكر وجوب الحج ، كعامة الأحاديث ، إنما جاء في الأحاديث المتأخرة .

الجواب الثاني : أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه . فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها : كالصلاحة والزكاة . ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة ، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم . فإذاً أن يكون قبل فرض الحج ، وإنما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه ، وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهم ، لأنهما عبادتان ظاهرتان ، بخلاف الصوم بأنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ، ونحو ذلك مما يؤتمن عليه

العبد فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سراً ، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته ، وهو يذاكر في الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها ويصيرون مسلمين بفعلها . فلهذا علق ذلك بالصلة والزكاة دون الصوم ، وإن كان واجباً كما في آياتي براءة نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذًا إلى اليمن لم يذكر في حديث الصوم ، لأنه تبع وهو باطن ، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام ، ولا يجب في العمر إلا مرة . انتهى بمعناه .

قوله (أخرجاه) أي البخاري ومسلم ، وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذى والنمسائى وابن ماجة .

إعطاء على الرأية يوم خيبر وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام

قال : (ولهمما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : "لأعطين الرأية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه فبات الناس يدوكون ليلتهم ، أيهم يعطها . فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه قال فأرسلوا إليه ، فأتي به ، وبصق في عينيه ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وجع ، فأعطيه الرأية ، قال انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من حمر النعم")¹ .
يدوكون أي يخوضون .

قوله : (عن سهل بن سعد) أي ابن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجى الساعدى ، أبي العباس صاحبى شهير ، وأبوهه صاحبى أيضاً ، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة .

قوله : (قال يوم خيبر) وفي الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال : "كان علي رضي الله عنه قد تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر ، وكان أرمد ، فقال : أنا أختلف عن رسول الله صلى

¹ حديث سهل هذا واحد من الأدلة التي فيها بيان منهج الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وكيف ندعوا الناس وكيف يجب أن نحرص على هداية الناس قبل كل شيء وأن نعرف أن الأنبياء كلهم أرسلوا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ولهداية الناس من الظلال إلى الحق هذا مقصود دعوة الأنبياء بالدرجة الأولى ، الرحمة بالناس والحرص على إخراجهم مما هم فيه من الظلال الذي سماه الله ظلمات إلى نور الإيمان والتوجيد ..

والجهاد إنما يشرع بعد أن نبذل الجهد الطويل في إصلاحهم وهدايتهم وبيان الإسلام لهم فإنهم أصرروا على كفرهم وأصرروا على عدم الخضوع للإسلام بأداء الجزية فحينئذ نقاتلهم لأنهم تمردوا على الله سبحانه وتعالى الذي خلقهم لعبادته وسرر لهم ما في تالسموات وما في الأرض ليقوموا بهذه العبادة كما يريده الله عز وجل فهذا مقصود هذا الحديث ، المقصود منه الموقف للباب والترجمة قوله (ثم ادعهم إلى الإسلام) .

الله عليه وسلم فخرج علي رضي الله عنه فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله عز وجل في صباحها قال صلى الله عليه وسلم : لأعطيين الراية - أو ليأخذن الراية - غداً رجل يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه . فإذا نحن بعلي وما نرجوه ، فقالوا : هذا علي ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية ففتح الله عليه".

قوله : (لأعطيين الراية) قال الحافظ : في رواية بريدة : "إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله" وقد صرخ جماعة من أهل اللغة بتراوتها ، ولكن روى أحمد والترمذى من حديث ابن عباس "كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء ، ولواؤه أبيض" ومثله عند الطبرانى عن بريدة . وعن ابن عدي عن أبي هريرة وزاد مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

قوله : (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) فيه فضيلة عظيمة لعلي رضي الله عنه .

قال شيخ الإسلام : ليس هذا الوصف مختصاً بعلي ولا بالأئمة ، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي ، يحب الله ورسوله ، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتاج به على النواصib الذين لا يتولونه ، أو يكفرونه أو يفسقونه ، كالخارج . لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردمتهم ، فإن الخارج تقول في علي مثل ذلك ، ولكن هذا باطل ، فإن الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً .

وفي إثبات صفة المحبة خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم .

قوله : (يفتح الله على يديه) صريح في البشارة بحصول الفتح ، فهو علم من أعلام النبوة .

قوله : (فبات الناس يذكرون ليالיהם) بنصب (ليالיהם) و يذكرون قال المصنف : يخوضون . أي فيمن يدفعها إليه . وفيه حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به ، وعلو مرتبتهم في العلم والإيمان .

قوله : (أيهم) هو برفع أي على البناء لإضافتها وحذف صدر صلتها .

قوله : (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاه) وفي رواية أبي هريرة عند مسلم أن عمر قال : "ما أحببت الإمارة إلا يومئذ" .

قال شيخ الإسلام : إن في ذلك شهادة النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بإيمانه باطنًا وظاهرًا وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله ووجوب موالاة المؤمنين له ، وإذا شهد النبي صلى الله عليه وسلم لمعين بشهادة ، أو دعا له أحباب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ومثل ذلك الدعاء ، وإن كان النبي يشهد بذلك لخلق كثير ، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس .

وعبد الله بن سلام وإن كان شهد بالجنة لآخرين ، والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضرب في الخمر .

قوله : (فقال أين علي بن أبي طالب) فيه سؤال الإمام عن رعيته ، وتفقد أحوالهم .

قوله : (فقيل هو يشتكى عينيه) أي من الرمد ، كما في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص فقال : ادعوا لي علياً فأتي به أرمد الحديث ، وفي نسخة صحيحة بخط المصنف : فقيل هو يشتكى عينيه ، فأرسل إليه مبني للفاعل¹ ، وهو ضمير مستتر في الفعل راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله . ولمسلم من طريق إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : فأرسلني² إلى علي فجئت به أقوده أرمد .

قوله : (فبصق) بفتح الصاد ، أي تفل .

وقوله (ودعا له فبرا) هو بفتح الراء والهمزة³ ، أي عوفي في الحال ، عافية كاملة لأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر .

وعند الطبراني من حديث علي فما رمدت⁴ ولا صدعت منذ دفع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الراية⁵ وفيه دليل على الشهادتين⁶ .

قوله (فأعطاه الراية) قال المصنف : فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ومنعها عن سعي⁷ . وفيه إن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافي التوكل⁸ .

¹ فأرسل أو أرسل ؛ (أرسل) وفيه الفاعل المرسل هو النبي صلى الله عليه وسلم ، (أرسل إليه) المرسل هو النبي عليه الصلاة والسلام أو واحد من طرفيه ؛ أرسل إلى علي .

² (فأرسل إلى) هذا واضح بيني ؛ فأرسل إليه أو أرسل إليه ؛ يعني المرسل هو النبي ؛ أرسل فلاناً وهو : سلمة بن الأكوع ، وفي رواية أنه أرسل سعد بن أبي وقاص ؛ ولامع أن يكون أرسل هذا وهذا كليهما لحضرنا علياً رضي الله عنه .

³ يعني (فبراً) أو (فبراً) يقول (فبراً) .

⁴ (رمدت) رمداً يرمد ؛ من باب مرض يمرض ، من باب فرح .

⁵ أطئتها تصل إلى مرتبة الحديث الحسن هذه الرواية .

⁶ من أين نأخذ هذا ؟

يعني تفل فيه فبراً يدل على صدق الرسول ، وأنه رسول الله حقاً ، وهو جاءنا بالشهادة وقال أنا رسول الله - عليه الصلاة والسلام - دليل على الشهادتين .

⁷ هذا ما قلناه لكم عن الإمام رحمة الله إنه قال (فيه الإيمان بالقدر) يعني بحرص الإنسان على الشيء ويفشل فيقول : قدر الله وما شاء فعل ((أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن)) فإن فانت فلا تفل : لو أتي فعلت كذا وكذا لكان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل .

فالشاهد لو اجتهد الإنسان وفشل لا يترك الأسباب ويقول خلاص أنا بذلت الأسباب في القضية الفلانية وما نجحت خلاص أنا ما أبذل الأسباب أستريح .. لا !

استمر في بذل الأسباب وهذا من الإيمان بالشرع ؛ لأن الشرع أمرنا بالأخذ بالأسباب .

⁸ الواجبة مثل الصلاة والصوم وما شاكل ذلك ، والسعى إلى الحج والسعى إلى أداء الصلاة كلها أسباب واجبة ، هذه كلها من الأسباب الواجبة .

والأسباب المستحبة السعي في المستحبات ؛ يعني الصلاة النافلة والمشي إليها وما شاكل ذلك ؛ تروح تصلي التراويح في المسجد ؛ هذا من الأسباب المستحبة ، ماهي من الواجبات .

والأسباب المباحة في أمور الدنيا كلها لا تنافي التوكل .

قوله (وقال انفذ على رسلي) بضم الفاء ، اي امض ورسلك بكسر الراء وسكون السين ، أي على رفقك من غير عجلة . وساحتهم فناء أرضهم وهو ما حولها^١ .

وفيه : الأدب عند القتال وترك العجلة والطيش^٢ ، والأصوات التي لا حاجة إليها .

وفيه : أمر الإمام عماله بالرفق^٣ من غير ضعف ولا انقضاض عزيمة^٤ ، كما يشير إليه قوله ثم ادعهم إلى الإسلام^٥ أي الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإن شئت قلت الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله^٦ ، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده ، وإخلاص الطاعة لرسوله صلى الله عليه وسلم^٧ . ومن هنا طابق الحديث الترجمة^١

أبدل الأسباب في طلب الرزق ، وفي غيره مما ينفعك في دينك ودنياك ؛ فمن الأسباب ما هو واجب ومنها ما هو مستحب كالتداوي مثلاً على الراوح ؛ ومنها ما هو مباح كالسعري في أمور الدنيا ؛ فإذا كان هناك هلاك وجوع يترتب على السبب فلا بد من السبب وينبعين حينئذ .

^١ الساحة : الفناء ؛ فناء أرض اليهود أو أي فناء ؛ فناء ساحة المسجد يعني فناؤه ؛ ساحة البيت فناؤه .
^٢ من فين تأخذ هذا ؟

من قوله (على رسلي) أي تمهل وترفق .

^٣ أيضاً من قوله (على رسلي) أي الرفق .

^٤ (ولا انقضاض عزيمة) يعني مصمم عازم على التنفيذ لكن ما يمشي بسرعة وعجلة يمشي بهدوء وهو ماضٍ في عزمه ، والدليل (حتى تنزل بساحتهم) .

^٥ الشاهد في هذا (ادعهم إلى الإسلام) ما هو الإسلام ؟

في حديث معاذ (فليكن أول ما تدعوه إلي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) وهنا قال (ادعهم إلى الإسلام) هل هذا الحديث يخالف ذاك ؟ وإن متفقان ؟

متافقان ؛ إنما يفسر لك الإسلام هذا ما هو ؟

شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وما تقتضيه الشهادتان من الطاعة والإخلاص والعمل ؛ فهو يتطابق مع حديث معاذ في قوله ((فليكن أول ما تدعوه إلي شهادة أن لا إله إلا الله)) لأن الشهادة هي أصل الإسلام .

كيف يدعوه إلى الإسلام ؟

أول ما يدعوه يقول : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ما يقول أسلموا ويس !
يقول : اشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولا يدخل في الإسلام أي كافر إلا إذا نطق بالشهادتين ، يدخل في الإسلام وبعدين حسابه على الله سبحانه وتعالى ؛ ثم بعد ذلك مجال التطبيق مفتوح ؛ إن طبق ولا يظهر لنا نفاقه أو ضعفه أو ما شكل ذلك .

^٦ ما هو لما جاء جبريل يسال النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام . قال ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكوة وتصوم رمضان ، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)) فجعل أصله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولا يتكمل الإيمان إلا بهذا إذا قام بهذه الأركان .

^٧ وإخلاص الطاعة لرسوله : يعني لا يقدم قول أحد كائناً من كان على قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ لا أقوال الصحابة ولا التابعين ، ولا الأئمة ، ولا أحد .

لا يقدم قول أحد على قول الرسول ، ولا فعل أحد على فعل الرسول ، ولا هدي أحد على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ هذا هو الإخلاص في شهادة أن محمداً رسول الله ، وهذا أن تقدم هديه على هدي الناس جميعاً ، وأقواله على أقوال الناس جميعاً ولو تجمع الناس كلهم في صعيد واحد ومحمد صلى الله عليه وسلم في جانب لوجب أن تقف مع محمد عليه الصلاة والسلام وحاشي المسلمين من هذا ؛ لكن هذا فرض .

يعني هذا يشير إلى من يتعصب لمذهب .

يتغصب لطريقة من الطرق الصوفية .

يتغصب للروافض .. للخوارج .. للمرجئة .. لأي إمام لأي فرقه .. ولا يكون ملخصاً في الشهادة لله بالإلهية ، ولمحمد بالرسالة إلا إذا أخلص الشهادة لله بالإلهية وعده لم يشرك معه أحداً في العبادة ولا يعبد إلا بما شرع هذا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا يقدم قول أحد على شيء مما شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لهذا قال الإمام الشافعي - رحمة الله - وقال غيره كلّ يقول مثل قوله :)) أجمعـتـ الـأـمـةـ أـنـ مـنـ اـسـتـبـانـتـ لـهـ سـنـةـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ بـكـنـ لـهـ أـنـ يـتـرـكـهـاـ لـقـولـ أـحـدـ)) أـبـدـأـ كـائـنـاـ مـنـ كـانـ .

لا صحابة ولا تابعين .

ولا أئمة ولا أحد .. لا يليق ب المسلم أن يقول : مذهبى طريقى .. والله طريقى كذا .. والله مذهبى كذا .
تقول له قال الله يقول لك مذهبى .. قال رسول الله يقول لك مذهبى .. والله هذا حاصل والدنيا متخصمة من هذه الأصناف فيجب أن نحذر وأن نعرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم قدره ، ومنزلته ، وأنه رسول .

كما قال تعالى لنبيه ورسوله : '3' : 64 " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون " ².

قال شيخ الإسلام رحمة الله : والإسلام هو الاستسلام لله ³ ، وهو الخضوع له والعبودية له . كذا قال أهل اللغة .

وقال رحمة الله تعالى : ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسلاه ⁴ : هو الاستسلام له وحده ، فأصله في القلب . والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ما سواه . فمن عبده وعبد معه إليها آخر لم يكن مسلماً ⁵ . ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ⁶ ، وفي الأصل : هو من باب العمل ، عمل القلب والجوارح . وأما الإيمان فأصله تصديق القلب ، وإقراره ومعرفته ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ⁷ . انتهى .

ما معنى شهادة أن محمداً رسول الله؟ بس كلام !!

بعدين تتبع الطريقة التي تريدها ، والجماعة التي تريدها ، والحزب الذي تريده وتمشي بهواك .. لا يجب أن تتقاد لهذا الرسول .

تقاد الله ثم تقاد لرسوله صلى الله عليه وسلم { من يطع الرسول فقد أطاع الله } { ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً } عصيان كفر أو عصيان كبيرة من الكبائر مهدد بالنار ، ذاك خالد وهذا قد لا يخالد ، وقد يخالد إذا استهان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

¹ طابق الحديث الترجمة (ادعهم إلى الإسلام) والترجمة (باب الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله) ادعهم إلى الإسلام همة الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله . فهذا ادعهم إلى الإسلام وطابق الترجمة .

² لماذا ساق هذه الآية ؟

لأن الطرف هذا الذي دعا فيه على رضي الله عنه اليهود هم أهل الكتاب ودعاهم إلى الإسلام ، وهذه الآية هي دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام { قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله } { اتخذوا أحبارهم ورہبانهم أرباباً من دون الله } فعل هذا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولما كتب إلى قبصر قال : ((بسم الله الرحمن الرحيم إلى قبصر عظيم الروم أما بعد فإبني أدعوك بدعاء الإسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتبين ؛ فإن أبىت فعليك أثمن الأربعين و } يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقل أشهدوا بأننا مسلمون } فالشاهد أن علياً رضي الله عنه أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم لدعوة اليهود وهو يشرح هذا الحديث فجاء بهذه الآية لأن ذاك فيه دعوة لأهل الكتاب والآية فيها دعوة لأهل الكتاب ، ويشبه هذا كتابة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قبصر يدعو فيه أهل الكتاب إلى الإسلام .

³ والإسلام هو الاستسلام .. يا الله تلقى بيديك وتقاد مافيش لا ولا ف ولا دوران هذا هو الإسلام الصحيح .

يجب أن نستسلم الله رب العالمين { إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت } فالإسلام إنقياد وإخلاص .

⁴ فالليوم يا إخوان يجب أن ندرس الإسلام بقلوبنا ومشاعرنا ما ندرسه كلام بس .

والله يجب أن تتغفل معاني الإسلام والتوجيه في أعمق نفوسنا ، وتجري بها دماؤنا ونخلص الله رب العالمين .

⁵ يعني الإسلام هو الظاهر مع الجوارح ، الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لكن أصله في القلب . وهو من باب العمل ، الإسلام بباب العمل ؛ لكن الإيمان من باب القول وهو الاعتقاد قول القلب واعتقاده وعمله .

⁶ يعني استكبار عن عبادته يعرف أن الله هو الإله الحق المبين وأنه هو المعبد بحق لكن ما يعمل استكبار .. هذا مسلم ؟

ليس مسلم كافر .. هل أبو جهل كان يشك في صدق محمدأً عليه الصلاة والسلام ؛ بل أبو لهب نفسه كان يشك في صدق محمدأً عليه الصلاة والسلام كم قال الله تعالى { فإنهم لا يكتذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون } ، وجحدوا بها } في فرعون وقومه } واستيقنها أنفسهم ظلماً وعلوا } قال موسى عليه السلام لفرعون { لقد علمت ما أنزلت هؤلاء إلا رب السموات والأرض وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً } هالك ؛ فهو يعرف أن موسى رسول الله وأن هذه الآية تنزلت من الله ، الله الذي أنزلها ، وأنها حق لكن استكبار فكان من أكبر أعداء الله فكل من يستكبار يعرف أن الله حق ، ويشهد أن الكتاب حق لكن يستكبار عن الإنقياد لهذا الرسول الكريم فهو كافر ليس بمسلم .

⁷ فهو ما أقصى على التصديق لأن المرجئة يقول إن الإيمان هو التصديق بس .. ويأفيه التكذيب فقط ؛ فلا يكفر الإنسان إلا بالجحود بس .. هذا غلط .

الجحود والاستكبار والاستهزاء كلها كفر وخرج الإنسان من دائرة الإسلام ولو صدق هذا الرسول .

فتبيين أن أصل الإسلام هو التوحيد¹ ونفي الشرك في العبادة وهو دعوة جميع المسلمين ، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسن رسله² ، كما قال تعالى عن نوح أول رسوله : ' 71 : 3 ' أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ' .

لو صدق الرسول وسخر به واستهزأ به ! آمن بالله واستهزأ به ! آمن بالكتاب واستهزأ به . كافر ، { قل أبا إسماعيل وآياته ورسوله كنتم تستهزئون } و قال لهم { قد كفرون بعد إيمانكم } كانوا مؤمنين فكفروا بهذا الاستهزاء ، كفروا وخرجوا من الإسلام ، وصاروا منافقين باستهزائهم .

فالشاهد أن الإيمان ليس هو التصديق فقط ، شيخ الإسلام قال : تصدق ، إقرار ، معرفة ؛ هذا هو الإيمان . ما هو تصديق بس . تصدق ، إقرار ، طمأنينة ، استسلام بارك الله فيك وعلم وعمل ؛ هذا هو الإيمان ، مو تصدق بس . وبما أخوه بعض الناس يرمون الألباني بالإرجاء وتلاميذه هؤلاء يظلمونهم ، ليظلمونهم ، ليسوا مرحلة هم يؤمّنون بأن الاستكبار كفر ، وأن الاستهزاء كفر ، وأن وأن .

لكن يغلط بعضهم حينما يقرر هذه الأشياء ثم يجمعها ويقول مرجعها إلى الجحود ؛ يأتي الغلط هنا في جمعها وإلا فلو قلت له : مارأيك في اللي يستهزيء بالله ، يقول لك : كافر .

ما رأيك فمن يستكير عن الإيمان ، يؤمن بأن محمداً رسول الله لكن يستكير عن الانقياد له ، يقول لك كافر مثل أبي طالب ، لا يكابرون في هذا ، وفرق بينه وبين الإرجاء ، يجب أن نفرق بينهم ، ويقولون الإيمان هو قول وعمل واعقاد ما يقولون مثل المرجنة ، ويقولون الإيمان يزيد وينقص حتى إن الألباني - رحمة الله - في شرحه للطحاوية لما قال ابن أبي العز والاختلاف بيننا وبين مرحلة الفقهاء لفظي ، قال : لا ليس بلفظي ؛ بل هو حقيقة وجواهري ؛ لأن الله صرّح بأن الإيمان يزيد وينقص ، وهم يقولون لا ، وصرّح الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الإيمان ينقص وهو يقولون لا . فهو يشد على المرجنة ، كيف تقول يا أخي مرحلة ، إذا أخطأ في لفظه وهو يشارك في العقيدة في كل شيء ثم يخطيء في لفظه تخرج عن السنة ، وتدخله في أهل البدع .

بل كثير من يخاصمون الألباني أنا أرى أنهما واقعون في الإرجاء الغالي ومنغمسون فيه إلى أعنفهم ؛ كيف ؟ قل لهم فلان يقول بوحدة الوجود .. يقول بالاشتراكية .. يعطي صفات الله .. يسب الصحابة .. يقول لك : مجدد .. مجدد . يعني لا يضر مع الإيمان ذنب . كما يفعل المرجنة نفس الشيء ؛ بل أشد بل غلاء المرجنة لا يطيقون من يطعن في أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولا من يقول بوحدة الوجود ، لا يطيقون هذا الصنف ولا يتولونه ، عرفتهم . فكيف يا أخي ترمي الناس بالإرجاء وأنت في حمنة الإرجاء . إيش التناقض هذا ، واللعب بعقل الناس .

ففيجب يا أخوان أن تنبصر ، وأن ينصف الإنسان من نفسه ، وأن يفتشن نفسه ماذا فيه من العيوب فيتخلص منها لأن الأمة تحتاج إلى دعاء صادقين ماعندهم تناقضات ولا كلام فارغ ، ولا عندهم أهواء يريدون ناس يدعون إلى عبادة الله وحده ، وإلى إخلاص الدين له وحده ، وإلى هداية الناس إلى صراط مستقيم .

مو إلى تبع حزب ولا جماعة ولا فريق ولا مذهب ولا ولا أحداً . الناس عندهم وما أنا إلا من غزية إن غوت غويب ، خلاص مع الجماعة الفلانية ، يحارب .. يوالي من أجلها .. مو من أجل الله ، يا أخي يجب التجدد للسيحانه وتعالى . والله لو كان أقرب قريب مني إبني ولا أخي يقول ويطعن في الصحابة والله لا تبرأ منه وأهاربه . والله لو أجد سبيلاً إلى قتلته وهو لو كان إبني { لا تجد قوماً يؤمّنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيقهم } تقول إنك سلفي . السلف قالوا من انتقض صحابياً واحداً فهو زنديق .. وهذا يسب الصحابة كلهم وبهينهم إلا القليل ؛ وتقول إنك سلفي .

فبن الإرجاء إن لم يكن هذا هو الإرجاء . الإرجاء الغالي بارك الله فيكم .

يجب أن لا يتناقضAMA الناس ويكون ضحكه للناس .. يجب أن يكون ديننا خالص الله مبراً من الشهوات والأهواء والشبهات . دين خالص كما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هذا هو الدين الحق .

¹ فتبيين .. استنتاج مما تقدم من كلامه وكلام شيخ الإسلام تبيين منها أن أصل الإسلام هو التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . هذا هو أصل الإسلام .

² الله أكبر .. الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة وكذلك طاعة هذا الرسول لأن طاعته طاعة الله هذا هو الإسلام . هذه قواعد تشمل كل قول وكل عمل وكل تطبيق ، لا تترك شيئاً هذا هو الإسلام .

³ كل رسول يقول هذا .. إخلاص العبادة لله والانقياد له بالطاعة هذا هو التوحيد { عبدوا الله مالكم من إله غيره } عبادة الله الخضوع له والانقياد له والاستسلام له هذه عبادة الله سبحانه وتعالى . فالذى يخضع لله وينقاد له هل يقع في معصية هل يقع في مخالفه .. لا . حق الإسلام .

وفيه : مشروعية الدعوة قبل القتال ، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء¹ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بنى المصطلق² وهم غارون وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم³ .

قوله وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه أي في الإسلام إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لابد لهم من فعلها : كالصلوة والزكاة ، كما في حديث أبي هريرة : "إذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها" ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله مانعي الزكاة : "كيف تقاتل النساء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها . قال أبو بكر : فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتكم على منعها" . وفيه : بعث الإمام الدعاة إلى الله تعالى ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدون يفعلون ، كما في المسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته : "ألا إني والله ما

¹ (حتى تنزل بساحتهم غفادهم إلى الإسلام) ففيه مشروعية الدعوة إلى الله تبارك وتعالى قبل القتال هذا في أحاديث كثيرة ، حديث بربردة إذا أمر أميراً على سرية أو جيشاً أو صاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، وبين معه من المسلمين خيراً ، وقال إذا أتيت قوماً فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله فإن أجابوا لك فلهم مال المسلمين وعليهم ما على المسلمين فإن أبوا فالجزية فإن أبوا فالقتل) بهذا التفصيل . الهدف الأساسي هو دعوتهم إلى الله وهدايتهم إلى الله تبارك وتعالى .

هذا مقصودنا ، وهذا مقصود الإسلام ، مقصود كل مسلم أن يسلم الناس الله رب العالمين ، أن ينقادوا الله أن يطيعوا رسنه ، هذا المقصود ، يهود .. نصارى .. شيوخين .. هنادك .. رواض .. أهل بدع كلهم قصدنا بدعوتهم إلى الله أن ينقادوا الله وأن ينقادوا الرسول عليه الصلاة والسلام ويسيروا في طريق الإسلام هذا الذي يريد المسلم للناس { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } فرسول الله رحمة عليه الصلاة والسلام للعالمين ، الرحمة بالإسلام حتى الجزية من رحمة الكفرة إذا خضعوا للإسلام وأدوا الجزية هذا نالهم نصيب من الأمان والعيش السعيد في الدنيا وأما الآخرة فجزاؤهم على الله سبحانه وتعالى لأن

² يعني هذا سنة هذا أمر مستحب بلغتهم الدعوة أنت متأند أنهم قد بلغتهم الدعوة وقامت عليهم الحجة هؤلاء الكفار بيهود ونصارى وغيرهم ، فيستحب لك أن تدعوه قبيل الدخول في قتالهم ، بروا القتال وأنت بربت بجيشه للقتال أدعهم إلى الله تبارك وتعالى هذا المستحب . بلغتهم الدعوة وتريد أن تباعتهم لك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم باع نسبتي المصطلق لأنهم قد قاتلوا عليهم الحجة وبلغتهم الدعوة فلا عذر لهم ولك الحق أن تفعل هذا لكن إحساناً إليهم وتقضي من المسلمين ورحمة بهؤلاء ندعوههم ، فإذا رأينا المصلحة تقضي أن نباغتهم نباغتهم ما دمنا قد دعوناهم إلى الله أما إذا مكنا بلغتهم الدعوة فلا بد من دعوتهم إلى الله وإقامة الحجة عليهم وبعد ذلك نشرع في قتالهم إذا أبووا الإسلام أو الخضوع للجزية حينئذ نقاتلهم .

سؤال واحد من الجزائري قال : ماذا نفعل مع هؤلاء الطغاة ؟ وكيف الحال ؟
فقلت له : الحل ؟ قال : نعم . قلت له : الحل أن توقفوا القتال في الجزائر لأنكم تقتلن النساء والأطفال والمساكين وتهدمون بيوتهم ، تجمعوا وروحوا عنكم أقرب دولة فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ادعوهم إلى الإسلام . لأنكم ماتذعنون في الجزائر إلى الإسلام تقتلونهم مكنا . بذون دعوه إلى الإسلام ، روحوا لأي دولة من هذه الدول وادعوهم إلى الإسلام ، قفوا لي حدودهم وقولوا لهم نحن جتناكم ندعوكم إلى الإسلام هذه شهادة لا إله إلا الله بينوا لهم الإسلام إن استجابوا فالحمد لله فإن أبوا فالجزية إذا أبوا بعدين قاتلوهم لكن شريطة لا تقتلوا منهم شيئاً ولا راهباً ولا عجوزاً ولا امرأة ولا طفلاً ، فقال شريف . قال : جزاكم الله خيراً .

هذا هو الجهاد .. هذا هو الجهاد ، مو جهاد بعدين ينعنط على المسلمين وينبح أبنائهم ونسائهم وأطفالهم ، واليهودي في رحاء وفي سعادة والنصارى في رحاء وفي سعادة ، وربما يدمون لنا الأموال يساعدوننا لنذبح المسلمين والإخوة .³ وأن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم { رسلاً مبشرين ومنذرين لثلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل } والمؤمنون هم ورثة الأنبياء فإذا جاهدوا فعليم أن يسلكون طريقة الرسل في التبشير والإذنار وإقامة الحجة حتى لا تكون على الله حجة فإن استجابوا فهذا هو المطلوب ، أبوا الجلأنا إلى قتالهم نقاتلهم بعد رفضهم للإسلام ورفضهم لأداء الجزية .

أَرْسَلَ عَمَالِيٌ إِلَيْكُمْ لِيُضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ. وَلَكُنْ أَرْسَلَهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعْلَمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسِنَنَكُمْ ”

لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك إلخ

قوله : (فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من حمر النعم) أن مصدرية واللام قبلها مفتوحة لأنها لام القسم . وأن الفعل بعدها في تأويل مصدر ، رفع على الابتداء والخبر خير و حمر بضم المهملة وسكون الميم ، جمع أحمر . و النعم بفتح النون والعين المهملة ، أي خير لك من الإبل الحمر . وهي أنفس أموال العرب .

قال النووي : وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام ، وإلا فنرة من الآخرة خير من الأرض بأسراها وأمثالها معها .

وفيه : فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد ، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يستحلف .

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قوله : (باب - تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)

قلت : هذا من عطف الدال على المدلول .

فإن قيل : قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى لا إله إلا الله وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى '23' : 'وقضى ربكم أن لا تعبدوا إلا إيمانكم' وسابقها ولاحقتها ، وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها ، فما فائدة هذه الترجمة ؟

قيل : هذه الآيات المذكورة في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه : من توحيد العبادة . فيها : الحجة على من تعلق من الأنبياء والصالحين يدعوهם ويسألهם . لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات ، كالآية الأولى : '56' '17' "قل ادعوا الذين زعمتم من دونه" أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه ، والعزيز والملائكة ، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهي ، كما في هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك . وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله ، ينافي التوحيد وينافي شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده . وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك ، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له . و الدعاء من العبادة .

وفي هذه الآية : أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضرر ولا تحويله من مكان إلى مكان ، ولا من صفة إلى صفة . ولو كان المدعونبياً أو ملكاً . وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائناً من كان ، لأن دعوته تخون داعيه أحوج ما كان إليها ، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره . وهذه الآية تقرر التوحيد ، ومعنى لا إله إلا الله .

الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة

وقوله تعالى : "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة" يبين أن هذا سبيل الأنبياء والمرسلين ومنتبعهم من المؤمنين . قال قادة : تقربوا إليه بطاعتكم والعمل فيما يرضيكم وقرأ ابن زيد : "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أقرب" قال العمامي بن كثير : وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين . وذكره عن عدة من أئمة التفسير .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث : الحب ، وهو ابتعاد التقرب إليه . والتسلل إليه بالأعمال الصالحة . والرجاء والخوف . وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم "والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلقت عدد أصابعي هذه : أن لا آتيك" . فبالذى بعثك بالحق ، ما بعثك به ؟ قال : الإسلام . قال : وما الإسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك إلى الله ، وأن تصلي الصلوات المكتوبة ، وتوتدي الزكاة المفروضة" وأخرج محمد بن نصر الروزي من حديث خالد بن معدان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن للإسلام صوی ومناراً كمنار الطريق . من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتوتدي الزكاة وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وهذا معنى قوله تعالى : '31 : 22' " ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور" .

وقوله تعالى : '43 : 26 - 28' "إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه " أي لا إله إلا الله .

فتدرك كيف عبر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه . ووضعت له من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من العبودات الموجودة في الخارج : كالكواكب والهياكل والأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين : ودوساً ويغوث ويغوث ونسراً ، وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدوها المشركون بأعيانها . ولم يستثن من جميع العبودات إلا الذي فطره ،

وهو الله وحده لا شريك له ، فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الإخلاص . كما قال تعالى : ' 22 : 62 ' ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل " فكل عبادة يقصد بها غير الله : من دعاء وغيره فهي باطلة ، وهي الشرك الذي لا يغفره الله ، قال تعالى : ' 40 : 73، 74 ' ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين

"

وقوله تعالى : ' 9 : 31 ' اتخذوا أحبارهم ورہبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم " . وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال : " يارسول الله ، لسنا نعبدكم . قال : أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرموه ؟ قال : بلى . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فتلك عبادتهم " . فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخاذهم أرباباً ، كما هو الواقع في هذه الأمة ، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة لا إله إلا الله . فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته مدلول هذه الكلمة . فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبته من التوحيد .

وقوله تعالى : ' 2 : 165 ' ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله " فكل من اتخذ نداً لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتغريج كرباته - كحال عباد القبور والطاغيت والأصنام - فلا بد أن يعظمونهم ويحبونهم لذلك ، فإنهم أحبوهم مع الله وإن كانوا يحبون الله تعالى .

ويقولون لا إله إلا الله ويصلون ويصومون ، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعلمونه . لأن المشرك لا يقبل منه عمل ، ولا يصح منه . وهؤلاء وإن قالوا لا إله إلا الله فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة : من العلم بمدلولها . لأن المشرك جاهل بمعناها ، ومن جهله بمعناها جعل الله شريكًا في المحبة وغيرها ، وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص : ولم يكن صادقاً في قوله : لأنه لم ينف ما نفته من الشرك ، ولم يثبت ما أثبته من الإخلاص وترك اليقين أيضاً ، لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شك فيه ، ولم يقبله وهو الحق ، ولم يكفر بما يعبد من دون الله ، كما في الحديث ، بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه التد ومحبته له وعبادته إياه من دون الله كما قال تعالى "والذين آمنوا أشد حباً لله" لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه ، ويحبون من أحب

ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ، ويکفرون بما عبد من دون الله . فيبهذا يتبيّن لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلى التوحيد الذي هو معناها الذي دعا إليه جميع المسلمين . فتدبر .

قال : قوله تعالى '17' : "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أقرب " الآية، يتبيّن معنى هذه الآية بذكر ما قبلها ، وهو قوله تعالى "قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلًا" .

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى (قل) يا محمد للمشركين الذين عبدوا غير الله "ادعوا الذين زعمتم من دونه" من الأصنام والأنداد وارغبوا إليهم ، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم أي بالكلية (ولا تحويلاً) أي ولا يحولوه إلى غيركم .

والمعنى : أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، الذي له الخلق والأمر . قال العوفى عن ابن عباس في الآية : كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيزاً ، وهم الذين يدعون يعني الملائكة والمسيح وعزيزاً .

وروى البخاري في الآية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : "ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا " وفي رواية : "كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم"

وقول ابن مسعود هذا يدل على أن الوسيلة هي الإسلام ، وهو كذلك على كلا القولين .
وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية قال : عيسى وأمه وعزيز وقال مغيرة عن إبراهيم : كان ابن عباس يقول في هذه الآية : هم عيسى وعزيز والشمس والقمر وقال مجاهد : عيسى وعزيز والملائكة .

وقوله : "يرجون رحمته ويختلفون عذابه" لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فكل داع دعا دعاء عبادة أو استغاثة لا بد له من ذلك ، فإما أن يكون خافقاً وإما أن يكون راجياً ، وإما أن يجتمع فيه الوصفان .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ، في هذه الآية الكريمة ، لما ذكر أقوال المفسرين : وهذه الأقوال كلها حق ، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر ، والسلف في تفسيرهم يذكرون تفسير جنس المراد بالأية على نوع التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله : ما معنى الخبر ؟ فيربه رغيفاً ، فيقول هذا ، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه ، وليس مرادهم من هذا

تخصيص نوع من شمول الآية ، فالآلية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً ، وذلك المدعو يتغى إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأولياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية الكريمة ، كما تتناول من دعا الملائكة والجن ، فقد نهى الله تعالى من دعائهم ، وبين أنهم لا يملكون كشف الشر عن الداعين ولا تحويله ، ولا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع ، كتبغير صفتة أو قدره ، ولهذا قال : (ولا تحويلا) فذكر نكرة تعم أنواع التحويل ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأولياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الشر عنه ولا تحويله اه .

وفي هذه الآية رد على من يدعوا صالحاً ويقول : أنا لا أشرك بالله شيئاً ، الشرك عبادة الأصنام .

براءة إبراهيم مما يعبد قومه إلا الله
قال : (وقوله " وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني " الآية) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذي تنتسب إليه قريش في نفسها ومذهبها : أنه تبراً من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال : " إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون " أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له . وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام (لعلهم يرجعون) أي إليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله : " وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون " يعني لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها .

وروى ابن جرير عن قتادة " إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني " قال : كانوا يقولون : الله ربنا ⁵³ : 87 " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله" فلم يبراً من ربه رواه عبد بن حميد . وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة " وجعلها كلمة باقية في عقبه " قال : الإخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته من يعبد الله ويعوده .

قلت : فتبين أن معنى لا إله إلا الله توحيد العبادة بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه .

قال المصنف رحمه الله (وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه المولاة ، هي شهادة أن لا إله إلا الله)

وفي هذا المعنى يقول العالمة الحافظ ابن القيم رحمه الله في الكلمة الشافية :

وإذا تولاه أمرؤ دون الورى طرا تولاه العظيم الشان

معنى واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً

قال : (وقوله تعالى "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله" . . . الآية) .

الأَحْبَارُ : هُمُ الْعُلَمَاءُ وَالرَّهَبَانُ هُمُ الْعِبَادُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ قَدْ فَسَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعْدِي بْنِ حَاتَمَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ مُسْلِمًا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ . قَالَ : فَقَلَتْ : إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ . فَقَالَ : بَلِيْ : إِنَّهُمْ حَرَمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ وَحَلَّلُوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ ، فَذَلِكَ عَبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْتَّرمِذِيُّ وَحَسْنَهُ ، وَعَبْدُ بْنِ حَمِيدٍ وَابْنُ أَبِي حَاتَمٍ وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ طَرِيقَهُ .

قال السدي : استنصرحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : "وَمَا أَمْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سَبَّانُهُ عَمَّا يَشْرُكُونَ" فإن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله .

فظهور بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله ، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحله الله ، وأطاعه في معصية الله ، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله الله شريكاً ، وذلك ينافي

التوحيد الذي هو دين الله الذي دلت عليه كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) فإن الإله هو المعبود ، وقد سمي الله تعالى طاعتهم عبادة لهم ، وسمائهم أرباباً كما قال تعالى '80' : 3 ' : 3 ' : 6 ' : 121 ' : 42 ' : 21 ' أم لهم شركاء وهذا هو الشرك . وكل معبود رب ، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخاذ المطيع المتبع رباً ومعبوداً ، كما قال تعالى في آية الأنعام : '6' : 121 ' وإن أطعتموه إنكم لمشركون" وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة ، ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى '42' : 21 ' أم لهم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله" والله أعلم .

قال شيخ الإسلام في معنى قوله "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله" وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين : أحدهما : أن يعلموا أنهم بدلوه دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله

أو تحريم ما أحل الله ، اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل . فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويصعدون لهم . فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله ، مشركاً مثل هؤلاء .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصر ، فهوئاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما قد ثبت "عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنما الطاعة في المعروف" .

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسل لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثبته على اجتهاده الذي أطاع به ربها . ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول . فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله ، لا سيما إن اتبع ذلك هواه ونصره باليد واللسان مع علمه أنه مخالف للرسول . فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه ، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال .

وإن كان عاجز عن إظهار الحق الذي يعلمه . فهذا يكون كمن عرف أن الدين الإسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه ، وهوئاء كالنجاشي وغيره . وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه قوله تعالى : '3 : 199 ' وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم" قوله : '5 : 83 ' وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق " الآية قوله '7 : 159 ' ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " . وأما إن كان المتابع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفضيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله : من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة . وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبعه مصابياً لم يكن عمله صالحًا ، وإن كان متبعه مخططاً كان آثماً . كمن قال في القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبواً مقعده من النار ، وهوئاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميسة ، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له ، وكذلك هؤلاء فيكونون فيهم شرك أصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك ، وفي الحديث : "إن يسير الرياء شرك" وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير الذنوب . انتهى .

معنى اتخاذ الأنداد من دون الله

وقال أبو جعفر بن جرير في معنى قول الله تعالى "وتجعلون له أنداداً" أي وتجعلون من خلق ذلك أنداداً وهم الأكفاء من الرجال تطیعونهم في معاصي الله . انتهى .

قلت : كما هو الواقع من كثير ومن عباد القبور .

قال : (وقوله¹ 25 : 165) "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله" الآية .

قال العمام ابن كثير رحمه الله : يذكر الله حال المشركين به في الدنيا ومالهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا لله أنداداً ، أي أمثلاً ونظراً يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضد له ولا ند له ، ولا شريك معه . وفي لصحيحين عن "عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؟ أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك" .

وقوله : "والذين آمنوا أشد حباً لله" ولحبيهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتقديرهم وتوحيدهم لا يشرون به شيئاً . بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ، ويلجأون في جميع أمورهم إليه . ثم توعد تعالى المشركين به ، الظالمين لأنفسهم بذلك . فقال تعالى : "ولو برى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جمِيعاً" قال بعضهم تقدير الكلام ، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جمِيعاً ، أي أن الحكم له وحده لا شريك له ، فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه " وأن الله شديد العذاب" كما قال تعالى : 89 : 25 ، 26 "فيؤمذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد" يقول : لو علموا ما يعانون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال . ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرؤ التابعين . فقال تعالى : "إذ تبراً الذين اتبعوا من الذين اتبعوا" ترأرت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة 28 : 63 "تبراً إلينا إليك ما كانوا إيانا يعبدون" ويقولون 34 : 41 "سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون" الجن أيضاً يتبرأون منهم ويتخلصون من عبادتهم لهم ، كما قال تعالى : 46 : 5 ، 6 " ومن أضل من يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين " . انتهى كلامه .

روى ابن جرير عن كلامه في قوله تعالى "يحبونهم كحب الله" مباهاة ومضاهاة للحق سبحانه
بالأنداد "والذين آمنوا أشد حبًا لله" من الكفار لأوثانهم .

قال المصنف رحمة الله تعالى (ومن الأمور المبينة لتفسیر التوحید وشهادة أن لا إله إلا الله : آية البقرة في الكفار الذين قال تعالى فيهم "وما هم بخارجين من النار" ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حبًا عظيمًا ، فلم يدخلوا في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ؟) اـ .

ففي الآية بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله في العبادة واتخذه ندًا من دون الله ، وأن ذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله ، كما قال تعالى في أولئك "وما هم بخارجين من النار" قوله : "ولو يرى الدين ظلموا إذ يرون العذاب" المراد بالظلم هنا الشرك . قوله : ٧' ٨٢ ' ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" كما تقدم . فمن أحب الله وحده ، وأحب فيه وله فهو مخلص ، ومن أحبه وأحب معه غيره ، فهو مشرك ، كما قال تعالى : ٢١' ، ٢٢' "يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقوون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ."

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله ما معناه : فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريح
كربة : لزم أن يكون محبًا له ومحبته هي الأصل في ذلك . انتهى .

فكلمة الإخلاص لا إله إلا الله تنفي كل شرك . في أي نوع كان من أنواع العبادة ، وتثبت العبادة
بجميع أفرادها لله تعالى . وقد تقدم بيان أن الإله هو المألوه الذي تأله القلوب بالمحبة وغيرها من
أنواع العبادة فلا إله إلا الله ، نفت ذلك كله عن غير الله ، وأثبتته لله وحده . فهذا هو ما دلت عليه
كلمة الإخلاص مطابقة ، فلابد من معرفة معناها واعتقاده ، وقوله ، والعمل به باطنًا وظاهرًا . والله
أعلم .

قال العلامة ابن القيم رحمة الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه ، أى مع الله تعالى
بعبادته له ، وتوحيد الحب : أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب – وإن
سمى عشقاً – فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله
رسوله أحب إليه من كل ما سواهـما ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى ، فلا يحب
إلا الله ، ولا يحب إلا الله ، كما في الحديث الصحيح ثلث من كن فيه الحديث ومحبة رسول الله
صلى الله عليه وسلم هي من محبة الله ، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته ، وإن كانت لغير

الله فهى منقحة لمحبة الله مضعفه لها ، ويصدق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى الله محبوبه وهو الكفر - بمنزلة كراهيته للقائه فى النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وبين إلقائه فى النار لاختار أن يلقى فى النار ولا يكفر ، كان أحب إليه من نفسه ، وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبיהם ، بل لا نظير لهذه المحبة . كما لا مثل لمن تعلقت به ، وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد . وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً . وهذا لا نظير له فى محبة المخلوق ، ولو كان المخلوق من كان . ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يغفره الله . كما قال تعالى : "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله" وال الصحيح : أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حباً من الله أهل الأنداد لأندادهم . كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره ، وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته . وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين محبته . ومن ضرب لمحبته الأمثال التى فى محبة المخلوق للمخلوق : كالوصل ، والهجر والتجنى بلا سبب من المحب ، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علوًّا كبيراً . فهو مخطئ أقبح الخطأ وأفحشه ، وهو حقيق بالإبعاد والمقت . انتهى .

من هو الذي يحرم ماله ودمه

(وفي "ال الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله) قوله في الصحيح : أى صحيح مسلم عن أبي مالك الأشجعى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره .

وأبو مالك اسمه سعد بن طارق ، كوفى ثقة مات فى حدود الأربعين ومائة . وأبوه طارق بن أشيم - بالمعجمة والمثنوية التحتية وزن أحمر - ابن مسعود الأشجعى ، صاحبى له أحاديث . قال مسلم : لم يرو عنه غير ابنه . وفي مسنن الإمام أحمد عن أبي مالك قال : وسمعته يقول للقوم : "من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل" ورواه الإمام أحمد من طريق يزيد بن هارون قال أخبرنا أبو مالك الأشجعى عن أبيه . ورواه أحمد عن عبد الله بن إدريس قال : سمعت أبي مالك قال : قلت لأبى - الحديث . ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر : لا إله إلا الله .

قوله : (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم علق عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمررين .

الأول : قول لا إله إلا الله عن علم ويفقين ، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث كما تقدم .

والثاني : الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لابد من قولها والعمل بها .

قلت : وفيه معنى ² 256 " فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها" .

قال المصنف رحمه الله تعالى : (وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل اللفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه . فيما لها من مسألة ما أجلها ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع) انتهى .

قلت : وهذا هو الشرط المصحح لقوله : لا إله إلا الله فلا يصح قولها بدون هذا الخمس التي ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً . قال تعالى : ⁸ 39 " وقاتلهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين كله لله" وقال : " فاقتلو المشركين حيث وجدتهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم " أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكوة ، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعاً .

وفي صحيح مسلم عن "أبي هريرة مرفوعاً" أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" وفي "الصحابيين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" وهذا الحديثان تفسير الآيتين : آية الأنفال ، آية براءة . وقد أجمع العلماء على أن من قال : لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضها . أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات .

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله في قوله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان ، دون أهل الكتاب ، لأنهم يقولون : لا إله إلا الله ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف .

وقال القاضي عياض : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بذلك مشركون العرب وأهل الأوثان ، فأما غيرهم من يقر بالتوحيد ، فلا يكتفى في عصمتهم بقول لا إله إلا الله إذ كان يقولها في كفره .
انتهى ملخصاً .

وقال النووي : لابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كما جاء في الرواية ويؤمنوا بي وبما جئت به .

وقال شيخ الإسلام ، لما سئل عن قتال التتار فقال : كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يتزموا شرائعه ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمان بعض شرائعه . كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم . قال : فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام ، أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء ، أو الأموال أو الخمر ، أو الميسر أو نكاح ذوات المحaram ، أو عن التزام جهاد الكفار . أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها ، التي يكفر الواحد بجحودها . فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء . قال : وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة ، بل هم خارجون عن الإسلام . انتهى .

قوله : (وحسابه على الله) أي الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حساب الذي يشهد بلسانه بهذه الشهادة ، فإن كان صادقاً جازاه بجنت النعيم ، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم . وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر ، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهراً والتزم شرائع الإسلام وجب الكف عنه .

قلت : وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبدون من دون الله فلم يأت بما يعصم دمه وما له كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث .

قوله : (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب) قلت : وأن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى لا إله إلا الله وفيه أيضاً : بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يصل

إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْغَلُوِ وَالْبَدْعِ ، مَا تَرَكَهُ مِنْ مَضْمُونٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ عَرَفَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ تَبَيَّنَ لَهُ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَنَفْيِ الشَّرْكِ ، وَبِضَدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ ، فِيمَعْرُوفَةِ الْأَصْغَرِ مِنَ الشَّرْكِ يَعْرَفُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنَ الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ الْمَنَافِي لِلتَّوْحِيدِ ، وَأَمَّا الْأَصْغَرُ فَإِنَّمَا يَنَافِي كُمَالَهُ ، فَمِنْ اجْتِنَابِهِ فَهُوَ الْمُوَحَّدُ حَقًّا ، وَبِمَعْرُوفَةِ وَسَائِلِ الشَّرْكِ وَالنَّهْيِ عَنْهَا لِتَجَنَّبِهِ تَعْرُفُ الْغَایَاتُ الَّتِي نَهَى عَنِ الْوَسَائِلِ لِأَجْلِهَا ، فَإِنْ اجْتَنَابَ ذَلِكَ كُلَّهُ يَسْتَلِزُمُ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ بَلْ يَقْتَضِيهِ . وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ أَدْلَةِ التَّوْحِيدِ إِثْبَاتُ الصَّفَاتِ وَتَنْزِيهُ الرَّبِّ تَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكُلُّ مَا يَعْرَفُ بِاللَّهِ مِنْ صَفَاتِ كُمَالِهِ وَأَدْلَةُ رِبوبِيَّتِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِهِ ، وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ ، وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

من الشرك اتخاذ الحلقة والخيط ونحوهما

قوله : (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه)

دفعه : إزالته بعد نزوله . دفعه : منعه قبل نزوله .

قال : (وقول الله تعالى : '36 : 38' " قل أَفَرَأَيْتَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضْرٍ هُلْ هُنْ كَاشِفَاتُ ضَرِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةِ هُلْ هُنْ مَمْسَكَاتُ رَحْمَتِهِ") .

قال ابن كثير : أَيْ لَا تَسْتَطِعُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ (قل حسبي الله) أَيْ اللَّهُ كَافِي مِنْ تَوْكِيلِهِ (عليهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) كَمَا قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ قَوْمُهُ '54 - 56' " إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتِراكَ بَعْضِ الْآهَنَتِنَا بِسَوْءِهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاسْهَدُوا أَنِّي بِرِيءٍ مِمَّا تَشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظَرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ " قَالَ مُقَاتِلٌ فِي مَعْنَى الْآيَةِ : فَسَأَلُوكُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَكَّوْنُ ذَلِكَ فِيهَا .

وَإِنَّمَا كَانُوا يَدْعُونَهَا عَلَى مَعْنَى أَنَّهَا وَسَائِطٌ وَشَفَاعَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ ، لَا عَلَى أَنَّهُمْ يَكْشِفُونَ الضرَّ ، وَيَجِيبُونَ دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَهُ وَحْدَهُ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : '53 : 54' " ثُمَّ إِذَا مَسَكَ الْفَرَّ إِلَيْهِ تَجَأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الْفَرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرِبِّهِمْ يَشْرِكُونَ " .

قَلْتَ : فَهَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْثَالُهَا تَبْطِلُ تَعْلُقَ الْقَلْبِ بِغَيْرِ اللَّهِ فِي جَلْبِ أَوْ دُفْعِ ضَرٍّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ شَرْكٌ بِاللَّهِ . وَفِي الْآيَةِ بِبَيَانِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَسَمَّ أَهْلَ الشَّرْكِ بِدُعْوَةِ غَيْرِ اللَّهِ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَالْتَّوْحِيدُ ضَدُّ ذَلِكَ . وَهُوَ أَنْ لَا يَدْعُوا إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَرْغُبُ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَكَذَا جَمِيعٌ

أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله . كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها كما تقدم .

الحديث عمران بن حصين في تعليق الحلقة وأنها لا تزيد صاحبها إلا وهنachsen
قال : (”وعن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً في يده حلقة من صفر
فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة . قال : انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو مت وهي عليك ما
أفلحت أبداً ” رواه أحمد بسند لا بأس به) .

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد حدثنا المبارك عن ”الحسن“ قال : أخبرني عمران بن
حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم أبصر على عضد رجل حلقة - قال أراها من صفر - فقال :
ويحك ما هذه ؟ قال : من الواهنة . قال : أما إنها لا تزيدك إلا وهناً . انبذها عنك فإنك لو مت وهي
عليك ما أفلحت أبداً ” رواه ابن حبان في صحيحه فقال : فإنك لو مت وكلت إليها والحاكم وقال:
صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي ، وقال الحاكم : أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران ،
وقوله في الإسناد : أخبرني عمران يدل على ذلك .

قوله (عن عمران بن حصين) أي ابن عبيد خلف الخذاعي ، أبو نجید - بنون وجيم - مصغر ،
صحابي عن صحابي ، أسلم عام خيبر، ومات سنة اثننتين وخمسين بالبصرة .

قوله (رأى رجلاً) في رواية الحاكم دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عضدي حلقة
صفر ، فقال : ما هذه الحديث فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث .

قوله (ما هذه) يحتمل أن الاستفهام للاستفسار عن سبب لبسها ، ويحتمل أن يكون للإنكار وهو
أشهر .

قوله : (من الواهنة) قال أبو السعادات : الواهنة عرق يأخذ في المنكب واليد كلها ، فيرقى منها
، وقيل هو مرض يأخذ في العضد ، وهي تأخذ الرجال دون النساء وإنما نهى عنها لأنه إنما اتخاذها
على أنها تعصمه من الألم ، وفيه اعتبار المقاصد .

قوله (انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً) النزع هو الجذب بقوة ، أخبر أنها لا تنفعه بل تضره وتزيده
ضعفًا ، وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالباً وإن نفع بعضه فضرره أكبر من نفعه .

قوله (فإنك لو مت وهو عليك ما أفلحت أبداً) لأنه شرك ، والفالح هو الفوز والظفر والسعادة .

قال المصنف رحمة الله تعالى : (فيه شاهد لكلام الصحابة : إن الشرك الأصغر أكبر الكبائر ، وأنه لم يعذر بالجهالة . وفيه الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك) .

قوله : (رواه أحمد بسنده لا بأس به) هو الإمام أحمد بن حنبل بن هلال ابن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حسان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن ابن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسعد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان _ الإمام العالم أبو عبد الله الذهلي ثم الشيباني المروزي ثم البغدادي ، إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقه والحديث ، وأشدhem ورعاً ومتابعة للسنة ، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة : عن الدنيا ما كان أصبه ، وبماضين ما كان أشبهه ، أنته الدنيا فأباها ، والشبيه فنفاتها ، خرج به من مرو وهو حمل فولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول .

وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك ، وهي سنة تسع وسبعين فسمع من هشيم وجرير بن عبد الحميد وسفيان بن عيينة ومعتمر بن سليمان ويحيى بن سعيد القطن ومحمد بن إدريس الشافعي ويزيد بن هرون وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدي وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد . روى عنه ابنه صالح وعبد الله ، والبخاري ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربي وأبو زرعة الرازي وأبو زرعة الدمشقي وعبد الله بن أبي الدنيا وأبو بكر الأثرم وعثمان بن سعيد الدارمي وأبو القاسم البغوي ، وهو آخر من حدث عنه ، وروى عنه من شيوخه عبد الرحمن بن مهدي والأسود بن عامر ، ومن أقرانه علي المديني ويحيى بن معين . قال البخاري : مرض أحمد لليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه ، وقال حنبل : مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعين سنة . وقال ابنه عبد الله والفضل بن زياد : مات في ثاني عشر ربيع الآخر رحمة الله تعالى .

الحديث من تعلق تميمة فلا أتم الله له إلخ

قوله : (قوله عن عقبة بن عامر مرفوعاً من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودعة الله له وفي رواية : من تعلق تميمة فقد أشرك) الحديث الأول رواه الإمام أحمد كما قال المصنف ، ورواه أيضاً أبو يعلى والحاكم وقال : صحيح الإسناد وأقره الذهبي .

قوله : (وفي رواية) أي من الحديث آخر رواه أحمد فقال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي منصور عن دجين الحجري عن عقبة بن عامر الجهني

"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل إليه رهط فبایع تسعه وأمسك عن واحد ، فقالوا يا رسول الله ، بایعت تسعه وأمسكت عن هذا ؟ فقال : إن عليه تمیمة فأدخل يده فقطعها ، فبایعه وقال : من تعلق تمیمة فقد أشرك" ورواه الحاکم ونحوه . ورواته ثقات .

قوله : (عن عقبة بن عامر) صحابي مشهور فقيه فاضل ، ولإمارة مصر لعاویة ثلاثة سنین ومات قریباً من السنتین .

قوله : (من تعلق تمیمة) أي علقها متعلقاً بها قلبه في طلب خیر أو دفع شر ، قال المنذري : خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، وهذا جهل وضلال ، إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى .

وقال أبو السعادات : التمائم جمع تمیمة وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقوون بها العين ، في زعمهم ، فأبطلها الإسلام .

قوله : (فلا أتم الله له) دعاء عليه .

قوله : (ومن تعلق ودعة) بفتح الواو وسكون المهملة . قال في مسنـد الفردوس : شئ يخرج من البحر يشبه الصدف يتقوون به العين .

قوله : (فلا ودع الله له) بتخفيف الدال ، أي لا جعله في دعـة وسكون ، قال أبو السعادات وهذا دعاء عليه .

قوله : (وفي رواية : من تعلق تمیمة فعد أشرك) قال أبو السعادات : إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم ، وطلبوـا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه .

قال المصنـف رحـمه الله (ولابن أبي حاتـم عن حذـيفة) أنه رأـى رجـلاً في يـده خـيط من الحـمى ، فقطعـه ، وتـلا قوله تعالى : [12 : 106] " وما يؤمنـونـ أكثرـهمـ بالـلهـ إـلاـ وـهـمـ مـشـرـكـونـ " .

قال ابن أبي حاتـم : حدـثـناـ محمدـ بنـ الحـسـينـ بنـ إـبرـاهـيمـ بنـ أـشـكـابـ حدـثـناـ يـونـسـ بنـ محمدـ حدـثـناـ حـمـادـ بنـ سـلـمـةـ عنـ عـاصـمـ الـأـحـوـلـ عنـ عـرـوـةـ قالـ : دـخـلـ حـذـيفـةـ عـلـىـ مـرـيـضـ ، فـرـأـيـ فيـ عـضـدـهـ سـيـرـاـ فـقـطـعـهـ أـوـ اـنـتـزـعـهـ . ثـمـ قـالـ : " وـمـاـ يـؤـمـنـ أـكـثـرـهـ بـالـلـهـ إـلاـ وـهـمـ مـشـرـكـونـ " .

وابن أبي حاتـمـ هوـ الإـمـامـ أـبـوـ مـحـمـدـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بنـ أـبـيـ حـاتـمـ مـوـهـ مـدـرـيـسـ الرـازـيـ التـمـيـمـيـ الحـنـظـليـ الـحـاـفـظـ ، صـاحـبـ الـجـرـحـ وـالـتـعـدـيلـ وـالـتـفـسـيرـ وـغـيـرـهـماـ مـاتـ سـنـةـ سـبـعـ وـعـشـرـينـ وـثـلـاثـمـائـةـ .

وحذيفة هو ابن اليمان . واسم اليمان : حسيل بمهملتين مصغراً ، ويقال حسل - بكسر ثم سكون العبسي بالموحدة ، حليف الأنصار ، صحابي جليل من السابقين ويقال له صاحب السر وأبوه أيضاً صحابي ، مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ست وثلاثين .

قوله : (رأى رجلاً في يده خيط من الحمى) أي عن الحمى . وكان الجھال يعلقون التمايم والخيوط ونحوها لدفع الحمى وروى وكيع عن حذيفة : أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده ، فإذا فيه خيط ، فقال : ما هذا ؟ قال : شئ رقى لي فيه ، فقطعه وقال : لو مت وهو عليك ما صليت عليك وفيه إنكار مثل هذا ، وإن كان يعتقد أنه سبب ، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى رسوله مع عدم الاعتماد عليها . وأما التمايم والخيوط والحروز والطلasm ونحو ذلك مما يعلقه الجھال فهو شرك يجب إنكاره وازالته بالقول والفعل ، وإن لم يأذن فيه صاحبه .

قوله : (وتلا قوله : "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون" استدل حذيفة رضي الله عنه بالآية على أن هذا شرك . ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك الأكبر ، لشمول الآية ودخوله في مسمى الشرك ، وتقدم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره في كلام شيخ الإسلام وغيره . والله أعلم . وفي هذه الآثار عن الصحابة : ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافي كماله .

باب ما جاء في الرقي والتمائم

قوله : (باب ما جاء في الرقي والتمائم)

أي من النهي وما ورد عن السلف في ذلك .

قوله : (وفي الصحيح عن أبي بشير الأنباري أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فأرسل رسولًا : أن لا يبقين في رقبة بغير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت) هذا الحديث في الصحيحين .

قوله : (عن أبي بشير) بفتح أوله وكسر المعجمة ، قيل اسمه قيس بن عبيد قاله ابن سعد . وقال ابن عبد البر : لا يوقف له على اسم صحيح ، هو صحابي شهد الخندق ومات بعد الستين . ويقال : إنه جاوز المائة .

قوله : (في بعض أسفاره) قال الحافظ : لم أقف على تعبينه .

قوله : (فأرسل رسوله) هو زيد بن حارثة . روى ذلك الحارت بن أبيأسامة في مسنده قاله
الحافظ .

قوله : (أن لا يبقين) بالشناة التحتية والقاف المفتوحتين وقلادة مرفوع على أنه فاعل و الوتر
بفتحتين ، وأحد أوتار القوس . وكان أهل الجاهلية إذا اخلو ق الوتر أبدلوا بغيره وقلدوا به الدواب
إعتقداداً منهم أنه يدفع عن الدابة العين .

قوله : (أو قلادة إلا قطعت) معناه : أن الراوى شك هل قال شيخه : قلادة من وتر أو قال :
قلادة وأطلق ولم يقيده ؟ ويفيد الأول ما روى عن مالك أنه سئل عن القلادة ؟ فقال : ما سمعت
بكراهتها إلا في الوتر . ولأبي داود ولا قلادة بغير شك .

قال البعgoi في شرح السنة : تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل
العين وذلك أنهم كانوا يشدون الأوتار والتمائم ويعلقون عليها العوذ ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات .
فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً .

قال أبو عبيد : كانوا يقلدون الإبل الأوتار ، لئلا تصيبها العين ، فأمرهم النبي صلى الله عليه
 وسلم بإزالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً . وكذا قال ابن الجوزي وغيره .

قال الحافظ : ويفيد حديث عقبة بن عامر ، رفعه من تعلق تميمة فلا أتم الله له رواه أبو داود .
 وهي ما علق من القلائد خشية العين ونحو ذلك . انتهى .

حديث ابن مسعود : الرقى والتمائم والتولة شرك

قال المصنف : " (وعن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرقى
والتمائم والتولة شرك رواه أحمد وأبو داود) ."

وفيه قصة ، ولفظ أبي داود : عن " زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : إن عبد الله رأى في
عنقي خيطاً فقال : ما هذا ؟ قلت : خيط رقى لي فيه . قالت : فأخذه ثم قطعه ، ثم قال : أنت آنتم
عبد الله لأنفسياء عن الشرك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرقى والتمائم والتولة
شرك . فقلت : لقد كانت عيني تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي ، فإذا رقى في سكت .
فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا كف عنها . إنما كان يكفيك أن
تقولي كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أذهب البأس ، رب البأس ، واشف أنت

الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً" ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الذهبي .

قوله : (إن الرقى) قال المصنف : (هي التي تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فعد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحملة) يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هي التي يستعان فيها بغير الله ، وأما إذا لم يذكر فيها إلا بأسماء الله وصفاته وآياته ، والمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذا حسن جائز أو مستحب .

قوله (فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحملة) كما تقدم ذلك في باب من حق التوحيد . وكذا رخص في الرقى من غيرها ، كما في صحيح مسلم عن "عوف بن مالك : كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال : اعرضوا علي رقام . لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً" وفي الباب أحاديث كثيرة .

قال الخطابي: وكان عليه السلام قد رقى ورقى ، وأمر بها وأجازها ، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهى مباحة أو مأمور بها ، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب ، فإنه ربما كان كفراً أو قوله يدخله شرك .

قلت : من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها ، وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم . وبنحو هذا ذكر الخطابي .

وقال شيخ الإسلام : كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به فضلاً أن يدعو به ، ولو عرف معناه : لأنه يكره الدعاء بغير العربية ، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية ، فأما جعل الألفاظ الأعممية شعاراً فليس من دين الإسلام .

وقال السيوطي : قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط : أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربي : ما يعرف معناه ، وأن يعتقد أن الرقيقة لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى .

قوله : (والتمائم) قال المصنف : (شيء يعلق على الأولاد من العين) وقال الخلخالي : التمام جمع تميمة وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين ، وهذا منهى عنه . لأنه لا دافع إلا الله ، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته .

قال المصنف : (لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف . وبعضهم لم يرخص فيه و يجعله من المنهى عنه . منهم ابن مسعود) .

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمام من القرآن
أسماء الله وصفاته ، فقالت طائفة يجوز ذلك ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص وهو ظاهر ما روى
عن عائشة . وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية . وحملوا الحديث على التمام التي فيها شرك

وقالت طائفة لا يجوز ذلك . وبه قال ابن مسعود وابن عباس . وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن
عامر وابن عكيم ، وبه قال جماعة من التابعين ، منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد في رواية اختارها
كثير من أصحابه ، وحزم بها المؤخرة ، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه .

قلت : هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل :

الأول : عموم النهي ولا مخصص للعموم .

الثاني : سد الذريعة ، فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك .

الثالث : أنه إذا علق فلابد أن يمتهنه المتعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو
ذلك .

وتتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف رضي الله تعالى عنهم يتبيّن لك بذلك غربة الإسلام ،
خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها
والإقبال إليها بالقلب والوجه ، وصرف جل الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التي هي
حق الله تعالى إليها من دونه ، كما قال تعالى '106 ، 107' " ولا تدع من دون الله ما لا
ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين * وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن
يردك بخير فلا راد لفضلة يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم " ونظائرها في القرآن أكثر
من أن تحصر .

قوله : (الтолة) ، قال المصنف : (هي شئ يصنعونه يزعمون أنه يحب المرأة إلى زوجها والرجل
إلى امرأته وبهذا فسرها ابن مسعود راوي الحديث : كما في صحيح ابن حبان والحاكم قالوا : يا أبا
عبد الرحمن، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة؟ قال : شئ نصنعه للنساء يتحببن به إلى
أزواجهن .

قال الحافظ : التولة : بكسر المثلثة وفتح الواو واللام مخففاً - شيئاً كانت المرأة تجلب به محبة
زوجها ، وهو ضرب من السحر ، والله أعلم .

وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى .

الحديث : من تعلق شيئاً وكل إليه

قال المصنف : (و عن عبد الله بن عكيم مرفوعاً من تعلق شيئاً وكل إليه رواه أحمد والترمذى) ورواه أبو داود والحاكم ، وعبد الله بن عكيم هو بضم المهملة مصغراً ، ويكنى أبا عبد ، الجهنمي الكوفي . قال البخاري : أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرف له سماع صحيح وكذلك قال أبو حاتم . قال الخطيب سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة وكان ثقة ، وذكر ابن سعد من غيره أنه مات في ولادة الحاجاج .

قوله : (ومن تعلق شيئاً وكل إليه) التعلق يكون بالقلب ، ويكون بالفعل ، ويكون بهما وكل إليه أي وكله الله إلى ذلك الشئ الذي تعلقه فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه إليه والتوجه إليه ، وفرض أمره إليه ، وكفاه وقرب إليه كل بعيد ويسير له كل عسير ، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك ، وكله الله إلى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب . قال تعالى ⁶⁵ : 3 " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " .

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام بن القاسم حدثنا أبو سعيد المؤدب حدثنا من سمع عطاء الخرساني قال : لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت فقلت : حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز . قال : نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود : يا داود، وأما عزتي وعظمتي لا يعتض بي عبد من عبادي دون خلقي أعرف ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له بينهن مخرجاً وأما عزتي وعظمتي لا يعتض عبد من عبادي بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الأرض من تحت قدميه ثم لا أبالى بأي أوديتها هلك .

الحديث رويفع من تقلد وتراً فإن محمداً منه بريء

قال المصنف : وروى الإمام أحمد عن رويفع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا رويفع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمداً بريء منه " .

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة . وفيه قصة اختصرها المصنف . وهذا لفظ حسن : حدثنا ابن لهيعة حدثنا عياش بن عباس عن شبيب

بن بيتان قال : حدثنا رويفع بن ثابت قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما غنم وله النصف ، حتى إن أحدهما ليصير له النصل والريش ولآخر القدح . ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث .

ثم رواه أحمد بن يحيى بن غبلان حدثني الفضل عياش بن عباس أن شبيب بن بيتان أخبره أنه سمع شبيان القتباني - الحديث . ابن لهيعة فيه مقال . وفي الإسناد الثاني شبيان القتباني ، قيل فيه مجهول . وبقية رجالهما ثقات .

قوله : (فأخبر الناس) دليل على وجوب إخبار الناس ، وليس هذا مختصاً برويفع ، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به ، فإن إشتراك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية . قاله أبو زرعة في شرح سنن أبي داود .

قوله : (لعل الحياة ستطول بك) فيه علم من أعمال النبوة ، فإن رويفعاً طالت حيااته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها ، وهو من الأنصار . وقيل مات سنة ثلاثة وخمسين .

قوله : (إن من عقد لحيته) بكسر اللام لا غير ، والجمع لحي بالكسر والضم قاله الجوهري .

قال الخطابي : أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين .

أدهما : ما كانوا يفعلونه في الحرب ، كانوا يعقدون لحاهما ، وذلك من زى بعض الأعاجم يقتلونها ويعقدونها . قال أبو السعادات : تكبراً وعجبأ .

ثانيهما : أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد ، وذلك من فعل أهل التأنيث وقال أبو زرعة بن العراقي : والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة ، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع . وفيه أن من عقد لحيته في الصلاة .

قوله : أو تقلد وترأ أي جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته . وفي رواية محمد بن الربيع أو تقلد وترأ - يريد تعيبة .

إذا كان هذا فيمن تقلد وترأ فكيف بمن تعلق بالأموات وسائلهم قضاء الحاجات ، وتفريح الكربات ، الذي جاء النهى عنه وتغليظه في الآيات المحكمات ؟

قوله : أو استنجى برجيع دابة أو عزم فإن محمداً بريء منه قال لنwoي: أي بريء من فعله ، وهذا خلاف الظاهر . والنwoي كثيراً ما يتأنل الأحاديث بصرفها عن ظاهرها فيغفر الله تعالى له .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : " لا تستنجوا بالروث ولا العظام فإنه زاد إخوانكم من الجن " وعليه لا يجزى الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد ، لما روى ابن خزيمة والدارقطني عن أبي هريرة : " أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يستنجي بعظام أو روث ، وقال إنهم لا يطهران " .

قوله : (وعن سعيد بن جبير قال : " من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة " رواه وكيع) هذا عند أهل العلم له حكم الرفع ، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي ويكون هذا مرسلًا لأن سعيداً تابعى . وفيه فضل قطع التمام لأنها شرك . ووكيع هو ابن الجراح ابن وكيع الكوفي ، ثقة إمام ، صاحب تصانيف منها الجامع وغيره . روى عنه الإمام أحمد وطبقته . مات سنة سبع وتسعين ومائة .

قوله : قوله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التمام كلها من القرآن وغير القرآن وإبراهيم هو الإمام بن يزيد النخعي الكوفي ، يكنى أبا عمران ثقة من كبار الفقهاء . قال المزى : دخل على عائشة ، ولم يثبت له سمع منها . مات سنة ست وتسعين ، قوله خمسون سنة أو نحوها .

قوله : كانوا يكرهون التمام إلى آخره ، مراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود ، كعلمة والأسود وأبي وايل والحارث بن سويد ، وعبد السلماني ومسروق والربيع بن خثيم ، وسويد بن غفلة وغيرهم ، وهو من سادات التابعين وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم من حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ العراقي وغيره .

باب من تبرك بشجرة ونحوها

قوله : (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما)

بقعة وقبر ونحو ذلك ، أي فهو مشرك .

قوله : قوله الله تعالى : ' 53 : 19-23 ' أفرأيتم اللات والعزى * ومنة الثالثة الأخرى " الآيات) وكانت اللات لتفيف ، والعزى لقريش وبني كنانة ، ومنة لبني هلال . وقال ابن هشام : كانت لهذيل وخزاعة .

فأما اللات فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاحد وحمدي وأبو صالح ورويس بتشديد التاء .

فعلى الأولى قال الأعمش : سموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز . قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقو اسمها من الله تعالى ، قالوا : اللات مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً قال : وكذا العزى من العزيز .

وقال ابن كثير : اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت الطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرن به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، قال ابن هشام : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

وعلى الثانية قال ابن عباس : كان رجلاً يلت السويق للحج ، فما مات عكفوا على قبره ذكره البخاري قال ابن عباس : كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلؤه عليها ، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق وعن مجاهد نحوه وقال : فلما مات عبده رواه سعيد بن منصور . وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم عبدوه وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم .

قلت : لا منافاة بين القولين . فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليهاً وتظيمها . وللثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً . وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام .

وأما العزى فقال ابن جرير : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة - بين مكة والطائف - كانت قريش يعظمونها ... كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم " وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى ، وكانت على ثلاثة سمرات - فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره. فقال ارجع فإنك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد ، فلما أبصرته السدنة أمعنا في الجبل وهم يقولون : يا عزى يا عزى ، فأتتها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعمها بالسيف فقتلها ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره . فقال : تلك العزى قلت : وكل هذا وما هو أعظم منه يقع في هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات وفي المشاهد .

وأما منة فكانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخرج يعظمونها ويهلون منها للحج ، وأصل اشتقاها : من إسم الله المنان ، وقيل : لكثره ما يمنى - أي يراق - عندها من الدماء للتبرك بها .

قال البخاري رحمه الله ، في حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها : إنها صنم بين مكة والمدينة قال ابن هشام : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فهدمها عام الفتح فمعنى الآية كما قال القرطبي : أن فيها حذفاً تقديره : أفرأيت هذه الآلة ، أنفعت أو ضررت ، حتى تكون شركاء لله تعالى ؟

وقوله : "ألكم الذكر ولهم الأنثى" قال ابن كثير : تجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتخترعون لكم الذكور ؟ قوله : "تلك إذا قسمة ضئيل" أي جور وباطلة . فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً فتنزهون أنفسكم عن الإناث وتجعلونهن لله تعالى . قوله : "إن هي إلا أسماء سميت بها أنتم وآباؤكم" أي من تلقوا أنفسكم "ما أنزل الله بها من سلطان" أي من حجة "إن يتبعون إلا الظن" أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم "وما تهوى الأنفس" وإلا حظ أنفسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين . قوله : "ولقد جاءهم من ربهم الهدى" قال ابن كثير : ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير والحجارة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له أه .

ومطابقة الآيات للترجمة من جهة أن عباد هذه الأوثان إنهم كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائهما والاستعانة بها والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويؤمنونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك ، فالتبrik بقبور الصالحين كاللات ، وبالأشجار كالعزى ومنة من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان ، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عباد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك ، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبدיהם أعظم مما وقع من أولئك . فالله المستعان .

حديث أبي واقد الليثي في ذات أنواع

قوله : عن أبي واقد الليثي قال : "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ، ونحن حدثاء عهد بکفر ، وللمشركين سدرة يعکفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواع فمررنا بسدرة ، فقلنا يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواع كما لهم ذات أنواع ، فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى " اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون " لتركبن سنن من كان قبلكم " رواه الترمذى وصححه .
أبو واقد إسمه الحارث بن عوف ، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة قاله الترمذى وقد رواه
أحمد وأبو يعلى وابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى بنحوه .
قوله : عن أبي واقد قد تقدم ذكر إسمه في قول الترمذى وهو صحابي مشهور مات سنة ثمان
وستين وثمانون سنة .

قوله : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين وفي حديث عمرو بن عوف وهو عند
ابن أبي حاتم وابن مردوخ والطبرانى . قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ،
ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف - الحديث .

قوله : ونحن حدثاء عهد بکفر أي قریب عهدهنا بالکفر ، ففيه دليل على أن غيرهم من تقدم
إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قبله لا يؤمن أن يكون في قلبه
بقية من تلك العادة . ذكره المصنف رحمه الله .

قول : وللمشركين سدرة يعکفون عندها العکوف هو الإقامة على الشئ في المكان ، ومنه قول
الخليل عليه السلام : ' 21 : 52 ' ما هذه التماشیل التي أنتم لها عاكفون " وكان عکوف المشرکین
عند تلك السدرة تبرکاً بها وتعظیماً لها وفي حديث عمرو كان يناظر بها السلاح فسمیت ذات أنواع
وکانت تعبد من دون الله .

قوله : وینوطون بها أسلحتهم أي يعلقونها عليها للبركة .

قللت : ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعکوف والتبرک ، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت
الأشجار ونحوها .

قوله : فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواع قال أبو السعادات : سأله أن يجعل لهم مثلها
فنهاهم عن ذلك . وأنواع جمع نوط وهو مصدر سمى بها المنوط . ظنوا أن هذا أمر محظوظ عند الله
وقد صدوا التقرب به ، وإنما فهم أجل قدرًا من أن يقصدوا مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر وفي رواية سبحان الله والمراد تعظيم الله تعالى
وتتنزيهه عن هذا الشرك بأي نوع كان ، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله وكان النبي صلى
الله عليه وسلم يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب تعظيمًا لله وتتنزيهًا له إذا سمع من أحد ما لا
يليق بالله مما فيه هضم للربوبية أو الإلهية .

قوله : إنها السنن بضم السنين أي الطرق .

قوله : قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى " اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة " شبه مقالتهم هذه بقول بنى إسرائيل ، بجامع أن كلاً طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله ، وإن اختلف الفظان . فالمعنى واحد ، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة .

ففيه الخوف من الشرك ، وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقربه إلى الله ، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقره من سخطه ، ولا يعرف هذا على الحقيقة إلى من عرف ما وقع في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور ، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها ، ويحسّبون أنهم على شيء وهو الذنب الذي لا يغفره الله .

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بابن أبي شامة في كتاب البدع والحوادث : ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد ، يحكى لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً من شهر بالصلاح والولاية ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه ، ويظنو أنهم متقربيون بذلك ، ثم يتتجاوزون هذا إلى أن يعظمونه في قلوبهم فيعظّمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها ، وهي من عيون وشجر وحائط وحجر . وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير ، والشجرة الملعونة خارج باب النصر نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتناثها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواع الواردة في الحديث . انتهى .

وذكر ابن القيم رحمة الله نحو ما ذكره أبو شامة ، ثم قال : مما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ، ويقولون : إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر ، أي تقبل العبادة من دون الله ، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها النازر إلى المنذور له ، وسيأتي ما يتعلق بهذا الباب عند قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد " .

وفي هذه الجملة من الفوائد : أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها العكوف عندها والذبح لها هو الشرك ، ولا يغتر بالعوام والطغام ، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع في هذه الأمة ، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين لهم أن ذلك كقول بنى إسرائيل : ' 7 : 138 ' " اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة " فكيف لا

يُخْفَى عَلَى مَنْ دُونَهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ بِأَسْعَافٍ مُضَاعِفَةً مَعَ غَلْبَةِ الْجَهْلِ وَبَعْدِ الْعَهْدِ بِآثَارِ النَّبِيِّ ؟ !
بَلْ خُفْيٌ عَلَيْهِمْ عَظَامُ الشَّرْكِ فِي الإِلَهِيَّةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ ، فَأَكْبَرُوا فَعْلَهُ وَاتَّخَذُوهُ قَرْبَةً .
وَفِيهَا أَنَّ الاعتْبَارَ فِي الْأَحْكَامِ بِالْمَعْانِي لَا بِالْأَسْمَاءِ ، وَلِهَذَا جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلْبَتِهِمْ
كَطْلَبَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى كَوْفَهُمْ سَمُوهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ . فَالْمُشَرِّكُ مُشَرِّكٌ وَإِنْ سُمِّيَ شَرِكَهُ مَا
سَمَاهُ . كَمَنْ يُسَمِّي دُعَاءَ الْأَمْوَاتِ وَالذَّبْحِ وَالنَّذْرِ لَهُمْ وَنَحْوُ ذَلِكَ تَعْظِيمًا وَمُحْبَةً ، فَإِنْ ذَلِكُ هُوَ الشَّرْكُ ،
وَإِنْ سَمَاهُ مَا سَمَاهُ . وَقَسْ عَلَى ذَلِكَ .

لتركين سنن من قبلكم

قوله : لتركين سنن من كان قبلكم بضم المودحة وضم السين أي طرقوهم ومناهجهم وقد يجوز فتح
السين على الإفراد أي طرقوهم . وهذا خبر صحيح . والواقع من كثير من هذه الأمة يشهد له .
وفيه علم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به صلى الله عليه وسلم .
وفي الحديث : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه ، إلا ما دل
الدليل على أنه من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

قال المصنف رحمه الله : وفيه التنبيه على مسائل القبر ، أما : من ربك ؟ فواضح . وأما : من
نبيك ؟ فمن إخباره أئباء الغيب . وأما : ما دينك ؟ فمن قولهم اجعل لنا إلهاً إلخ . وفيه : أن الشرك
لا بد أن يقع في هذه الأمة خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك ، وفيه الغضب عند التعليم ، وإن ما ذم الله به
اليهود والنصارى فإنه قال لنا لنحذر قاله المصنف رحمه الله .

وأما ما ادعاه بعض المؤخرین من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه :
منها : أن السابقين الأولين من الصحابة ومن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبي صلى الله
عليه وسلم ، لا في حياته ولا بعد موته . ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر
وعثمان وعلي رضي الله عنهم . وقد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن شهد له بالجنة ،
وما فعله أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة ، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم
والدين وأهل الأسوة . فلا يجوز أن يقاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد من الأمة ، وللنبي
صلى الله عليه وسلم في حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح أن يشاركه فيها غيره .
ومنها : أن في المنع عن ذلك سداً لذرية الشرك كما لا يخفى .

باب ما جاء في الذبح لغير الله

قوله : (باب ما جاء في الذبح لغير الله)

من الوعيد وأنه شرك بالله .

قوله : ' 6 : 162 ، 163 ' " قل إن صلاتي ونسكي ومحبتي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له " الآية .

قال ابن كثير : يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذي يعبدون غير الله ويدبحون له : بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته . لأن المشركين يعبدون الأصنام ويدبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والإنحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى . قال مجاهد : النسك الذبح في الحج والعمرة . وقال الثوري عن السدي عن سعيد ابن جبير : ونسكي ذبحي . وكذا قال الضحاك . وقال غيره " ومحبتي ومماتي " أي وما آتىه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح " الله رب العالمين " خالصاً لوجهه " لا شريك له وبذلك " الإخلاص " أمرت وأنا أول المسلمين " أى من هذه الأمة لأن إسلام كلنبي متقدم .

قال ابن كثير : وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ' 21 : 25 ' وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " وذكر آيات في هذا المعنى .

ووجه مطابقة الآية للترجمة : أن الله تعالى تعبد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك ، كما تعبدهم بالصلاوة وغيرها من أنواع العبادات ، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه ، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا الله شريكاً في عبادته ، ظاهر في قوله : " لا شريك له " نفي أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات ، وهو بحمد الله واضح .

قوله : " فصل لربك وانحر " قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أمر الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن ، وقومة اليقين ، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عدته ، عكس حال أهل الكبر والنفرة ، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم ، والذين لا ينحررون له خوفاً من الفقر ، ولهذا جمع بينهما في قوله : " قل إن صلاتي ونسكي " الآية والنسك الذبيحة لله تعالى إبتغاء وجهه . فإنهما أجل ما يتقرب به إلى الله ، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ، لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاهم الله تعالى

من الكوثر . وأجل العبادات البدنية : الصلاة ، وأجل العبادات المالية : النحر . وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها ، كما عرفه أرباب القلوب الحية ، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص ، من قوة اليقين وحسن الظن : أمر عجيب ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثير الصلاة ، كثير النحر . اهـ .

قلت : وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيراً ، فمن ذلك الدعاء والتكبير ، والتسبيح والقراءة ، والتسميع والثناء ، والقيام والركوع ، والسجود والاعتدال ، وإقامة الوجه لله تعالى ، والإقبال عليه بالقلب ، وغير ذلك مما هو مشروع في الصلاة ، وكل هذه الأمور من أنواع العبادة التي لا يجوز أن يصرف منها شئ لغير الله : وكذلك النسك يتضمن أموراً من العبادة كما تقدم في كلامشيخ الإسلام رحمة الله تعالى .

حديث علي : لعن الله من ذبح لغير الله إلخ
قوله : وعن علي بن أبي طالب قال : " حدثني رسول الله صلی الله عليه وسلم بأربع كلمات :
لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير
منار الأرض " رواه مسلم من طرق وفيه قصة .

ورواه الإمام أحمد كذلك عن أبي طفيل قال قلنا لعلي : أخبرنا بشئ أسره إليك رسول الله صلی الله عليه وسلم فقال : ما أسر إلى شيئاً كتمه الناس ، ولكن سمعته يقول : لعن الله من ذبح لغير الله ،
ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من غير تخوم الأرض ، يعني المنار .
وعلى بن أبي طالب : هو الإمام أمير المؤمنين أبو الحسن الهاشمي ابن عم النبي صلی الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، كان من أسبق السابقين الأولين ومن أهل بدر وبيعة الرضوان ، وأحد
العشرة المشهود لهم بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، ومناقبه مشهورة رضي الله عنه ، قتله ابن
ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين .

قوله : لعن الله اللعن : البعد عن مظان الرحمة ومواطنها . قيل : واللعين والملعون من حقت
عليه اللعنة ، أو دعى عليه بها . قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله ، ومن
الخلق السب والدعاء .

قال شيخ الإسلام رحمة الله ما معناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلي
سبحانه على من استحق الصلاة من عباده قال تعالى : ' 43 ، 33 : 44 ' هو الذي يصلي عليكم

وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيمًا * تحبّتهم يوم يلقونه سلام " وقال : ' 33 : 64 ' إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً " وقال : ' 33 : 61 ' ملعونين أينما ثقفووا أخذوا وقتلوا تقتيلاً " والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبلغه رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم ، وجبريل سمعه منه كما سيأتي في الصلاة إن شاء الله تعالى ، فالصلاحة ثناء الله تعالى كما تقدم . فالله تعالى هو المصلى وهو المثيب ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وعليه سلف الأمة . قال الإمام أحمد رحمه الله : لم ينزل الله متكلماً إذا شاء .

قوله : من ذبح لغير الله قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : ' 2 : 173 ' وما أهل به لغير الله " ظاهره : أنه ما ذبح لغير الله ، مثل أن يقول : هذا ذبيحة لكذا . وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للصنم وقال فيه : باسم المسيح أو نحوه . كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أذكى وأعظم مما ذبحناه للحم ، وقلنا عليه : بسم الله . فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة ، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى ، فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الإستعانة بغير الله . وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقربياً إليه يحرم ، وإن قال فيه باسم الله ، كما قد يفعله طائفة من منافقى هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك وإن هؤلاء مرتدون لا تباح ذبيحتهم بحال . لكن يجتمع في الذبيحة مانعان :

الأول : أنه مما أهل به لغير الله .

والثاني : أنها ذبيحة مرتد .

ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن ، ولهذا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبائح الجن . اهـ .

قال الزمخشري : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوها عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيّبهم الجن ، فأضيّفت إليهم الذبائح لذلك .

وذكر إبراهيم المروزي : أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بخارى بتحريمه ، لأنه مما أهل به لغير الله .

قوله : لعن الله من لعن والديه يعني أباه وأمه وإن عليا . وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه " .

قوله : لعن الله من آوى محدثاً أى منعه من أن يؤخذ منه الحق الذى وجب عليه آوى بفتح الهمزة ممدوده أى ضمه إليه ومحاه .

قال أبو السعادات : أويت إلى المنزل ، وأويت غيري ، وأويته . وأنكر بعضهم المقصور المتعدى .
وأما محدثاً فقال أبو السعادات : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر : من نصر جانباً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بيته وبين أن يقتضي منه . وبالفتح : هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه ، فإنه إذا رضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه .

قال ابن القيم رحمة الله تعالى : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم .

قوله : ولعن الله من غير منار الأرض بفتح الميم علامات حدودها . قال أبو السعادات في النهاية - في مادة تخم - ملعون من غير تخوم الأرض أى معالها وحدودها ، وحدها تخم قيل : أراد حدود الحرم خاصة : وقيل هو عام في جميع الأرض ، وأراد المعالم التي يهتدى بها في الطريق . وقيل هو أن يدخل الرجل في ملك غيره فيقطعه ظلماً . قال ويروى تخوم بفتح التاء على الإفراد وجمعه تخم بضم التاء والخاء . ا هـ .

وتغييرها : أن يقدمها أو يؤخرها ، فيكون هذا من ظلم الأرض الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " من ظلم شيئاً من الأرض طوشه يوم القيمة من سبع أرضين " ففيه جواز لعن أهل الظلم من غير تعبيين .

وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان :
أحدهما : أنه جائز . اختاره ابن الجوزي وغيره .
ثانيهما : لا يجوز ، اختاره ، أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام .

حديث دخل رجل الجنة في ذباب إلخ

قوله : " وعن طارق بن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دخل الجنة رجل في ذباب . ودخل النار رجل في ذباب . قالوا كيف يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرب . قال : ليس عندي شيء أقرب . قالوا له

قال ابن القيم رحمه الله : قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال : دخل الجنة في رجل في ذباب الحديث . وطارق بن شهاب : هو البجلي الأحسن ، أبو عبد الله . رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو رجل .

قال البعوي : نزل الكوفة . وقال أبو داود : رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه شيئاً . قال الحافظ : إذا ثبت أنه لقى النبي فهو صحابي . وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي وهو مقبول على الراجح ، وكانت وفاته - على ما جزم به ابن حبان - سنة ثلاثة وثمانين . قوله : دخل الجنة رجل في ذباب أي من أجله .

قوله : قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله كأنهم تقالوا ذلك ، وتعجبوا منه . فيبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة ، ويستوجب الآخر عليه النار .

قوله : فقال : مر رجلان على قوم لهم صنم ما كان منحوتاً على صورة ويطلق عليه الوثن كما مر .

قوله : لا يجاوزه أي لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب إليه شيئاً وإن قل .

قوله : قالوا له قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار في هذا بيان عظمة الشرك ، ولو في شيء قليل ، وأنه يوجب النار . كما قال تعالى : ' 72 ' 5 : إن من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ' .

وفي هذا الحديث : التحذير من الوقوع في الشرك ، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدرى أنه من الشرك الذي يوجب النار .

و فيه أنه دخل النار بسبب لم يقصد ابتداء ، وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم .

و فيه أن ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك ، وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل دخل النار في ذباب .

و فيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبادة الأوثان ، ذكره المصنف بمعناه .

قوله : وقالوا للآخر : قرب . قال : ما كنت لأقرب شيئاً دون الله عز وجل .

قال المصنف رحمة الله : وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا منه إلى العمل الظاهر .

باب لا يذبح مكان يذبح فيه لغير الله

قوله : باب : لا يذبح بمكان يذبح فيه لغير الله تعالى

لا نافية ويحتمل أنها للنهي وهو أظهر ، قوله : وقول الله تعالى ' 9 : 108 ' لا تقم فيه أبدا " الآية قال المفسرون إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار ، والأمة تبع له في ذلك ، ثم إنه تعالى حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنى على التقوى ، وهي طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وجمعأً لكلمة المؤمنين ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة في مسجد قباء كعمره " وفي الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور قباء راكباً ومشياً وقد صرخ أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف ، منهم ابن عباس ، وعروة ، والشعبي ، والحسن وغيرهم .

قلت : ويفيد قوله في الآية " فيه رجال يحبون أن يتظاهروا " وقيل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لحديث أبي سعيد قال : " تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فقال رجل : هو مسجد قباء . وقال الآخر : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو مسجدي هذا " رواه مسلم ، وهو قول عمر وابنه وزيد ابن ثابت وغيرهم .

قال ابن كثير : وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية والحديث . لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى ، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله كما قال تعالى : ' 9 : 107 ' والذين اتخذوا مسجداً ضرراً وكفراً وتفرققاً بين المؤمنين وإرضاها لمن حارب الله ورسوله من قبل وليرحلون إن أردنا إلا الحسنی والله يشهد إنهم لکاذبون " . فلهذه الأمور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة . وكان الذي بنوه جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى غزوة تبوك فسألوه أن يصلّي فيه ، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلقة في الليلة الشاتبة ، فقال : " إنما على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحي بخبر المسجد ، فيبعث إليه

فهدمه قبل قدومه إلى المدينة . وجه مناسبة الآية للترجمة : أن الموضع المعد للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله ، كما أن هذا المسجد لما أعد لعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك ، فلا تجوز الصلاة فيه لله . وهذا قياس صحيح يؤيده حديث ثابت الصحاك الآتي .

قوله : " فيه رجال يحبون أن يتظهروا " روى الإمام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم بن ساعدة الأنباري " أن النبي صلى الله عليه وسلم آتاهم في مسجد قباء فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالظهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الظهور الذي تظهرون به ؟ فقالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا " وفي رواية عن جابر وأنس هو ذاك فعليكموه رواه ابن ماجه وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم .

قوله : " والله يحب المظاهرين " قال أبو العالية : إن الظهور بالماء لحسن ولكنهم المظاهرون من الذنوب . وفيه إثبات صفة المحبة ، خلافاً للأشاعرة ونحوهم .

حديث فيمن نذر بأن ينحر ببوانة

قوله : وعن ثابت بن الصحاك قال : " نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم . قالوا : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بندرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم " رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما .

قوله : عن ثابت بن الصحاك أبي ابن خليفة الأشهلي ، صحابي مشهور ، روى عنه أبو قلابة وغيره . مات سنة أربع وستين .

قوله : ببوانة بضم الباء وقيل بفتحها . قال البغوي : موضع في أسفل مكة دون يلم لم . قال أبو السعادات : هضبة من وراء ينبع .

قوله : فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن ، ولو بعد زواله . قال المصنف رحمه الله .

قوله : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قال شيخ الإسلام رحمه الله : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد ، إما بعود السنة أو الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية . فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد ، كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها اجتماع فيه ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات ، وقد يختص العيد

بمكان بعينه ، وقد يكون مطلقاً ، وكل من هذه الأمور قد يسمى عيضاً . فالزمان كقول النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة "إن هذا يوم قد جعله الله لل المسلمين عيضاً " والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس شهدت العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمكان كقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا تتخذوا قبرى عيضاً " وقد يكون لفظ العيد إسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : " دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيضاً " انتهى .

قال المصنف : وفيه استفال المفتى والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله .

قلت : وفيه سد الذريعة وترك مشابهة المشركين ، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك .

قوله : فأوف بنذرك هذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغير الله . أي في محل أعيادهم ، معصية ، لأن قوله فأوف بنذرك تعقيب للوصف بالحكم بالفاء ، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم . فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه من هذين الوصفين . فلما قالوا لا قال أوف بنذرك وهذا يقتضي أن كون البقعة مكاناً لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم : مانع من الذبح بها ولو نذرها . قال شيخ الإسلام .

وقوله : فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله دليل على أن هذا نذر معصية لو قد وجد في المكان بعض المowanع . وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء . واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين ؟ بما رويايتان عن أحمد .

أحدهما : يجب وهو المذهب . وروى عن ابن مسعود وابن عباس . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : " لا نذر في معصية ، وكفارته كفارة يمين " رواه أحمد وأهل السنن واحتج به أحمد واسحق .

ثانيهما : لا كفارة عليه . وروى ذلك عن مسروق والشعبي والشافعي ، لحديث الباب . ولم يذكر فيه كفارة . وجوابه : أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم . والمطلق يحمل على المقيد .

قوله : ولا فيما لا يملك ابن آدم قال في شرح المصايب : يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال : إن شفى الله مريضي فللله على أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك . فاما إذا التزم في الذمة شيئاً ، بأن قال إن شفى الله مريضي فللله على أن أعتق رقبة ، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها ، فإذا شفى مريضه ثبت ذلك في ذمته .

قوله : رواه أبو داود وإسناده على شرطهما أي البخاري ومسلم .

وأبو داود : اسمه سليمان ابن الأشعث بن اسحق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني صاحب الإمام أحمد ، ومصنف السنن والمراسيل وغيرها ، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء مات سنة خمس وسبعين ومائتين . رحمه الله تعالى .

باب من الشرك النذر لغير الله

قوله : (باب من الشرك النذر لغير الله تعالى)
أي لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله . فيكون النذر لغير الله تعالى شركاً في العبادة .
وقوله تعالى : ' 76 : 7 ' يوفون بالنذر ويخالفون يوماً كان شره مستطيراً " فالآية دلت على وجوب الوفاء بالنذر ومدح من فعل ذلك طاعة لله ووفاء بما تقرب به إليه .
وقوله تعالى : ' 270 : 2 ' وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلم " .
قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يعلمه العاملون من الخيرات ، من النفقات والمنذورات ، وتتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفوا الجزاء للعاملين إبتغاء وجهه . ا ه .
إذا علمت ذلك : فهذه النذور الواقعه من عباد القبور ، تقرباً بها إليهم ليقضوا لهم حوائجهم ولি�شفعوا لهم ، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب . كما قال تعالى : ' 136 : 6 ' وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والأنعام نصيباً فقلوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون " .
قال شيخ الإسلام رحمه الله : وأما ما نذر لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك ، فهو منزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات . والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك النادر للمخلوقات . فإن كلاهما شرك . والشرك ليس له حرمة ، بل عليه أن يستغفر الله من هذا ويقول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من حلف وقال في حلفه : واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله " .

وقال فيمن نذر سمعة أو نحوها دهناً لتنور به ويقول : إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين - : وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به وكذلك إذا نذر مالاً للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة . فإن فيهم شبهاً من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والمجاورون هناك فيهم شبهة من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام : " ما هذه التماضيل التي أنت لها عاكفون " والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه ، قال

تعالى : ' 7 : 138 ' وجوازنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم " فالنذر لأنذك السدنة والمجاوري في هذه البقاع نذر معصية . وفيه شبه من النذر لسدنة الصليبان والمجاوري عندها ، أو لسدنة الأبداد في الهند والمجاوري عندها .

وقال الرافعى في شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولى أو شيخ أو على إسم من حلها من الأولياء ، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة تعظيم البقعة والمشهد ، أو الزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه ، أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويررون أنها مما يدفع بها البلاء ويستجلب بها النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : إنه استند إليها عبد صالح وينذرون لبعض القبور السرج والشمع والزيت ، ويقولون إنها تقبل النذر كما يقوله البعض يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ، أو قدوم غائب أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع المجازاة ، فهذا النذر على الوجه باطل لا شك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً . ومن ذلك نذر الشمع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيمًا ، ظاناً أن ذلك قربة ، وهذا مما لا ريب في بطلانه ، والإيقاد المذكور محظوظ ، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا .

قال الشيخ قاسم الحنفى في شرح درر البحار : النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ، فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه ستراً ، ويقول : يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفى مريضي ، أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء كذا ، أو من الشمع والزيت . فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه ، منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق ، ومنها أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك ، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر - إلى أن قال : إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراما والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها فحرام بإجماع المسلمين .

نقله عنه ابن نجيم في البحر الرائق ، ونقله المرشدى في تذكرة وغيرهما عنه وزاد : قد ابتلى الناس بهذا لا سيما في مولد البدوى.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء : فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله ، فيكون باطلًا . وفي التنزيل ⁶ : 121 " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " ⁶ : 162 " قل إن صلاتي ونسكي ومحبتي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له " والنذر لغير الله إشراك مع الله ، كالذبح لغيره .

الحديث من نذر أن يعصي الله فلا يعصه

قوله : عن عائشة هي أم المؤمنين ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وابنة الصديق رضي الله عنهما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهي ابنة سبع سنين ، ودخل بها ابنة تسع وهي أفقه النساء مطلقاً ، وهي أفضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إلا خديجة ففيها خلاف . ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح رضي الله عنها .

قوله : من نذر أن يطيع الله فليفعل ما نذره من طاعة الله وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه ، فإن شفى الله مريضى فعلى أن تصدق بكل ذلك وجب عليه ، إن حصل له ما علق نذرته على حصوله . وحکى عن أبي حنيفة : أنه لا يلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع كالصوم وأما ما ليس كذلك كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به .

قوله : ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه زاد الطحاوى : وليكفر عن يمينه وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بندر المعصية .

قال الحافظ : اتفقوا على تحريم النذر في المعصية ، وتنازعوا : هل ينعقد موجباً للكفارة أم لا ؟ وقد يستدل بالحديث على صحة النذر في المباح ، كما هو مذهب أحمد وغيره ، يؤيده ما رواه وتقديم . وقد ينتهي إلى أن النذر في المباح موجباً للكفارة .

أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأحمد والترمذى عن بريدة : أن امرأة قالت : " يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف ، فقال أوفي بندرك" وأما نذر اللجاج والغضب فهو يمين عند أحمد ، فيخير بين فعله وكفارة يمين ، لحديث عمران بن حصين مرفوعاً " لا نذر في غصب ، وكفارته كفارة يمين " رواه سعيد بن منصور وأحمد والنسائي ، فإن نذر مكروهاً كالطلاق استحب أن يكفر ولا يفعله .

باب من الشرك الاستعاذه بغير الله

قوله : (باب : من الشرك الاستعاذه بغير الله)

الاستعاذه الالتجاء والاعتصام ، ولهذا يسمى المستعاذه به : معاذًا وملجأ فالعاذه بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه ، إلى ربه ومالكه ، واعتصم واستجار به والتجاء إليه ، وهذا تمثيل ، وإنما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله ، والاعتصام به ، والانطراح بين يدي الرب ، والافتقار ، والتذليل له ، أمر لا تحيط به العبارة . قاله ابن القيم رحمة الله .

وقال ابن كثير : الاستعاذه هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنبه من شر كل ذى شر . والعياذ يكون لدفع الشر . واللبياذ لطلب الخير . انتهى .

قلت : وهي من العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده ، كما قال تعالى : ' 36 : 41 ' وإنما ينزعنك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه هو السميع العليم " وأمثال ذلك في القرآن كثير قوله : " قل أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " و " قل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " فما كان عبادة لله فصرفه لغير الله شرك في العبادة ، فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله جعله شريكاً لله في عبادته وناظر الرب في إلهيته كما أن من صلٰى لله صلٰى لغيره يكون عابداً لغير الله ، ولا فرق ، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى . قوله : وقول الله تعالى : ' 72 : 6 ' وأنه كان رجال من الإنس يعودون برجال من الجن فزادوهم رهقاً .

قال ابن كثير : أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعودون بنا ، أي إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعودون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشئ يسوءهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذممه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعودون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً ، أي خوفاً وإرهاباً وذرعاً ، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم - إلى أن قال - قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم رهقاً أي خوفاً . وقال العوفي عن ابن عباس فزادوهم رهقاً أي إثماً ، وكذا قال قتادة . اهـ .

وذاك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال : أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِيِّ مِنْ سَفَهَاءِ قَوْمِهِ ، يَرِيدُ كَبِيرَ الْجَنِ ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْإِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ .

وقال ملا على قاري الحنفي : لا يجوز الاستعاذه بالجن . فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال : قال تعالى ' 128 : 6 ' ويوم يحشرهم جميعاً يا معاشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا بعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن رب حكيم عليم " فاستمتع الإنس بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره

وإخباره بشئ من الغيبات ، واستمتاع الجنى بالإنسى تعظيمه إياه ، وإستعاذه به وحضوره له .
انتهى ملخصاً .

قال المصنف : وفيه أن كون الشئ يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك .

ما يقول من نزل بمكان يخافه

قوله : وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من نزل منزلًا فقال : أَعُوذُ بِكَلْمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ يَضْرِه شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلَهُ ذَلِكَ " رواه مسلم .

هي خولة بنت حكيم بن أمية السلمية ، يقال لها أم شريك ، ويقال إنها هي الواهبة وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون .

قال ابن عبد البر : وكانت صالحة فاضلة .

قوله : أَعُوذُ بِكَلْمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ شَرِعَ اللَّهُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَسْتَعِذُوا بِهِ بَدْلًا عَمَّا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهْلِيَّةِ مِنِ الإِسْتَعَاذَةِ بِالْجِنِّ ، فَشَرَعَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَعِذُوا بِأَسْمَائِهِ وَصَفَاتِهِ .

قال القرطبي : قيل : معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب ، كما يلحق كلام البشر .
وقيل معناه : معناه الشافية الكافية . وقيل الكلمات هنا هي القرآن . فإن الله أخبر عنه بأنه : 10
: 57 و 17 : 82 و 41 : 44 ' هدى وشفاء " وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به
الأذى . ولما كان ذلك استعاذه بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه ، وعلى هذا
تحقق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته أن يصدق الله في إتجاهه إليه ، ويتوكل في ذلك عليه ، ويفحضر
ذلك في قلبه ، فمتهى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الإستعاذه بمخلوق .
وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق . قالوا : لأنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه استعاذه بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها
خشية أن يكون فيها شرك .

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعاه ، واستعاذه به وتقرب إليه بما يجب فقد عبده ، وإن
لم يسم ذلك عبادة ويسميها استخداماً ، وصدق ، هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم

الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عباده ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به أه .

قوله : " من شر ما خلق " قال ابن القيم رحمه الله : أي من كل شر في أي مخلوق قام بن الشر من حيوان أو غيره ، إنسياً أو جنباً ، أو هامة أو دابة ، أو ريحًا أو صاعقة ، أو أي نوع من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة .

و ما ه هنا موصولة وليس المراد بها العموم الإطلاقي ، بل المراد التقييدي الوصفي ، والمعنى : من كل شر كل مخلوق فيه شر ، لا من شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئاً : على الألم ، وعلى ما يفضي إليه .

قوله : لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك قال القرطبي : هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة ، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته ، فلدهنتني عقرب بالمهدية ليلاً ، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات .

باب من الشرك الاستغاثة بغير الله ودعاء غير الله

قوله : (باب من الشرك أن يستغاث بغير الله أو يدعو غيره)

قال شيخ الإسلام رحمه الله : الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، والدعاء أعم من الاستغاثة ، لأنه يكون من المكروب وغيره . فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص . فبينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان في مادة وينفرد الدعاء عنها في مادة ، فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة .

وقوله : أو يدعو غيره أعلم أن الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، ويراد به في القرآن هذا تارة ، وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما فدعا المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعوه أحداً من دونه من لا يملك ضراً ولا نفعاً ، كقوله تعالى : ' 5 : 76 ' " قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم " وقوله : ' 6 : 71 ' " قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهواه الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين " وقال : ' 106 : 10 ' " ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين " .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة ، قال الله تعالى : ' 7 : 55 ' ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعذبين " وقال تعالى : ' 6 : 40 ، 41 ' قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتقكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إيهات تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون " وقال تعالى : ' 13 : 14 ' له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كbast كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يحصر ، وهو يتضمن دعاء العبادة ، لأن السائل أخلص سؤاله لله ، وذلك من أفضل العبادات ، وكذلك الذاكر لله والتالي لكتابه ونحوه ، طالب من الله في المعنى ، فيكون داعياً عابداً .

فتبيين بهذا من قول شيخ الإسلام أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، وقد قال الله تعالى عن خليله : ' 19 ، 48 ، 49 ' وأعزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بداعء ربى شقيا * فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا " فصار الدعاء من أنواع العبادة ، فإن قوله : " وأدعو ربى عسى أن لا أكون بداعئ رب شقيا " كقول زكريا : ' 19 : 4 ' إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئاً ولم أكن بداعئ رب شقيا " . وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه قوله : ' 7 : 55 ، 56 ' ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعذبين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين " وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة ، فإن الداعي يرغب إلى المدعو وي الخضع له ويتدلل .

وضابط هذا : أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به فعله الله عبادة ، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث به رسوله من قوله : ' 39 : 14 ' قل الله أعبد مخلصاً له ديني " وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

تعظيم رسول الله غير الغلو فيه

قال شيخ الإسلام رحمه الله في الرسالة السننية : فإذا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم من انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنّة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب منها : الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي بن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح ، فكل من غلا فينبي أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل

أن يقول : يا سيدى فلان انصرني أو أغثني ، أو ارزقني ، أو أنا في حسبك ، ونحو هذه الأقوال . فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فإن تاب ولا قتل . فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ليعبد وحده لا شريك له ، ولا يدعى معه إله آخر . والذي يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلاق أو تنزل المطر أو تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدونهم ، أو يعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ، يقولون : ' 39 : 3 ' ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " ' 101 : 10 ' ويقولون هؤلاء شفاعاؤنا عند الله " فبعث الله سبحانه رسالته تنهى عن أن يدعى أحد من دونه ، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة . ا هـ .

وقال أيضاً : من جعل بينه وبين الله وسائل يتوكلا عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً .

نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الإنصاف وصاحب الإقناع وغيرهم . وذكره شيخ الإسلام ونقلته عنه في الرد على ابن جرجيس في مسألة الوسائل .

وقال ابن القيم رحمه الله : ومن أنواعه - يعني الشرك - طلب الحاجات من الموتى ، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم . وهذا أصل شرك العالم . فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، فضلاً عن استغاثة به أو سأله أن يشفع له إلى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، وسيأتي تتمة كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي رحمه الله في رده على السبكي في قوله : إن المبالغة في تعظيمه - أي الرسول صلى الله عليه وسلم - واجبة .

إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً ، حتى الحج إلى قبره والتسجود له ، والطواف به ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطي ويمنع لمن استغاث به من دون اللهضر والنفع ، وأنه يقضى حاجات السائلين ويفرج كربات المكروبين ، وأنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنـة من يشاء - فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك ، وانسلاخ من جملة الدين .

وفي الفتاوى البازية من كتب الحنفية : قال علـمـاؤـنـا : من قال أرواح المـائـاخ حـاضـرة تـعلـمـ :
يـكـفـرـ .

الـردـ عـلـىـ مـنـ اـدـعـىـ أـنـ لـلـأـولـيـاءـ تـصـرـفـاـ

وقال الشيخ صنع الله الحنفي رحمـهـ اللهـ -ـ فيـ كتابـهـ الرـدـ عـلـىـ مـنـ اـدـعـىـ أـنـ لـلـأـولـيـاءـ تـصـرـفـاتـ فيـ الحـيـاةـ وـبـعـدـ الـمـاتـ عـلـىـ سـبـيلـ الـكـرـامـةـ :ـ هـذـاـ وـأـنـهـ قـدـ ظـهـرـ الـآنـ فـيـماـ بـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ جـمـاعـاتـ يـدـعـونـ أـنـ

لالأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم ، ويستغاث بهم في الشدائـ والبليـات وبـهمـهمـ تـكشفـ المـهـماـتـ ، فـيـأـتـونـ قـبـورـهـمـ وـيـنـادـونـهـمـ فـيـ قـضـاءـ الـحـاجـاتـ ، مـسـتـدـلـيـنـ أـنـ ذـلـكـ مـنـهـمـ كـرـامـاتـ وـقـالـوـاـ: مـنـهـمـ أـبـدـانـ وـنـقـبـاءـ ، وـأـوتـادـ وـنـجـباءـ وـسـبـعـونـ وـأـربـاعـةـ ، وـالـقطـبـ هـوـ الغـوثـ لـلـنـاسـ ، وـعـلـيـهـ المـدارـ بـلـ التـبـاسـ ، وـجـوزـواـ لـهـمـ الـذـبـائـحـ وـالـنـذـورـ ، وـأـثـبـتوـاـ فـيـهـمـاـ الـأـجـورـ ، قـالـ: وـهـذـاـ كـلـامـ فـيـهـ تـفـريـطـ وـإـفـرـادـ ، بـلـ فـيـهـ الـهـلاـكـ الـأـبـدـيـ وـالـعـذـابـ السـرـمـدـيـ، لـمـ فـيـهـ مـنـ روـائـحـ الـشـرـكـ الـمـحـقـقـ ، وـمـصـادـمـةـ الـكـتـابـ الـعـزـيزـ الـمـصـدـقـ ، وـمـخـالـفةـ لـعـقـائـدـ الـأـئـمـةـ وـمـاـ اـجـتـمـعـتـ عـلـيـهـ الـأـمـةـ . وـفـيـ التـنـزـيلـ: ' 4 : 114 ' وـمـنـ يـشـاقـقـ الرـسـولـ مـنـ بـعـدـ مـاـ تـبـيـنـ لـهـ الـهـدـىـ وـيـتـبعـ غـيرـ سـبـيلـ الـمـؤـمـنـينـ نـوـلـهـ مـاـ تـوـلـىـ وـنـصـلـهـ جـهـنـمـ وـسـاءـتـ مـصـبـرـاـ' .

ثـمـ قـالـ: فـأـمـاـ قـوـلـهـ: إـنـ لـلـأـوـلـيـاءـ تـصـرـفـاتـ فـيـ حـيـاتـهـمـ وـبـعـدـ الـمـاتـ ، فـيـرـدـهـ قـوـلـهـ تـعـالـ: ' 27 : 61 - 64 ' أـلـهـ مـعـ اللـهـ ' 7 : 54 ' أـلـاـ لـهـ الـخـلـقـ وـالـأـمـرـ ' 3 : 189 وـ 5 : 19 وـ 20 : 123 وـ 24 : 42 وـ 42 : 49 وـ 45 : 48 وـ 27 وـ 45 : 14 ' لـهـ مـلـكـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ وـنـحـوـهـاـ مـنـ الـآـيـاتـ الـدـالـلـةـ عـلـىـ أـنـ الـمـنـفـرـدـ بـالـخـلـقـ وـالـتـدـبـيـرـ وـالـتـصـرـفـ وـالـتـقـدـيـرـ ، وـلـاـ شـئـ لـغـيـرـهـ فـيـ شـئـ مـاـ بـوـجـهـ مـنـ الـوـجـوهـ فـالـكـلـ تـحـتـ مـلـكـهـ وـقـهـرـهـ تـصـرـفـاـ وـمـلـكـاـ ، وـإـمـاتـةـ وـخـلـقـاـ . وـتـمـدـحـ الـرـبـ تـبـارـ وـتـعـالـ بـاـنـفـرـادـهـ بـمـلـكـهـ فـيـ آـيـاتـ مـنـ كـتـابـهـ كـوـلـهـ: ' 35 : 3 ' هـلـ مـنـ خـالـقـ غـيرـ اللـهـ؟ " ' 40 : 35 ' وـالـذـينـ تـدـعـونـ مـنـ دـوـنـهـ مـاـ يـمـلـكـونـ مـنـ قـطـمـيرـ * إـنـ تـدـعـوـهـمـ لـاـ يـسـمـعـوـاـ دـعـاءـكـمـ وـلـوـ سـمـعـوـاـ مـاـ اـسـتـجـابـوـاـ لـكـمـ وـيـوـمـ الـقـيـامـةـ يـكـفـرـوـنـ بـشـرـكـمـ وـلـاـ يـنـبـئـكـ مـثـلـ خـبـيرـ " وـذـكـرـ آـيـاتـ فـيـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ .

ثـمـ قـوـلـهـ: فـقـوـلـهـ فـيـ الـآـيـاتـ كـلـهاـ مـنـ دـوـنـهـ أـيـ مـنـ غـيـرـهـ . فـإـنـ هـامـ يـدـخـلـ فـيـهـ مـنـ اـعـتـقـدـهـ ، وـمـنـ وـلـيـ وـشـيـطـانـ تـسـتـمـدـهـ ، فـإـنـ مـنـ لـمـ يـقـدـرـ عـلـىـ نـصـرـ نـفـسـهـ كـيـفـ يـمـدـ غـيـرـهـ؟ إـلـىـ أـنـ قـالـ: إـنـ هـذـاـ لـقـولـ وـخـيـمـ ، وـشـرـكـ عـظـيمـ ، إـلـىـ أـنـ قـالـ: وـأـمـاـ القـوـلـ بـالـتـصـرـفـ بـعـدـ الـمـاتـ فـهـوـ أـشـنـعـ وـأـبـدـعـ مـنـ القـوـلـ بـالـتـصـرـفـ فـيـ الـحـيـاةـ . قـالـ جـلـ ذـكـرـهـ: ' 29 : 30 ' إـنـكـ مـيـتـ وـإـنـهـمـ مـيـتـونـ ' 39 : 42 ' اللـهـ يـتـوـفـيـ الـأـنـفـسـ حـيـنـ مـوـتـهـاـ وـالـتـيـ لـمـ تـمـتـ فـيـ مـنـامـهـاـ فـيـمـسـكـ التـيـ قـضـىـ عـلـيـهـاـ الـمـوـتـ وـيـرـسـلـ الـأـخـرـىـ إـلـىـ أـجـلـ مـسـمـىـ ' 3 : 185 وـ 21 : 29 وـ 34 : 57 ' كـلـ نـفـسـ ذـانـقـةـ الـمـوـتـ ' 74 : 38 ' كـلـ نـفـسـ بـمـاـ كـسـبـتـ رـهـيـنـةـ " وـفـيـ الـحـدـيـثـ: " إـذـاـ مـاتـ اـبـنـ آـدـمـ انـقـطـعـ عـمـلـهـ إـلـاـ مـنـ ثـلـاثـ " الـحـدـيـثـ فـجـمـيـعـ ذـلـكـ وـمـاـ هـوـ نـحـوـهـ دـالـ عـلـىـ اـنـقـطـاعـ الـحـسـ وـالـحـرـكـةـ مـنـ الـمـيـتـ ، وـأـنـ أـرـوـاحـمـ مـمـسـكـةـ وـأـنـ أـعـمـالـهـمـ مـنـقـطـعـةـ عـنـ زـيـادـةـ وـنـقـصـانـ ، فـدـلـ ذـلـكـ عـلـىـ أـنـهـ لـيـسـ لـلـمـيـتـ تـصـرـفـ فـيـ ذـاـتـهـ فـضـلـاـ عـنـ غـيـرـهـ

. فإذا عجز عن حركة نفسه . فكيف يتصرف في غيره ؟ فللله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون : إن الأرواح مطلقة متصرفه ² : 140 ' " قل أأنتم أعلم أم الله ؟ " .
قال : وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات ، فهو من المغالطة ، لأن الكراهة شيء من عند الله يكره به أولياءه ، لا قصد لهم فيه ولا تحدي ، ولا قدرة ولا علم ، كما في قصة مريم بنت عمران ، وأبي سعيد بن حضير ، وأبي مسلم الخولاني .

قال : وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائـد ، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمه قوله جل ذكره :
¹ 27 : 62 ' " أمن يجيب المضرر إذا دعا ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله ؟ " ¹
6 : 63 ، 64 ' " قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعوا وخفية لئن أنجانا من هذه لن تكون من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون " وذكر آيات في هذا المعنى ، ثم قال : فإنه جل ذكره قرر أنه الكافـف للضر لا غيره ، وأنه المنفرد بإجابة المضطـرين ، وأنه المستـغاث لـذلك كـله ، وأنه القـادر على دفع الـضر ، القـادر على إيصال الـخـير . فهو المنـفرد بذلك ، فإذا تعـين هو جـل ذـكرـه خـرج غـيرـه من مـلك وـنبي وـولي .

قال : والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسـية في قـتـال ، أو إـدراك عـدو أو سـبع أو نـحوـه ، كـقولـهم : يا لـزـيد ، يا لـلـمـسـلـمـين ، بـحسب الأـفـعـال الـظـاهـرـة .

وأـما الإـسـتـغـاثـة بـالـقـوـة وـالـتـأـثـير أوـ فيـ الـأـمـورـ الـمـعـنـوـيـةـ مـنـ الشـدـائـدـ ،ـ كـالـمـرـضـ وـخـوفـ الغـرقـ وـالـضـيقـ وـالـفـقـرـ وـطـلـبـ الرـزـقـ وـنـحـوـهـ فـمـنـ خـصـائـصـ اللهـ لـاـ يـطـلـبـ فـيـهـ غـيرـهـ .

قال : وأـما كـوـنـهـمـ مـعـتـقـدـيـنـ التـأـثـيرـ مـنـهـمـ فـيـ قـضـاءـ حاجـاتـهـمـ كـمـاـ تـفـعـلـهـ جـاهـلـيـةـ الـعـرـبـ وـالـصـوـفـيـةـ وـالـجـهـاـلـ .ـ وـيـنـادـونـهـمـ وـيـسـتـنـجـدـونـ بـهـمـ .ـ فـهـذـاـ مـنـ الـمـنـكـراتـ .ـ فـمـنـ اـعـتـقـدـ أـنـ لـغـيرـ اللهـ مـنـ نـبـيـ أوـ وـليـ أوـ رـوحـ أوـ غـيرـ ذـلـكـ فـيـ كـشـفـ كـرـبـةـ وـغـيرـهـ عـلـىـ وـجـهـ إـمـادـهـ مـنـهـ :ـ أـشـرـكـ مـعـ اللهـ ،ـ إـذـ لـاـ قـادـرـ عـلـىـ الدـفـعـ غـيرـهـ وـلـاـ خـيرـ إـلـاـ خـيرـهـ .

قال : وأـما ماـ قـالـواـ إـنـ مـنـهـمـ أـبـدـالـاـ وـنـقـبـاءـ وـأـوتـادـاـ وـنـجـباءـ وـسـبـعـاءـ وـسـبـعـةـ وـأـرـبـعـاءـ وـالـقطـبـ هـوـ الـغـوـثـ لـلـنـاسـ .ـ فـهـذـاـ مـنـ مـوـضـوعـاتـ إـفـكـهـمـ .ـ كـمـاـ ذـكـرـهـ الـقـاضـيـ الـمـحـدـثـ فـيـ سـرـاجـ الـمـرـدـيـنـ ،ـ وـابـنـ الجـوزـيـ وـابـنـ تـيـمـيـةـ .ـ اـنـتـهـىـ بـاـخـتـصـارـ .

وـالـمـقصـودـ أـنـ أـهـلـ الـعـلـمـ مـاـ زـالـواـ يـنـكـرـونـ هـذـهـ الـأـمـورـ الـشـرـكـيـةـ الـتـيـ عـمـتـ بـهـاـ الـبـلـوـيـ وـاعـتـقـدـهاـ أـهـلـ الـأـهـوـاءـ .ـ فـلـوـ تـتـبـعـنـاـ كـلـامـ الـعـلـمـاءـ الـمـنـكـرـيـنـ لـهـذـهـ الـأـمـورـ الـشـرـكـيـةـ لـطـالـ الـكـتـابـ .ـ وـالـبـصـيرـ الـنـبـيلـ يـدرـكـ

الحق من أول دليل ، ومن قال قوله بلا برهان فقوله ظاهر البطلان ، مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان
المتمسكون بمحكم القرآن ، المتسبّيون لداعي الحق والإيمان . والله المستعان وعليه التكلان .

" ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك " إلخ
قال : قوله تعالى : ' 106 : 10 ' ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت
فإنك إذاً من الظالمين " .

قال ابن عطية : معناه قيل لي ولا تدع فهو عطف على أقم وهذا الأمر والمخاطبة للنبي صلى الله
عليه وسلم . إذا كانت هكذا فأحرى أن يحذر من ذلك غيره . والخطاب خرج مخرج الخصوص وهو
عام للأمة .

قال أبو جعفر ابن جرير في هذه الآية : يقول تعالى ذكره : ولا تدع يا محمد من دون معبودك
وخلقك شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يضرك في دين ولا دنيا ، يعني بذلك الآلة
والأصنام ، يقول لا تعبدوها راجياً نفعها أو خائفاً ضرها فإنها لا تنفع ولا تضر . فإن فعلت ذلك
فدعوتها من دون الله فإنك إذاً من الظالمين يكون من المشركين بالله الظالم لنفسه .

قلت : وهذه الآية لها نظائر كقوله : ' 26 : 213 ' فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من
المuzziين " وقوله : ' 28 : 88 ' ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو " ففي هذه الآيات بيان أن
كل مدعو يكون إلهاً ، والإلهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره . ولهذا قال : " لا إله إلا هو " كما
قال تعالى : ' 22 : 62 ' ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو
العلي الكبير " وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسلاً ، وأنزل به كتبه ، كما قال تعالى : ' 98 :
5 ' وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين " والدين : كل ما يدان الله به من العبادات الظاهرة
والباطنة . وفسره ابن جرير في تفسيره بالدعاء ، وهو فرد من أفراد العبادة ، على عادة السلف في
التفسير ، يفسرون الآية ببعض أفراد معناها ، فمن صرف منها شيئاً لغير أو صنم أو وثن أو غير ذلك
فقد اتخذه معبوداً وجعله شريكاً لله في الإلهية التي لا يستحقها إلا هو ، كما قال تعالى : ' 23 :
117 ' ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون "
فتبيّن بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال .

وقوله : ' 10 : 107 ' وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يرددك بخير فلا راد
لفضلـه " فإنه المنفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، دون كل ما سواه . فيلزم من ذلك

أن يكون هو المدعو وحده ، العبود وحده ، فإن العبادة لا تصلح إلا لملك الضر والنفع . ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره تعالى ، فهو المستحق للعبادة وحده ، دون من لا يضر ولا ينفع .

وقوله تعالى : ' 39 : 38 ' " قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادي الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمته هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكلا على التوكلون " وقال : ' 35 : 2 ' ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم " فهذا ما أخبر به الله تعالى في كتابه من تفرد بالإلهية والربوبية ، ونصب الأدلة على ذلك . فاعتقد عباد القبور والمشاهد نقىض ما أخبر به الله تعالى ، واتخذوهم شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكاره ، بسؤالهم والالتجاء بالرغبة والرهبة والتضرع ، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى ، واتخذوهم شركاء لله في ربوبيته وإلهيته . وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين : " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفي " " هؤلاء شفاعة عند الله " فإن أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله . وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك ، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك * تملكه وما ملك * .

وأما هؤلاء المشركون فاعتقدوا في أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك . فجعلوا لهم نصيباً من التصرف والتدبير ، وجعلوهم معاذًا لهم وملاذاً في الرغبات والرهبات " سبحان الله عما يشركون " .

وقوله : " وهو الغفور الرحيم " أي من تاب إليه .

قال : وقوله تعالى : ' 29 : 17 ' " فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون " يأمر تعالى عباده بابتقاء الرزق منه وحده دون ما سواه من لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً . فتقديم الظرف يفيد الاختصاص . وقوله : واعبدوه من عطف العام على الخاص ، فإن ابتقاء الرزق عنده من العبادة التي أمر الله بها .

قال العمام ابن كثير رحمه الله تعالى : فابتغوا أي فاطلبو عند الله الرزق أي لا عند غيره . لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك واعبدوه أي أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له واشكروا له أي على ما أنعم عليكم إليه ترجعون أي يوم القيمة فيجازى كل عامل بعمله .

" إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون " إلخ

" ومن أضل من يدعوا من دون الله " إلخ

قال : : قوله ' 46 : 5 ، 6 ' ومن أضل من يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين " نفي سبحانه أن يكون أحد أضل من يدعو غيره . وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيمة . والآية تعم على كل من يدعى من دون الله ، كما قال تعالى : ' 17 : 56 ' قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الشر عنكم ولا تحويلًا " وفي هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب وأنه غافل عن داعيه " وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين " فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله .

قال أبو جعفر بن جرير في قوله : " وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء " يقول تعالى ذكره : وإذا جمع الناس ليوم القيمة في موقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء ، لأنهم يتبرأون منهم " وكانوا بعبادتهم كافرين " يقول تعالى ذكره : وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيمة : ما أمرناهم ولا شعرنا بعبادتها إيانا . تبرأنا منهم يا ربنا . كما قال تعالى : ' 25 : 17 ، 18 ' ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أنتم أضللتם عبادي هؤلاء ألم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا " .

قال ابن جرير : " ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله " من الملائكة والإنس والجن وساق بسنده عن مجاهد قال : عيسى وعزيز الملائكة .

ثم قال : يقول تعالى ذكره قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى : تنزيهًا لك يا ربنا وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون " ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء " نواليهم " أنت ولينا من دونهم " انتهى .

قلت : وأكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء : في السؤال والطلب ، كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم : الصلاة لغة الدعاء ، وقد قال تعالى : ' 35 : 13 ، 14 ' والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " الآيتين وقال : ' 63 : 12 ' قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية " وقال : ' 10 : 41 ' وإذا مس الإنسان الشر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً " وقال : ' 51 : 41 ' وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض " وقال : ' 41 : 49 ' لا يسام الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ " الآية . وقال : ' 8 : 9 ' إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم " الآية .

وفي حديث أنس مرفوعاً : " الدعاء مخ العبادة " وفي الحديث الصحيح : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة " وفي آخر : " من يسأل الله يغضب عليه " وحديث : " ليس شيء أكرم على الله من الدعاء " رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه . قوله : " الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض " رواه الحاكم وصححه . قوله : " سلوا الله كل شيء حتى الشسع إذا انقطع " الحديث . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أفضل العبادة الدعاء وقرأ : ' 40 : 60 ' وقال ربكم ادعوني أستجب لكم " الآية . رواه ابن المنذر والحاكم وصححه . وحديث : " اللهم إني أسألك بأنك لا إله إلا أنت أنت الحمد لا إله إلا أنت المنان..." الحديث وحديث : " اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " وأمثال هذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ، في الدعاء الذي هو السؤال والطلب ، فمن جهد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفاً وخلفاً .

وأما ما تقدم من كلام شيخ الإسلام ، وتبعه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان : دعاء مسألة ودعاة عبادة . وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للأخر . فذلك باعتبار كون الذاكر والتالى والمصلى والمتقرب بالنسك وغيره طالباً في المعنى . فيدخل في مسمى الدعاء بهذا الاعتبار ، وقد شرح الله تعالى في الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به ، كما في الفاتحة والسجدتين وفي التشهد ، وذلك عبادة كالركوع والسجود . فتدبر هذا المقام يتبيّن لك جهل الجاهلين بالتوحيد .

ومما يتبيّن هذا المقام ويزيد إيضاحاً . قوله العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ' 17 : 110 ' " قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى " وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة . قالوا : كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ويقول مرة يا الله ومرة يا ربمن فظن المشركون أنه يدعو إلى هرين فأنزل الله هذه الآية . ذكر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقيل : إن هذا الدعاء هنا بمعنى التسمية ، والمعنى : أي سميت وهو به من أسماء الله تعالى ، إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى . وهذا من لوازם المعنى في الآية . وليس هو عين المراد . بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن . وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء .

ثم قال : إذا عرف هذا فقوله : " ادعوا ربكم تضرعاً وخنية " يتناول نوعي الدعاء لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، ولهذا أمر بإخفاذه . قال الحسن : بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعيفاً . ولقد كان المسلمين يجتهدون في الدعاء ولم يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم

وبيـن ربـهم . وقوله تعالى : ' 2 : 186 ' " إـذا سـألك عـبادي عـني فإـني قـرـيب أـجيـب دـعـوة الدـاعـ
إـذا دـعـان " يـتناول نـوعـي الدـعـاء ، وـبـكـل مـنـهـما فـسـرـتـ الآـيـةـ قـيلـ : أـعـطـيهـ إـذا سـأـلـنيـ ، وـقـيلـ أـثـيـبـ إـذا
عـبـدـنـيـ ، وـلـيـسـ هـذـاـ مـنـ اـسـتـعـمـالـ لـلـفـظـ فـيـ حـقـيقـتـهـ وـمـجـازـهـ ، بـلـ هـذـاـ اـسـتـعـمـالـ فـيـ حـقـيقـتـهـ الـواـحـدةـ
الـمـتـضـمـنـةـ لـلـأـمـرـيـنـ جـمـعـيـاـ . وـهـذـاـ يـأـتـيـ فـيـ مـسـأـلـةـ الصـلـاـةـ وـإـنـهاـ نـقـلـ عـنـ مـسـعاـهـاـ فـيـ الـغـلـةـ وـصـارـتـ حـقـيقـةـ
شـرـعـيـةـ ، وـاسـتـعـمـلـتـ فـيـ هـذـهـ عـبـادـةـ مـجـازـاـ لـلـعـلـاـقـةـ بـيـنـهـمـاـ وـبـيـنـ الـمـسـمـىـ الـلـغـوـيـ وـهـيـ باـقـيـةـ عـلـىـ الـوـضـعـ
الـلـغـوـيـ ، وـضـمـ إـلـيـهـ أـرـكـانـ وـشـرـائـطـ . فـعـلـىـ ماـ قـرـنـاهـ لـاـ حـاجـةـ إـلـىـ شـئـ مـنـ ذـلـكـ ، فـإـنـ الـمـصـلـىـ مـنـ أـوـلـ
صـلـاتـهـ إـلـىـ آـخـرـهـ لـاـ يـنـفـكـ عـنـ دـعـاءـ : إـمـاـ عـبـادـةـ وـثـنـاءـ ، أـوـ دـعـاءـ طـلـبـ وـمـسـأـلـةـ ، وـهـوـ فـيـ الـحـالـتـيـنـ دـاعـ .
اـهـ . مـلـخـصـاـ مـنـ الـبـدـاعـ .

" أـمـنـ يـجـيـبـ المـضـطـرـ إـذـاـ دـعـاهـ "

قالـ : وـقـولـهـ ' 27 : 62 ' " أـمـنـ يـجـيـبـ المـضـطـرـ إـذـاـ دـعـاهـ وـيـكـشـفـ السـوـءـ وـيـجـعـلـكـمـ خـلـفـاءـ الـأـرـضـ
إـلـهـ مـعـ الـلـهـ قـلـيـلاـ مـاـ تـذـكـرـونـ " بـيـنـ تـعـالـيـ أـنـ الـمـشـرـكـيـنـ مـنـ الـعـرـبـ وـنـحـوـهـمـ قـدـ عـلـمـوـاـ أـنـهـ لـاـ يـجـيـبـ
المـضـطـرـ وـيـكـشـفـ السـوـءـ إـلـىـ الـلـهـ وـحـدـهـ فـذـكـرـ ذـلـكـ سـبـحـانـهـ مـحـتـجـاـ عـلـيـهـمـ فـيـ اـتـخـاذـهـمـ الشـفـعـاءـ مـنـ دـوـنـهـ ،
وـلـهـذـاـ قـالـ " إـلـهـ مـعـ الـلـهـ ؟ " يـعـنـىـ يـفـعـلـ ذـلـكـ . فـإـذـاـ كـانـتـ آـهـتـهـمـ لـاـ تـجـيـبـهـمـ فـيـ حـالـ الـاضـطـرـارـ فـلـاـ
يـصـلـحـ أـنـ يـجـعـلـوـهـاـ شـرـكـاءـ لـلـهـ الـذـيـ يـجـيـبـ المـضـطـرـ إـذـاـ دـعـاهـ وـيـكـشـفـ السـوـءـ وـحـدـهـ . وـهـذـاـ أـصـحـ مـاـ فـسـرـتـ
بـهـ آـيـةـ كـسـابـقـتـهـاـ مـنـ قـولـهـ " أـمـنـ خـلـقـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ وـأـنـزـلـ لـكـمـ مـنـ السـمـاءـ مـاءـ فـأـنـبـتـنـاـ بـهـ حـدـائـنـاـ
ذـاتـ بـهـجـةـ مـاـ كـانـ لـكـمـ أـنـ تـنـبـتـوـ شـجـرـهـاـ إـلـهـ مـعـ الـلـهـ بـلـ هـمـ قـوـمـ يـعـدـلـوـنـ * أـمـنـ جـعـلـ الـأـرـضـ قـرـارـاـ
وـجـعـلـ خـلـالـهـاـ أـنـهـارـاـ وـجـعـلـ لـهـ رـوـاـسـيـ وـجـعـلـ بـيـنـ الـبـرـ وـالـبـحـرـ وـمـنـ يـرـسـلـ الـرـيـاحـ بـشـرـاـ بـيـنـ يـدـيـ رـحـمـتـهـ إـلـهـ
وـلـاـ حـقـتهاـ إـلـىـ قـولـهـ : " أـمـنـ يـهـدـيـكـمـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـبـرـ وـالـبـحـرـ وـمـنـ يـرـسـلـ الـرـيـاحـ بـشـرـاـ بـيـنـ يـدـيـ رـحـمـتـهـ إـلـهـ
مـعـ الـلـهـ تـعـالـيـ الـلـهـ عـمـاـ يـشـرـكـونـ * أـمـنـ يـبـدـأـ الـخـلـقـ ثـمـ يـعـيـدـهـ وـمـنـ يـرـزـقـكـمـ مـنـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ إـلـهـ مـعـ الـلـهـ
قـلـ هـاتـواـ بـرـهـانـكـمـ إـنـ كـنـتـمـ صـادـقـيـنـ ."

فتـأـمـلـ هـذـهـ آـيـاتـ يـتـبـيـنـ لـكـ أـنـ الـلـهـ تـعـالـيـ اـحـتـجـ عـلـىـ الـمـشـرـكـيـنـ بـمـاـ أـفـرـواـ بـهـ عـلـىـ مـاـ جـحـدوـ : مـنـ
قـصـرـ الـعـبـادـةـ جـمـعـيـهـاـ عـلـيـهـ ، كـمـاـ فـيـ فـاتـحةـ الـكـتـابـ : " إـيـاـكـ نـعـبـدـ وـإـيـاـكـ نـسـتـعـنـ " .

قالـ أـبـوـ جـعـفرـ بـنـ جـرـيرـ : قـولـهـ : " أـمـنـ يـجـيـبـ المـضـطـرـ إـذـاـ دـعـاهـ وـيـكـشـفـ السـوـءـ " - إـلـىـ قـولـهـ -
" قـلـيـلاـ مـاـ تـذـكـرـونـ " يـقـولـ تـعـالـيـ ذـكـرـهـ : أـمـ مـاـ تـشـرـكـونـ بـالـلـهـ خـيـرـ ، أـمـ الـذـيـ يـجـيـبـ المـضـطـرـ إـذـاـ دـعـاهـ
وـيـكـشـفـ السـوـءـ النـازـلـ بـهـ عـنـهـ ؟ وـقـولـهـ : " وـيـجـعـلـكـمـ خـلـفـاءـ الـأـرـضـ " يـقـولـ : يـسـتـخـلـفـ بـعـدـ أـمـوـاتـكـمـ فـيـ

الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم ، قوله : " إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ " إِلَهٌ سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم ؟ قوله : " قَلِيلًا مَا تذكرون " يقول تذكراً قليلاً من عظمة الله وأيادييه عندكم تذكرون ، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً . فلذلك أشركوا بالله وغيره في عبادته . ا هـ .

قوله صلى الله عليه وسلم أنه لا يستغاث بي قوله : وروى الطبراني " أنه كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين . فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله " .

الطبراني : هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أبيه اللخمي الطبراني ، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها . روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الديري وخلق كثير . مات سنة ستين وثلاثمائة . روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

قوله : أنه كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين لم أقف على اسم هذا المنافق .

قللت : هو عبد الله بن أبي كما صرحت به ابن أبي حاتم في روايته .

قوله : فقال بعضهم أي الصحابة رضي الله عنهم ، هو أبو بكر رضي الله عنه .

قوله : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق لأنه صلى الله عليه وسلم يقدر على كف أذاه .

قوله إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله فيه النص على أنه لا يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا بمن دونه . كره صلى الله عليه وسلم أن يستعمل هذا اللفظ في حقه ، وإن كان مما يقدر عليه في حياته ، حماية لجناب التوحيد ، وسدًا لذرائع الشرك وأدبًا وتواضعًا لربه ، وتحذيرًا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال . فإذا كان فيما يقدر عليه صلى الله عليه وسلم في حياته ، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته ويطلب منه أمورًا لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء كالبوصيري والبرعي وغيرهم ، من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء الذي له الخلق والأمر وحده ، وله الملك وحده ، لا إله غيره ولا رب سواه . قال تعالى : (7 : 187) " قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله " في مواضع من القرآن (72 : 21) " قل إني لا أملك

لَكُمْ ضرًّا وَلَا رُشْدًا ” فَأَعْرَضُ هُؤُلَاءِ عَنِ الْقُرْآنِ وَاعْتَقَدوْ نَقْيَضَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ ، وَتَبَعُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ الضَّلَالِ الْخَلْقِ الْكَثِيرِ وَالْجَمِ الغَفِيرِ . فَاعْتَقَدوْ الشَّرْكَ بِاللَّهِ دِينًا ، وَالْهَدِيَ ضَلَالًا ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . فَمَا أَعْظَمُهَا مِنْ مَصِيبَةٍ عَمِتْ بِهَا الْبَلْوَى ، فَعَانِدُوا أَهْلَ التَّوْحِيدِ وَبَدَعُوا أَهْلَ التَّجْرِيدِ ، فَاللَّهُ الْمُسْتَعْنَى .

باب ” أَيْشِرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ ”

قوله : باب قول الله تعالى

‘ 7 : 119 ، 120 ’ أَيْشِرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ * وَلَا يَسْتَطِعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ” .

قوله ” أَيْشِرُكُونَ ” أَيْ فِي الْعِبَادَةِ . قَالَ الْمَفْسُوْنُ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَوْبِيْخٌ وَتَعْنِيْفٌ لِلْمُشْرِكِيْنَ فِي
عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُوَ مُخْلُوقٌ ، وَالْمُخْلُوقُ لَا يَكُونُ شَرِيكًا لِلخَالِقِ فِي الْعِبَادَةِ الَّتِي
خَلَقَهُمْ لَهَا ، وَبَيْنَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ، فَكَيْفَ يَشْرُكُونَ بِهِ مَنْ لَا
يَسْتَطِعُ نَصْرَ عَابِدِيهِ وَلَا نَصْرَ نَفْسِهِ ؟ وَهَذَا بَرْهَانٌ ظَاهِرٌ عَلَى بَطْلَانِ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
وَهَذَا وَصْفٌ كُلِّ مُخْلُوقٍ ، حَتَّى الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحِيْنَ . وَأَشْرَفَ الْخَلْقَ مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ يَسْتَنْصِرُ رَبِّهِ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ وَيَقُولُ ” اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَنَصِيرِي ، بِكَ أَحْوَلُ وَبِكَ أَصْوَلُ
، وَبِكَ أَقْاتَلُ ” وَهَذَا كَوْلُهُ ‘ 25 : 3 ’ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا ” وَقَوْلُهُ ‘ 7 : 188 ’ قُلْ لَا أَمْلَكُ
لِنفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَكَرَتَتْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا
إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يَؤْمِنُونَ ” وَقَوْلُهُ ‘ 21 - 23 ’ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلَكُ لَكُمْ ضَرًا وَلَا رُشْدًا * قُلْ
إِنِّي لَنْ يُجِيرنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا * إِلَّا بِلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ ” .

فَكَفَى بِهَذِهِ الْآيَاتِ بِرَهَانًا عَلَى بَطْلَانِ دُعَوَةِ غَيْرِ اللَّهِ كَائِنًا مِنْ كَانَ . إِنْ كَانَ نَبِيًّا أَوْ صَالِحًا فَقَدْ
شَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، وَالرَّضَاءُ بِهِ رِبًّا وَمَعْبُودًا ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ الْعَابِدُ مَعْبُودًا
مَعَ تَوْجِيهِ الْخَطَابِ إِلَيْهِ بِالنَّهِيِّ عَنِ هَذِهِ الشَّرْكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ‘ 28 : 88 ’ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا
آخِرٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ لِهِ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ” وَقَالَ ‘ 40 : 12 ’ إِنَّ الْحُكْمَ
إِلَّا لِلَّهِ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ لِهِ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ” فَقَدْ أَمْرَ عَبَادَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَغَيْرِهِمْ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ
وَحْدَهُ ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهَذَا هُوَ دِينُهُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ ، وَرَضِيَهُ

لعباده ، وهو دين الإسلام ، كما روى البخاري عن أبي هريرة في سؤال جبريل عليه السلام قال " يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتوتري الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان " الحديث .

" والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير "

وقوله تعالى : ' 35 : 13 ، 14 ' " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهם لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا يبنئك مثل خبير " يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو ، وهي الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على استجابته ، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته فكيف إذا عدلت بالكلية ؟ فنفي عنهم الملك بقوله " ما يملكون من قطمير " قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، وعطاء والحسن وقتادة : القطمير : اللفافة التي تكون على نواة التمر كما قال تعالى : ' 16 : 73 ' ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون " وقال ' 34 : 22 ، 23 ' قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له " ونفي عنهم سمع الدعاء بقوله " إن تدعوهם لا يسمعوا " لأنه ما بين ميت وغائب عنهم ، مشتغل بما خلق له ، مسخر بما أمر به كالملاك ، ثم قال " ولو سمعوا ما استجابوا لكم " لأن ذلك ليس لهم ، فإن الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده في دعاء أحد منهم ، لا استقلالاً ولا واسطة ، كما تقدم بعض أدلة ذلك . وقوله " ويوم القيمة يكفرون بشرككم فتبين بهذا أن دعوة غير الله شرك . وقال تعالى : ' 19 : 81 ، 82 ' واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا " وقوله تعالى : " ويوم القيمة يكفرون بشرككم " قال ابن كثير : يتبرأون منكم ، كما قال تعالى : ' 46 : 5 ، 6 ' ومن أضل من يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين " .

قال : وقوله " ولا يبنئك مثل خبير " أي ولا يخبرك بعواقب الأمور وما لها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى . فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

قلت : والمركون لم يسلمو للعلم الخبير ما أخبر به عن معبداتهم فقالوا : تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها ، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبد يعادى عابده يوم القيمة ويتبرأ منه ، كما قال تعالى : ' 10 - 28 - 30 ' ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيانا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون " أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال مجاهد " إن كنا عن عبادتكم لغافلين " قال يقول ذلك كل شيء كان يعبد من دون الله .

فالكيس يستقبل هذه الآيات التي هي الحجة والنور والبرهان بالإيمان والقبول والعمل ، فيجرد أعماله لله وحده دون كل مساواه من لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً ، فضلاً عن غيره .

قوله : في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال " شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت رباعيته . فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ فنزلت الآية ' 3 : 128 ' ليس لك من الأمر شيء"

قوله : في الصحيح أي الصحيحين . علقه البخاري . قال وقال حميد ثابت عن أنس . ووصله أحمد والترمذى والنسائي عن حميد عن أنس . ووصله مسلم عن ثابت عن أنس . وقال ابن إسحاق في المغازي . حدثنا حميد الطويل عن أنس قال كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وشج وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهם إلى ربهم ؟ فأنزل الله الآية .

قوله : شج النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو السعادات : الشج في الرأس خاصة في الأصل ، وهو أن يضره بشئ فيجرحه فيه ويشقه ، ثم استعمل في غيره من الأعضاء ، وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم السفلى وجراحته العليا وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه ، وأن عبد الله بن قمئة جرحة في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المغرف في وجنته وأن مالك ابن سنان مص الدم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وازدرده . فقال له : لن تمسك النار .

قال القرطبي : والرباعية بفتح الراء وتحقيق الياء - وهي كل سن بعد ثنائية .

قال النووي رحمه الله : وللإنسان أربع رباعيات .

قال الحافظ : والمراد أنها كسرت ، فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها .

قال النووي : وفي هذا وقوع الأقسام والإبتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب . ولتعرف الأمم ما أصابهم ويتأتسوا بهم .

قال القاضي : وليرعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون . ولا يفتن بما ظهر على أيديهم من العجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم انتهى .

قلت : يعني من الغلو والعبادة .

قوله : يوم أحد هو شرقي المدينة . قال صلى الله عليه وسلم " أحد جبل يحبنا ونحبه " وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة . فأضيفت إليه .

قوله : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم زاد مسلم مسلم كسرعوا رباعيته وأدموا وجهه .

" ليس لك من الأمر شيء "

قوله : فأنزل الله : " ليس لك من الأمر شيء " قال ابن عطية : لأن النبي صلى الله عليه وسلم لحقه في تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش ، فقيل له بسبب ذلك " ليس لك من الأمر شيء " أي عواقب الأمور بيد الله ، فامض أنت لشأنك ، ودم على الدعاء لربك .

وقال ابن إسحاق : " ليس لك من الأمر شيء " في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم .

قوله : وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : - اللهم العن فلاناً وفلاناً بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد . فأنزل الله " ليس لك من الأمر شيء " وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام فنزلت " ليس لك من الأمر شيء " .

قوله : وفيه أي في صحيح البخاري . رواه النسائي .

قوله : عن ابن عمر هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، صحابي جليل ، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاح ، مات سنة ثلاثة وسبعين في آخرها أو في أول التي تليها .

قوله : أنه سمع رسول الله هذا القنوت على هؤلاء بعد ما شج وكسرت رباعيته يوم أحد .

قوله : اللهم العن فلاناً وفلاناً قال أبو السعادات : أصل اللعن والطرد والإبعاد من الله . ومن الخلق السب والدعاء وتقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

قوله : فلاناً وفلاناً يعني صفوان بن أمية وسهييل بن عمرو والحارث بن هشام ، كما بينه في الرواية الآتية .

وفيه : جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة ، وأن ذلك لا يضر في الصلاة .
 قوله : بعد ما يقول : سمع الله من حمده قال أبو السعادات : أي أجاب حمده وتقبيله . وقال السهيلي : مفعول سمع مذوق ، لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع ، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد ، وهو الاستجابة لمن حمده .

وقال ابن القيم رحمه الله ما معناه : سمع الله من حمده باللام المتضمنة معنى استجابة له . ولا حذف وإنما هو مضمون .

قوله : ربنا لك الحمد في بعض روایات البخاري بإسقاط الواو . قال ابن دقيق العيد : لأن إثباتها دال على معنى زائد ، لأنه يكون التقدير : ربنا استجب ولك الحمد . فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر .

قال شيخ الإسلام : والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محسن المحمود مع المحبة له . كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له .

وكذا قال ابن القيم : وفرق بينه وبين المدح بأن الأخبار عن محسن الغير إما أن يكون إخبار مجرداً عن حب وإرادة ، أو يكون مقويناً بحبه وإرادته . فإن كان الأول فهو المدح ، وإن كان الثاني فهو الحمد . فالحمد إخبار عن محسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه . ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء بخلاف المدح ، فإنه خبر مجرد . فالسائل إذا قال : الحمد لله أو قال ربنا ولك الحمد تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة ، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى ، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبعي إلا من هذا شأنه ، وهو الحميد المجيد .

وفيه : التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد ، وهو قول الشافعي وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة ، وقالا : يقتصر على سمع الله من حمده .

قوله : وفي رواية يدعوا على صفوان بن أمية وسهييل بن عمرو والحارث بن هشام .
وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد ، هم وأبو سفيان بن حرب ، فما استجيب له صلى الله عليه وسلم فيهم بل أنزل الله " ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم " فتاب عليهم

فأسلموا وحسن إسلامهم . وفي كله معنى شهادة أن لا إله إلا الله الذي له الأمر كله ، يهدى من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعلمه وحكمته .

وفي هذا من الحجج والبراهين ما يبين بطلان ما يعتقد عباد القبور في الأولياء والصالحين . بل في الواحية من أنهم ينتفعون من دعاهم ، ويعنون من لاذ بحماتهم . فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب . وذلك عده سبحانه ، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه ، وبه الحول والقوة .

قوله وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُنزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ' 26 : 214 ' " وأنذر عشيرتك الأقربين " قال " يا معاشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً . يا صفية عمدة رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً " .

قوله : وفيه أي وفي صحيح البخاري .

قوله : عن أبي هريرة اختلف في اسمه . وصحيح النووي أن اسمه عبد الرحمن ابن صخر ، كما رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة قال : كان اسمه في الجاهلية عبد الرحمن وروى الدولابي بإسناده عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سماه عبد الله وهو دوسي من فضلاء الصحابة وحافظهم ، حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر مما حفظه غيره مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

قوله : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح من روایة ابن عباس صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا .

" وأنذر عشيرتك الأقربين "

قوله : حين أُنزِلَ عَلَيْهِ " وأنذر عشيرتك الأقربين " عشيرة الرجل : هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته . لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الديني والدنيوي ، كما قال تعالى : ' 66 : 5 ' يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة " وقد أمره الله تعالى أيضاً بالندارة العامة ، كما قال ' 36 : 6 ' لتنذر قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون " ' 44 : 14) " وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب " .

قوله : يا معاشر قريش المعاشر الجماعة .

قوله : أو كلمة نحوها هو بمنصب كلمة عطف على ما قبله .

قوله : اشتروا أنفسكم أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر به والإنتهاء عما نهى عنه . فإن ذلك هو الذي ينجي من عذاب الله لا الاعتماد على الأنساب والأحساب ، فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب .

قوله : " ما أغني عنكم من الله من شيء " فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين ، ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه ، أو يدفعوا عنه ، فإن ذلك هو الشرك الذي حرمه الله تعالى ، وأقامنبيه صلى الله عليه وسلم بالإنذار عنه ، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله ' 39 : 3 ' والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " ' 18 : 10 ' هؤلاء شفعاًونا عند الله " فأبطل الله ذلك ونزع نفسه عن هذا الشرك ، وسيأتي تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى . وفي صحيح البخاري يا بنـي عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً .

قوله : يا عباس بن عبد المطلب بمنصب بن ويجوز في عباس الرفع النصب . وكذا في قوله يا صفية عمة رسول الله ، ويا فاطمة بنت محمد .

قوله : سليني من مالي ما شئت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح .

وفيه : أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا . وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بتجريد التوحيد ، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به ، فإذا كان لا ينفع بنته ولا عمه ولا قرابته إلا ذلك ، فغيرهم أولى وأحرى . وفي قصة عمه أبي طالب معتبر .

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس الالتجاء إلى الأموات والتوجه إليهم بالرغبات والرهبات ، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعاً ، فضلاً عن غيرهم _ يتبعين لك أنهم ليسوا على شيء ' 7 : 30 ' إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون " أظهر لهم الشيطان الشرك في قلب محبة الصالحين ، وكل صالح يبراً إلى الله من هذا الشرك في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم في الدين ، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين ، لا باتخاذهم أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكاً بالله ، وعبادة لغير الله ، وعداؤه لله ورسوله والصالحين من عباده ، كما قال تعالى : ' 5 : 116 ، 117 ' وإن قال الله يا عيسى ابن مريم

أَنْتَ قَلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَمِي إِلَهِيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سِبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي
بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قَلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلُمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنْكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيْوَبِ * مَا قَلْتَ
لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَكُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دَمْتَ فِيهِمْ فَلَمَا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ
أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ” .

قال العالمة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية بعد كلام سبق : ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما
أمر به وهو محض التوحيد فقال ” ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن عبدوا الله رببي وربكم ” ثم أخبر
أن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم ، وأنه بعد الوفاة لا إطلاع له عليهم ، وأن الله عز وجل المنفرد بعد
الوفاة بالاطلاع عليهم فقال ” وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم
وأنت على كل شيء شهيد ” وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم ا ه .

قلت : ففي هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسle من توحيده الذي هو دينهم الذي
اتفقوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وفارقوا فيه إلا من آمن ، فكيف يقال لمن دان بدينهم ، وأطاعهم
فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده : إنه قد تنقصهم بهذا التوحيد الذي أطاع به ربه ، واتبع
فيه رسle عليهم السلام ، ونزعه به ربه عن الشرك الذي هو هضم للربوبية . وتنقص للإلهية وسوء ظن
برب العالمين ؟ .

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم في الدنيا والآخرة ، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرأوا من كل
مشرك ويکفروا به ، ويبغضوه ويعادوه في ربهم ومعبودهم ' 6 : 109 ' ” قل فللها الحجة البالغة فلو
شاء لهداكم أجمعين ” .

باب قول الله ” حتى إذا فزع عن قلوبهم ”
قوله : باب قول الله تعالى ' 34 : 23 ' ” حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا
الحق وهو العلي الكبير ” .

قوله : ” حتى إذا فزع عن قلوبهم ” أي زال الفزع عنها . قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبد
الرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم .

وقال ابن جرير : قال بعضهم : الذين فزع عن قلوبهم : الملائكة قالوا : وإنما فزع عن قلوبهم من
غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحى وقال ابن عطية : في الكلام حذف ما يدل عليه الظاهر .

كأنه قال : ولا هم شفاء كما تزعمون أنتم ، بل هم عبدة مسلمون لله أبداً ، يعني منقادون ، حتى إذا فزع عن قلوبهم . والمراد الملائكة على ما اختاره ابن جرير وغيره .

قال ابن كثير : وهو الحق الذي لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار .

وقال أبو حيان : تظاهرت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قوله : " حتى إذا فزع عن قلوبهم " إنما هي الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان ، فتفنعت عند ذلك تعظيمًا وهيبة . قال : وبهذا المعنى - من ذكر الملائكة في صدر الآية - تتفسق هذه الآية على الأولى ، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله : " الذين زعمتم " لم تتصل له هذه الآية بما قبلها .

قوله : " قالوا ماذا قال ربكم ؟ " ولم يقولوا ماذا خلق ربنا ؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا : ماذا خلق ؟ ؟ انتهى من شرح سنن ابن ماجة .

ومثله الحديث ماذا قال ربنا يا جبريل وأمثال هذا في الكتاب والسنة كثير .

قوله : " قالوا الحق " أي قال الله الحق . وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا ثم إذا أفاقوا أخذوا يسألون ، فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ فيقولون : قال الحق .

قوله : " وهو العلي الكبير " علو القدر وعلو القيمة وعلو الذات ، فله العلو الكامل من جميع الوجوه ، كما قال عبدالله بن المبارك - لما قيل له : بما نعرف ربنا ؟ قال بأنه على عرشه بائن من خلقه تمسكاً منه بالقرآن لقوله تعالى : ' 20 : 5 ' الرحمن على العرش استوى " ' 25 : 59 ' ثم استوى على العرش الرحمن " في سبعة مواضع من القرآن ' 7 : 53 و 14 : 2 و 32 : 4 و 4 : 57 .

قوله : الكبير أي الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى .

قوله : في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، ينفذهم ذلك ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعده فوقيه . وصفة سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى أن تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل من يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة

، فيقال : أليس قد قال لنا اليوم كذا وكذا : وكذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء

"

قوله : في الصحيح أي صحيح البخاري .

حديث أبي هريرة : إذا قضى الله الأمر في السماء إلخ

قوله : إذا قضى الله الأمر في السماء أي إذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل بما أراد ، كما صرّح به في الحديث الآتي ، وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود " إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصة كجر السلسلة على الصفوان " .

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أوحى الجبار إلى محمد صلى الله عليه وسلم دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي . فما كشف عن قلوبهم سألاً عما قال الله . فقالوا : الحق . علموا أن الله لا يقول إلا حقاً .

قوله : ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله أي لقول الله تعالى . قال الحافظ : خضعاً بفتحتين من الخصوع . وفي رواية بضم أوله وسكون ثانية . وهو مصدر بمعنى خاضعين .

قوله : كأنه سلسلة على صفوان أي كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان وهو الحجر الأملس

قوله : ينفذهم ذلك هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة ذلك أي القول ، والضمير في ينفذهم للملائكة ، أي ينفذ ذلك القول الملائكة أي يخلص ذلك القول ويمضي فيهم حتى يفزعوا منه . وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا وعند أبي داود وغيره مرفوعاً "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصة كجر السلسلة على الصفا فیصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل " الحديث .

قوله : حتى إذا فزع عن قلوبهم تقدم معناه .

قوله : قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق أي قالوا : قال الله الحق ، علموا أن الله لا يقول إلا الحق .

قوله : فيسمعها مسترق السمع أي يسمع الكلمة التي قضاها الله ، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً . وفي صحيح البخاري عن عائشة مرفوعاً : " إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى في السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتتجه إلى الكهان " .

قوله : ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه أي وصف ركوب بعضهم فوق بعض .
وسفيان هو ابن عبيدة أبو محمد الهمالي الكوفي ثم المكي ، ثقة حافظ ، فقيه ، إمام حجة ، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة .

قوله : فحرفها بحاء مهملة وراء مشددة وفاء . قوله : وبدد أي فرق بين أصابعه .
قوله : فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته أي يسمع الفوqاني الكلمة فيلقيها إلى آخر تحته ، ثم يلقيها إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن .

قوله : فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها الشهاب هو النجم الذي يرمي به ، أي ربما أدرك الشهاب المسترق ، وهذا يدل على أن الرمي بالشهاب قبل المبعث . لما روى أحمد وغيره - والسياق له في المسند من طريق معمر - : أنبأنا الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : من الأنصار - قال : فرمى بنجم عظيم ، فاستئنار ، قال : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية ؟ قال : كنا نقول : لعله يولد عظيم أو يموت ، قلت للزهري : أكان يرمي بها في الجاهلية ؟ قال نعم ، ولكن غلظت حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم قال : فإنها لا يرمي بها موت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش ، ثم سبّح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبّح هذه السماء الدنيا . ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، مما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون .
قال عبد الله : قال أبي : قال عبد الرزاق ويخطف الجن ويرمون وفي روایة له لكنهم يزيدون فيه ويقرفون وينقصون .

قوله : فيكذب معها مائة كذبة أي الكاهن أو الساحر .

و كذبة بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة .

قوله : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : وكذا وكذا ؟ هكذا في نسخة بخط المصنف ، وكالذى في صحيح البخاري سواء .

قال المصنف : وفيه قبول النقوص للباطل ، كيف يتعلّقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة ؟ .

وفيه : أن الشئ إذا كان فيه شئ من الحق فلا يدل على أنه حق كله ، فكثيراً ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ليكون أقبل لباطلهم ، قال تعالى : ' 2 : 42 ' " ولا تلبسو الحق بالباطل وتكلموا الحق وأنتم تعلمون " .

وفي هذه الأحاديث وما بعدها وما في معناها : إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته ، وأنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة ، وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفاً وخلفاً . خلافاً للأشاعرة والجمهوية ، ونفاة المعتزلة . فإياك أن تلتفت إلى مازخرفه أهل التعطيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

حديث إذا أراد الله أن يوحى يوحى بالأمر إلخ
قوله : وعن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل . فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرعوا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العلي الكبير . فيقولون لهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل " .

هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده كما ذكره العmad ابن كثير في تفسيره .
النواس بن سمعان ، بكسر السين ، بن خالد الكلابي ، ويقال : الأننصاري صحابي . ويقال : إن أباه صحابي أيضاً .

قوله : إذا أراد الله أن يوحى بالأمر إلى آخره . فيه النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي . وهذا من حجة أهل السنة على النفاة : لم يزل الله متكلماً إذا شاء .

قوله : أخذت السموات منه رجفة السموات مفعول مقدم ، والفاعل رجفة أي أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة ، أي ارتجفت . وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى ، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة . قال إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السموات والأرض والجبال ، وخررت الملائكة لهم سجداً .

قوله : أو قال رعدة شديدة شك من الراوي . هل قال النبي صلى الله عليه وسلم رجفة ، أو قال رعدة . والراء مفتوحة فيهما .

قوله : خوفاً من الله عز وجل وهذا ظاهر في أن السموات تخاف الله ، بما يجعل تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها . وقد أخبر تعالى أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى : ' 17 : 44 ' " تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً " وقال تعالى : ' 19 : 90 ' " تكاد السموات يتقطرون منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً " وقال تعالى : ' 2 : 74 ' " وإن منها لما يهبط من خشية الله " وقد قرر العلامة ابن القيم رحمة الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة ، مستدلاً بهذه الآيات وما في معناها .

وفي البخاري عن ابن مسعود قال كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي حديث أبي ذر " أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ في يده حصيات ، فسمع لهن تسبيح ..." الحديث وفي الصحيح قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل اتخاذ المنبر . ومثل هذا كثير .

قوله : صعقوا وخروا لله سجدة الصعوق هو الغشي ، ومعه السجود .

قوله : فيكون أول من يرفع رأسه جبريل بنصب أول خبر يكون مقدم على اسمها . ويجوز العكس . ومعنى جبريل : عبد الله ، كما روى ابن جرير وغيره عن على ابن الحسين قال : كان اسم جبريل : عبد الله ، واسم ميكائيل عبيد الله ، وإسرافيل عبد الرحمن . وكل شيء رجع إلى إيل فهو معبد لله عز وجل . وفيه فضيلة جبريل عليه السلام . كما قال تعالى : ' 81 : 19 - 21 ' إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين " .

قال ابن كثير رحمة الله تعالى : إن هذا القرآن لتبلیغ رسول كريم . وقال أبو صالح في الآية جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن .

ولأحمد بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم فإذا كان هذا عظم هذه - المخلوقات فخالفها أعظم وأجل وأكبر . فكيف يسوى به غيره في العبادة : دعاء وخوفاً ورجاء وتوكلاً وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره ؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى ، وقد قال تعالى : ' 21 : 26 - 29 ' " بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا من ارتضى لهم من خشيتهم مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين " .

قوله : ثم ينتهي جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض وهذا تمام الحديث .

والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن الملك العظيم الذي تصعق الأملال من كلامه خوفاً منه ومهابة وترجف منه المخلوقات ، الكامل في ذاته وصفاته ، وعلمه وقدرته وملكه وعزه ، وغناه عن جميع خلقه ، وافتقارهم جميعاً إليه ، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته ، لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم ، فكيف يجعل المربوب رباً ، والعبد معبوداً ؟ أين ذهبـت عقول المشركين ؟ سبحان الله عما يشركون .

وقال تعالى : ' 93 ، 94 ' إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً " من أولهم إلى آخرهم تزجـرـهم عن ذلك الشرك وتنهاـمـ عن عبادة ما سوى الله . انتهى من شرح سنن ابن ماجه .

باب الشفاعة

قوله : (باب الشفاعة)

أي بيان ما أثبتـه القرآن منها وما نفـاه . وحقيقة ما دل القرآن على إثباتـه .

قوله : وقول الله عز وجل : ' 6 : 51 ' وأنذر به الذين يخافـونـ أن يـحـشـرـواـ " المخـافـةـ والتحـذـيرـ منهاـ .

قوله : به قال ابن عباس بالقرآن " الذين يخافـونـ أن يـحـشـرـواـ إلى ربـهمـ " وهم المؤمنون وعن الفضـيلـ بنـ عـيـاضـ ليسـ كلـ خـلـقـهـ عـاتـبـ ، إنـماـ عـاتـبـ الـذـيـنـ يـعـقـلـونـ ، فـقـالـ : " وـأـنـذـرـ بهـ الـذـيـنـ يـخـافـونـ أنـ يـحـشـرـواـ إلىـ ربـهـمـ " وـهـمـ المؤـمـنـونـ أـصـحـابـ الـعـقـولـ الـوـاعـيـةـ .

قوله : " ليس لهم من دونه ولـيـ ولاـ شـفـيعـ " قال الزجاج : موضع ليس نصب على الحال ، كأنـهـ قالـ : متـخلـينـ منـ كـلـ ولـيـ وـشـفـيعـ . والـعـامـلـ فـيـهـ يـخـافـونـ .

قوله : لـعـلـهـ يـتـقـونـ أـيـ فـيـعـمـلـونـ فيـ هـذـهـ الدـارـ عـمـلاـ يـنـجـيـهـمـ اللهـ بـهـ مـنـ عـذـابـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ .
قوله : ' 39 : 44 ' قـلـ لـلـهـ الشـفـاعـةـ جـمـيـعـاـ " وـقـبـلـهـاـ " أـمـ اـتـخـذـواـ مـنـ دـوـنـ اللهـ شـفـعـاءـ قـلـ أـوـ لـوـ كـانـواـ لـاـ يـمـلـكـونـ شـيـئـاـ وـلـاـ يـعـقـلـونـ " وـهـذـهـ كـوـلـهـ تـعـالـىـ : ' 10 : 18 ' وـيـعـبـدـونـ مـنـ دـوـنـ اللهـ مـاـ لـاـ يـضـرـهـمـ وـلـاـ يـنـفـعـهـمـ وـيـقـولـونـ هـؤـلـاءـ شـفـعـاءـنـاـ عـنـدـ اللهـ قـلـ أـنـتـبـئـونـ اللهـ بـمـاـ لـاـ يـعـلـمـ فـيـ السـمـوـاتـ وـلـاـ فـيـ الـأـرـضـ

سبحانه وتعالى عما يشركون " فبین تعالیٰ فی هذہ الآیات وأمثالھا أن وقوع الشفاعة علی هذا الوجه منتف ومتّع ، وأن اتخاذهم شفعاء شرك ، يتّزه الرب تعالیٰ عنه . وقد قال تعالیٰ : ' 28 : 46 ' فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانًا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفکھم وما كانوا يفترون " فبین تعالیٰ أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتّالیھم . إن ذلك منهم إفک وافتراء .

وقوله تعالیٰ : " قل لله الشفاعة جميًعاً " أي هو مالکھا ، فليس لمن تطلب منه شئ منها ، وإنما تطلب من يملکھا دون كل من سواه ، لأن ذلك عبادة وتّالیھ لا يصلح إلى الله .

قال البيضاوي : لعله رد لما عسى أن يجيبوا به ، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون .

وقوله تعالیٰ : " له ملك السموات والأرض " تقریر لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه ، لأنھ مالک الملک ، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة ، فإذا كان هو مالکھا بطل أن تطلب من لا يملکھا ' 255 : 2 ' من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " 21 : 28 ' ولا يشفعون إلا من ارتضى " .

قال 'ابن حجرير' : نزلت لما قال الكفار : ما نعبد أوثانا هذه إلى ليقربونا إلى الله زلفى قال الله تعالیٰ : " له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون " .

قال : وقوله ' 255 : 2 ' من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " قد تبین مما تقدم من الآیات أن الشفاعة التي نفاحتها القرآن هي التي تطلب من غير الله . وفي هذه الآیة بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه ، كما قال تعالیٰ : ' 109 : 20 ' يؤمنذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قوله " فبین أنه لا تقع لأحد إلا بشرطين : إذن الرب تعالیٰ للشافع أن يشفع ، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه ، وهو تعالیٰ لا يرضي من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه ، ولقى العبد به ربه مخلصاً غير شاك في ذلك ، كما دل على ذلك الحديث الصحيح . وسيأتي ذلك مقرراً أيضاً في كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

وقوله : ' 53 : 26 ' وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى " قال ابن كثير رحمه الله " وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى " قوله " من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " " ولا تنفع الشفاعة عند إلا من أذن له " فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله ، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ، وأنزل بالنھي عن ذلك جميع كتبه ؟

قال : (وقوله تعالى : 34' : 22 ، 23 ') قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له " .

قول ابن القيم رحمة الله في الشفاعة

قال ابن القيم رحمة الله تعالى في الكلام على هذه الآيات : وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها . فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا من فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريد عابده منه ، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفي الله سبحانه والراتب الأربع نفياً مرتباً ، متتناقلًا من الأعلى إلى الأدنى ، فنفي الملك والشركة والمظاهره والشفاعة التي يطلبها المشرك ، وأثبتت شفاعة لا نصيب فيها لشرك ، وهي الشفاعة بإذنه . فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ، وبيظنونها في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً ، فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن . ولعمر الله ، إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم ، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك .

ثم قال : ومن أنواعه - أي الشرك - طلب الحاجات من الموتى والإستغاثة بهم ، وهذا أصل شرك العالم . فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عن استغاثة به وسألة أن يشفع له إلى الله . وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده . فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه ، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه ، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه ، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه ، وإنما السبب كمال التوحيد ، فجاء هذا الشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعن في حاجته بما يمنع حصولها . وهذه حالة كل مشرك ، فجمعوا بين الشرك بالمعبد وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله إلى التنصاص بالأموات ، وهم قد تنصصوا بالخالق بالشرك ، وأولياء الموحدين بذمهم وعيبيهم ومعاداتهم ، وتنصصوا من أشركوا به غاية التنصاص ، إذا ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم أمرؤهم به ، وأنهم بوالونهم عليه ، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان ، وما أكثر المستجيبين لهم ، وما نجى من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله ، وعادى المشركين في الله ، وتقرب بمقتهم إلى الله ، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده

فجرد حبه لله وخوفه لله ، ورجاءه لله ، وذله لله ، وتوكله على الله ، واستعناته بالله ، والتجاءه إلى الله ، واستغاثته بالله ، وقصده لله ، متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته ، إذا سأله الله ، وإذا استعان استعلن بالله ، وإذا عمل عمل لله . فهو لله وبالله ومع الله . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

وهذا الذي ذكره هذا الإمام في معنى الآية هو حقيقة دين الإسلام ، كما قال تعالى : ' 4 : 125 ' " ومن أحسن ديناً من أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً "

قوله : قال أبو العباس هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني إمام المسلمين رحمه الله .

نفي الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفي أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله . فلم يبق إلى الشفاعة . فبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب ، كما قال تعالى : ' 21 : 28 ' " ولا يشفعون إلا من ارتضى " فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيمة كما نفتها القرآن ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده ، لا يبدأ بالشفاعة أولاً . ثم يقال له : ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واسفع تشفع . وقال له أبو هريرة "من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه " فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون من أشرك بالله ، وحقيقةتها : أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التي نفتها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبتت الشفاعة بإذنه في مواضع ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص انتهى .

من أسعد الناس بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قوله : وقال أبو هريرة إلى آخره . هذا الحديث رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة ورواه أحمد وصححه ابن حبان وفيه " وشفاعتي من قال لا إله إلا الله مخلصاً ، يصدق قلبه لسانه ، ولسانه قلبه " وشاهده في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لكلنبي دعوة مستجابة ، فتجعل كلنبي دعوته ، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتی يوم القيمة . فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً " .

وقد ساق المصنف رحمة الله كلام شيخ الإسلام هنا ، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات ، وهو كاف واف بتحقيق مع الإيجاز . والله أعلم .

وقد عرف الإخلاص بتعريف حسن فقال : الإخلاص محبة الله وحده وإرادة وجهه . ا ه .

وقال ابن القيم رحمة الله في معنى حديث أبي هريرة : تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفاعة وعبادتهم وموالاتهم ، فقلب النبي صلى الله عليه وسلم ما في زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولیاً أو شفيعاً أنه يشفع له وينفعه عند الله ، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة ، ولا يأذن في الشفاعة إلا من رضى قوله وعمله ، كما قال في الفصل الأول ' 255 ' من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " وفي الفصل الثاني ' 21 : 28 ' " ولا يشفعون إلا من ارتضى " وبقى فصل ثالث ، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم . فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ووعاها .

ا ه .

وذكر أيضاً رحمة الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع :

الأول : الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف . وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد .

الثاني : شفاعته لأهل الجنة في دخولها . وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه .

الثالث : شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنبهم ، فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

الرابع : شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذي يدخلون النار بذنبهم . والأحاديث بها متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدعوا من أنكرها ، وصاحبوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلالة .

الخامس : شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم ، وهذه مما لم ينزع فيها أحد . وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخلوا من دون الله ولیاً ولا شفيعاً ، كما قال تعالى : ' 6 : 51 ' وأنذر به الذين يخالفون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولی ولا شفيع " .

السادس : شفاعته في بعض أهل الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه وهذه خاصة بأبي طالب وحده .

باب إنك لا تهدي من أحببت

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 28 : 56 ' " إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين " .

سبب نزول هذه الآية ، موت أبي طالب على ملة عبد المطلب ، كما سيأتي بيان ذلك في حديث الباب .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى لرسوله : إنك يا محمد لا تهدي من أحببت ، أي ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء . وله الحكمة البالغة ، والحججة الدامغة ، كما قال تعالى : ' 2 : 272 ' ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء " وقال تعالى : ' 12 : 103 ' وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين " .

قلت : والمنفي هنا هداية التوفيق والقبول ، فإن أمر ذلك إلى الله ، وهو القادر عليه . وأما الهداية المذكورة في قول الله تعالى: ' 42 : 52 ' وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم " فإنها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبين عن الله والدلائل على دينه وشرعه .

حديث ابن المسيب في وفاة أبي طالب

وقوله : في الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال : " لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل ، فقال له : يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج بها عند الله . فقال له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعاد . فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبي أن يقول لا إله إلا الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك مالم أنه عنك " . فأنزل الله عز وجل ' 9 : 113 ' ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم " وأنزل الله في أبي طالب : " إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء " .

قوله : في الصحيح أَيْ في الصَّحِيحَيْنِ . وابن المُسِيبِ هو سعيد بن المُسِيبِ بن حزن بن أبي وهب بن عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي ، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل. وقال ابن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه . مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين .

وأبو المُسِيبِ صاحبِي ، بقى إلى خلافة عثمان رضي الله عنه ، وكذلك جده حزن ، صحابي استشهد باليمامَة .

قوله : لما حضرت أبا طالب الوفاة أَيْ علاماتها ومقدماتها .

قوله : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون المُسِيبَ حضر مع الإثنين فإنهما من بني مخزوم ، وهو أيضًا مخزومي ، وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً ، فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخرين .

قوله : يا عم منادي مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها ، حذفت الياء هنا ، وبقيت الكسرة دليلاً عليها .

قوله : قل لا إله إلا الله أمره أن يقولها لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفي الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده ، فإن من قالها عن علم وبيقين فقد بريء من الشرك والشركين ودخل في الإسلام . لأنهم يعلمون ما دلت عليه ، وفي ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر . فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبريء منه . ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون والمنافقون الذين يقولونها بأسنتهم وهم يعرفون معناها ، لكن لا يعتقدونها ، لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب ، فهم مع المسلمين بظاهر الأفعال دون الباطن ، وفيها اليهود ، وقد أقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر ، ووادعهم بأن لا يظاهروا عليه عدواً كما هو مذكور في كتب الحديث والسير .

قوله : كلمة قال القرطبي : بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ ممحوظ .

قوله : أحاج لك بها عند الله هو بتشديد الجيم من المحاجة ، والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها في تلك الحال . وفيه دليل على أن الأفعال بالخواتيم ، لأنه لو قالها في تلك الحال معتقداً ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات لنفعته .

قوله : فقال له : أترغب عن ملة عبد المطلب ذكراه الحجة الملعونة التي يحتاج بها المشركون على المرسلين ، كقول فرعون لموسى : ' 20 : 51 ' " فما بال القرون الأولى " وقوله تعالى : ' 43 : 23 ' " وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال متزلفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون " .

قوله : فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم فأعادا فيه معرفتهما لمعنى لا إله إلا الله لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبريء من ملة عبد المطلب . فإن ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته . وأما الربوبية فقد أقرها بها كما تقدم . وقد قال عبد المطلب لأبرهة : أنا رب الإبل ، والبيت له رب يمنعه منه وهذه المقالة منهما عند قول النبي صلى الله عليه وسلم لعنه : قل لا إله إلا الله استكباراً عن العمل بمدلولها . كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين : ' 36 : 35 ، 37 ' إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون إنا لتناصرنا لشاعر مجنون " فرد عليهم بقوله : ' 37 : 37 ' بل جاء بالحق وصدق المرسلين " فبين تعالى أن استكبارهم عن قوله لا إله إلا الله دلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله . فإن دالة هذه الكلمة على نفي ذلك دالة تضمن ، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دالة مطابقة .

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبيباً لعباده أن ذلك إليه ، وهو القادر عليه دون من سواه ، فلو كان عند النبي صلى الله عليه وسلم - الذي هو أفضل خلقه - من هداية القلوب وتغريب الكروب ، ومغفرة الذنوب ، والنجاة من العذاب ، ونحو ذلك شيء ، لكان أحق الناس بذلك وأولاً لهم به عميه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه ، فسبحان من بهرت حكمته العقول ، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده ، وإخلاص العمل له وتجريده .

قوله : فكان آخر ما قال الأحسن فيه الرفع على أنه اسم كان وجملة هو وما بعدها الخبر .

قوله : هو على ملة عبد المطلب الظاهر أن أبا طالب قال : أنا فغيره الرواى استقباحاً للفظ المذكور ، وهو من التصرفات الحسنة ، قاله الحافظ .

قوله : وأبى أن يقول لا إله إلا الله قال الحافظ : هذا تأكيد من الرواى في نفي وقوع ذلك من أبي طالب .

قال المصنف رحمة الله : وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ومضره أصحاب السوء على الإنسان ، ومضره تعظيم الأئمة .

أي إذا زاد على المشروع ، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع .

قوله : فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك ما لم أنه عنك قال النووي : وفيه جواز الحلف من غير استحلاف . وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطبيباً لنفس أبي طالب . وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل .

قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول الله صلى الله عليه وسلم تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً .

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام .

قوله : " ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى " الآية أي ما ينبغي لهم ذلك . وهو خبر بمعنى النهي ، والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب . فإن الإتيان بالفأء المفيدة للترتيب في قوله : فأنزل الله بعد قوله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك يفيد ذلك .

وقد ذكر العلماء لنزول الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب . وأما نزول الآية التي قبلها ففيه نظر ، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالإستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة ، وهي عامة في حقه وحق غيره ، ويوضح ذلك ما يأتي في التفسير ، فأنزل الله بعد ذلك : " ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين " الآية . ونزل في أبي طالب : " إنك لا تهدي من أحببت " كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام . ويفصل ما ذكره السمهيلي أنه روى في بعض كتب المسعودي أنه أسلم ، لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح . انتهى .

وفيه تحريم الإستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم ، لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالتهم ومحبتهم أولى .

باب ما جاء أن سبب كفربني آدم إلخ

قوله : باب

(ما جاء أن سبب كفربني آدم وتركهم دينم هو الغلو في الصالحين)

قوله : تركهم بالجر عطفاً على المضاف إليه . وأراد المصنف رحمة الله تعالى بيان ما يقول إله الغلو في الصالحين من الشرك بالله في الإلهية الذي هو أعظم ذنب عصي الله به ، وهو ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص : شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله وقول الله عز وجل ' 4 : 171 ' يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه " الغلو هو الإفراط في

التعظيم بالقول والاعتقاد ، أَيْ لَا ترْفَعُوا الْمَخْلوقَ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ فَتَنْزِلُوهُ الْمَنْزَلَةَ الَّتِي لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ . وَالْخُطَابُ - وَإِنْ كَانَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ - فَإِنَّهُ عَامٌ يَتَنَاهُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ ، تَحْذِيرًا لَهُمْ أَنْ يَفْعُلُوا بِنَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعْلُ النَّصَارَى فِي عِيسَى ، وَالْيَهُودِ فِي الْعَزِيزِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ' 57 : 16 ' أَلَمْ يَأْنَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعْ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالِ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَقَسَطَ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرُوا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ " وَلَهُذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرِيمَ " وَيَأْتِي .

فَكُلُّ مَنْ دَعَا نَبِيًّا أَوْ لَيْبَيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ اتَّخَذَ إِلَيْهَا ، وَضَاهَأَ النَّصَارَى فِي شَرِكِهِمْ ، وَضَاهَأَ الْيَهُودَ فِي تَفْرِيظِهِمْ . فَإِنَّ النَّصَارَى غَلُوا فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْيَهُودَ عَادُوهُ وَسَبُوهُ وَتَنَقَّصُوهُ . فَالنَّصَارَى أَفْطَوُا ، وَالْيَهُودَ فَرَطَوُا . وَقَالَ تَعَالَى : ' 5 : 57 ' مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرِيمٍ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكَلُانِ الطَّعَامَ " فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا الرَّدُّ عَلَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى .

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحْمَةُ اللَّهِ : وَمَنْ تَشَبَّهَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَغَلَّا فِي الدِّينِ فَإِفْرَاطٌ فِيهِ أَوْ تَفْرِيظٌ فَقَدْ شَابَهُمْ . قَالَ : وَعَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَرَقُ الْغَالِيَةِ مِنَ الرَّافِضَةِ ، فَأَمْرَ بِأَخْادِيدِ خَدْتِهِمْ عَنْدَ بَابِ كَنْدَةِ فَقَذَفُوهُمْ فِيهَا . وَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ . لَكِنَّ ابْنَ عَبَّاسَ مَذَهَبُهُ أَنْ يَقْتَلُوهُمْ بِالسُّفْقَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيقٍ . وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ .

مَعْنَى " وَقَالُوا لَا تَذَرْنَ آهَتَكُمْ وَلَا " إِلَخْ قَوْلُهُ فِي الصَّحِيفَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ' 71 : 23 ' وَقَالُوا لَا تَذَرْنَ آهَتَكُمْ وَلَا تَذَرْنَ وَدًا وَلَا سَوَاعِدًا وَلَا يَغُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا " قَالَ : هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالِ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا هَلَكُوا أُوحِيَ الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ : أَنْ انصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُوهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا ، وَلَمْ تَعْبُدْ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولُئِكُنْ وَنَسِيَ الْعِلْمُ عَبَدُتْ قَوْلُهُ وَفِي الصَّحِيفَةِ أَيْ صَحِيفَةِ الْبَخَارِيِّ .

وَهَذَا الْأَثْرُ اخْتَصَرَهُ الْمَصْنُفُ . وَلِفَظُ ما فِي الْبَخَارِيِّ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ . أَمَّا وَدُ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُومَةِ الْجَنْدُلِ . وَأَمَّا سَوَاعُ فَكَانَتْ لِهِذِيلٍ . وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمَرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غَطِيفٍ بِالْجَرْفِ عَنْدَ سَبَأٍ . وَأَمَّا يَعْوِقُ فَكَانَتْ لِهِمْدَانٍ . وَأَمَّا نَسْرُ فَكَانَتْ لِحَمِيرٍ لَآلِ ذِي الْكَلَاعِ : أَسْمَاءُ رِجَالِ صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ ... إِلَى آخِرِهِ . وَرَوَى عَكْرَمَةَ وَالضَّحَّاكَ وَابْنَ إِسْحَاقَ نَحْوَهُذَا .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد ابن قيس أن يغوث وبعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة ، فصوروه ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر . عبدهم .

قوله : أن انصبوا هو بكسر الصاد المهملة .

قوله : أنصاباً جمع نصب ، والمراد به هنا الأصنام المضورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم ، وسموها بأسمائهم . وفي سياق حديث ابن عباس ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثاناً . فاسم الوثن يتناول كل معبد من دون الله ، سواء كان ذلك المعبد قبراً أو مشهداً ، أو صورة أو غير ذلك .

قوله : حتى إذا هلك أولئك أي الذين صوروا تلك الأصنام .

قوله : ونسى العلم ورواية البخاري وينسخ وللكشميهني ونسخ العلم أي درست آثاره بذهاب العلماء ، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك فوقعوا في الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله .

قوله : عبدت لما قال لهم إبليس : إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر ، هو الذي زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها ، فصار هو معبدهم في الحقيقة . كما قال تعالى : ' 36 - 60 - 62 ' ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن عبديوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعلقون " وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك ، وإن كان القصد بها حسناً . فإن الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين والإفراط في محبتهم ، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمة : أظهر لهم الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم ، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك ، من عبادتهم لهم من دون الله وفي رواية أنهم قالوا : ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله أي يرجون شفاعة أولئك الحسين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم . ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفاعة ورجاء شفائهم بطلبها منهم : شرك بالله ، كما تقدم بيانه في الآيات المحكمات .

قال ابن القيم لما ماتوا عكفوا على قبورهم

قوله : و قال ابن القيم رحمه الله : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوا .

قوله : و قال ابن القيم رحمه الله هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعبي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية . قال الحافظ السخاوي : العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان ، المجمع عليه بين الموفق والمخالف ، صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة . مات سنة إحدى وخمسين وسبعيناً .

قوله : و قال غير واحد من السلف هو بمعنى ما ذكره البخاري وابن جرير إلا أنه ذكر عکوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم . وذلك من وسائل الشرك بل هو الشرك ، لأن العکوف لله في المساجد عبادة . فإذا عکفوا على القبور صار عکوفهم تعظيمًا ومحبة : عبادة لها .

قوله : ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم أي طال عليهم الزمان . وسبب تلك العبادة والموصل إليها هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعکوف على قبورهم ، ونصب صورهم في مجالسهم ، فصارت بذلك أوثاناً تعبد من دون الله ، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى . فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذي كان أولئك عليه قبيل حدوث وسائل هذا الشرك ، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخذوها شفعاء . وهذا أول شرك حدد في الأرض .

قال القرطبي : وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ويتذكروا أفعالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم . ثم خلفهم قوم جهلو مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها ۱ هـ .

قال ابن القيم رحمه الله : وما زال الشيطان يوحى إلى عباد القبور ويلقى إليهم أن البناء والعکوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلها من هذه المرتبة إلى الدعاء بها ، والإقسام على الله بها ، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه .

إذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القانديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ، ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيداً ومنسكاً ، ورأوا أن ذلك أفعى لهم في دنياهم وأخراهم . وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من تجديد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرباعية وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر ، فغضب المشركون واشمأزت قلوبهم ، كما قال تعالى : ' 45 : 39 ' "إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزْتَ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يُسْتَبَشِّرُونَ" وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير من ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ورمومهم بالعظام ونفروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله ، وبأبي الله ذلك ' 34 : 8 ' "وَمَا كَانُوا أُولِيَّاً إِنَّ أُولِيَّاًهُ إِلَّا الْمُتَقْوُنُ" . اهـ كلام ابن القيم رحمه الله . وفي القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله .

ومنها : رد الشبه التي يسميه أهل الكلام عقليات ، ويدفعون بها ما جاء به الكتاب والسنة من توحيد الصفات ، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبرياته .
ومنها : مضر التقليد .

ومنها : ضرورة الأمة إلى ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم علمًا وعملاً بما يدل عليه الكتاب والسنة فإن ضرورة العبد إلى ذلك فوق كل ضرورة .

قوله : وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم . إنما أعبد عبد ، فقولوا عبد الله رسوله " أخر جاه .

قوله عن عمر هو ابن الخطاب بن نفيل - بنون وفاء مصغراً - العدوى أمير المؤمنين وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهم . ولـي الخلافة عشر سنين ونصفاً . فامتلأت الدنيا عدلاً ، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر . واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاثة وعشرين رضي الله عنه .

لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى

قوله : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم الإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه .
قاله أبو السعادات . وقال غيره : أي لا تمدحوني بالباطل ، ولا تجاوزوا الحد في مدحي .

قوله : إنما أنا عبد فقولوا عبد الله رسوله أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادعوا فيه الإلهية . وإنما أنا عبد الله رسوله ، فصفوني بذلك كما وصفني ربى ، فقولوا عبد الله رسوله ، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه ، وعظموه بما نهاهم عنه

وَحَذَرُهُمْ مِنْهُ ، وَنَاقَضُوهُ أَعْظَمُ مَنَاقِضَةً ، وَضَاهَوْا النَّصَارَى فِي غَلُوْهُمْ وَشَرِكَهُمْ ، وَوَقَعُوا فِي الْمَحْذُور ، وَجَرَى مِنْهُمْ مِنَ الْغَلُوِ وَالشَّرِكِ شَعْرًا وَنَثَرًا مَا يَطْوُلُ عَدَهُ ، وَصَنَفُوا فِيهِ مَصْنَفَاتٍ .

وَقَدْ ذَكَرَ شِيخُ الْإِسْلَامِ رَحْمَهُ اللَّهُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ زَمَانِهِ أَنَّهُ جُوزُ الْاسْتِغَاثَةِ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ مَا يَسْتَغْاثَ فِيهِ بِاللَّهِ ، وَصَنَفَ فِي ذَلِكَ مَصْنَفًا رَدَهُ شِيخُ الْإِسْلَامِ ، وَرَدَهُ مُوجَدُ بِحَمْدِ اللَّهِ . وَيَقُولُ : إِنَّهُ يَعْلَمُ مَفَاتِيحَ الْغَيْبِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ . وَذَكَرَ لَهُمْ أَشْيَاءَ مِنْ هَذَا النَّمَطِ . نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَمَى الْبَصِيرَةِ وَقَدْ اشْتَهَرَ فِي نُظُمِ الْبَوْصِيرِيِّ قَوْلَهُ :

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لَيْ مِنْ أَلَوْذَ بِهِ سُوَّاكَ عِنْدَ حَدُوثِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ

وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَبْيَاتِ الَّتِي مُضْمِنُونَهَا إِخْلَاصُ الدُّعَاءِ وَاللِّيَازِ وَالرِّجَاءِ وَالاعْتِمَادُ فِي أَضْيَقِ الْحَالَاتِ ، وَأَعْظَمُ الْأَضْطَرَارِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَنَاقَضُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرَّتْكَابِ مَا نَهَى عَنْهُ أَعْظَمُ مَنَاقِضَةً ، وَشَاقُوا اللَّهَ وَرَوْسُولَهُ أَعْظَمَ مَشَاقةً ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَظَهَرَ لَهُمْ هَذَا الشَّرَكَ الْعَظِيمَ فِي قَالْبِ مَحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَعْظِيمِهِ ، وَأَظَهَرَ لَهُمْ التَّوْحِيدَ وَالْإِخْلَاصَ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ فِي قَالْبِ تَنْقِيَصِهِ ، وَهُؤُلَاءِ الْمُشَرِّكُونَ هُمُ الْمُتَنَقَصُونَ النَّاقِصُونَ ، أَفْرَطُوا فِي تَعْظِيمِهِ بِهَا نَهَاهُمْ عَنْهُ أَشَدَ النَّهَيِّ ، وَفَرَطُوا فِي مَتَابِعَتِهِ ، فَلَمْ يَعْبُأُوا بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَلَا رَضُوا بِحُكْمِهِ وَلَا سَلَمُوا لَهُ . إِنَّمَا يَحْصُلُ تَعْظِيمُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَالْاَهْتِدَاءِ بِهِدِيهِ ، وَاتِّبَاعِ سُنْتِهِ ، وَالدُّعْوَةِ إِلَى دِينِهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ وَنَصَرَتْهُ ، وَمُوَالَةِ مَنْ عَمِلَ بِهِ ، وَمُعَاوَدَةِ مَنْ خَالَفَهُ . فَعَكَسَ أُولَئِكَ الْمُشَرِّكُونَ مَا أَرَادَ اللَّهُ وَرَوْسُولُهُ عَلَمًا وَعَمَلاً ، وَارْتَكَبُوا مَا نَهَى عَنْهُ وَرَوْسُولُهُ . فَاللَّهُ الْمُسْتَعْنَى .

إِيَاكُمْ وَالْغَلُوِ إِنَّمَا هَلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغَلُوِ

قَوْلُهُ : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِيَاكُمْ وَالْغَلُوِ . إِنَّمَا هَلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغَلُوِ " . هَذَا الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ الْمَصْنَفُ بِدُونِ ذِكْرِ رَاوِيهِ . وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْتَّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبْنِ عَبَّاسٍ .

وَهَذَا لَفْظُ رِوَايَةِ أَحْمَدَ : عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَةَ جَمْعٍ : " هَلَمْ الْقَطْ لَيْ . فَلَقَطَتْ لَهُ حَصِياتٌ هُنَّ حَصَى الْحَذْفِ . فَمَا وَضَعُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ : نَعَمْ بِأَمْثَالِ هُؤُلَاءِ فَأَرْمَوْا . إِيَاكُمْ وَالْغَلُوِ فِي الدِّينِ ، إِنَّمَا هَلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغَلُوِ فِي الدِّينِ " .

قَالَ شِيخُ الْإِسْلَامِ : هَذَا عَامٌ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْغَلُوِ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ وَسَبِيلُهُ هَذَا الْلَّفْظُ الْعَلَمُ رَمِيُ الْجَمَارِ ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِيهِ ، مُثْلِ الرَّمِيِّ بِالْحِجَارَةِ الْكَبَارِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ أَبْلَغُ مِنَ الصَّغَارِ . ثُمَّ عَلَّهُ

بما يقتضي مجانية هدى من كان قبلنا إبعاداً عن الواقع فيما هلكوا به ، فإن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك .

قوله : ولسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هلك المتنطعون قالها ثلاثة .

قال الخطابي : المتنطع المتعصب في الشئ ، المتكلف البحث عن علي مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم ، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم .

ومن التنطع : الامتناع من المباح مطلقاً ، كالذى يمتنع من أكل اللحم والخبز ، ومن ليس الكتان والقطن ، ولا يلبس إلا الصوف ، ويمتنع من نكاح النساء ، ويبطن أن هذا من الزهد المستحب . قال الشيخ تقي الدين : فهذا جاهل ضال ، انتهى .

وقال ابن القيم رحمة الله : قال الغزالى : والمتنطعون في البحث والاستقصاء .

وقال أبو السعادات : هم المتعمدون الغالون في الكلام ، المتكلمون بأقصى حلوتهم . مأخذ من النطع ، وهو الغار الأعلى من الفم ، ثم استعمل في كل متعمق قوله وفعلاً .

وقال النووي : فيه كراهة التقرير في الكلام بالتشدق وتتكلف الفصاحة ، واستعمال وحشى اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم .

قوله : قالها ثلاثة أي قال هذه الكلمة ثلاثة مرات ، مبالغة في التعليم والإبلاغ ، فقد بلغ البالغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

التغليظ على من عبد الله عند قبر صالح

قوله : باب

(ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟)

أي الرجل صالح ، فإن عبادته هي الشرك الأكبر ، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته ، ووسائل الشرك محظمة . لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر وهو أعظم الذنوب .

حديث أم سلمة في كنيسة الحبشة

قوله : في الصحيح : عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور . فقال : " أولئك إذا مات فيهم الرجل صالح أو

العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله ” فهو لاء جمعوا بين الفتنتين : فتن القبور وفتنة التماشيل .

قوله : في الصحيح أي الصححين .

قوله : أن أم سلمة هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية . تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبي سلمة سنة أربع ، وقيل : ثلاث ، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ماتت سنة اثنين وستين .

قوله : ذكرت لرسول الله وفي الصحيحين أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم و الكنسية بفتح الكاف وكسر النون : معبد النصارى .

قوله : أولئك بكسر الكاف خطاب للمرأة .

قوله : إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح هذا - والله أعلم - شك من بعض رواة الحديث : هل قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أو هذا ؟ فيه التحرير في الرواية . وجواز الرواية بالمعنى .

قوله : وصوروا فيه تلك الصور الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاویر التي في الكنسية .

قوله : أولئك شرار الخلق عند الله وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور ، وقد لعن صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك كما سيأتي .

قال البيضاوي : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنهم ، و يجعلنها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القرطبي : وإنما صور أولئك الصور ليتأسوا بها ويذكروا أعمالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . فحذر النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، سداً للذرية المؤدية إلى ذلك .

قوله : فهو لاء جمعوا بين الفتنتين : فتن القبور وفتنة التماشيل هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ذكره المصنف رحمة الله تعالى على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماشيل فإن فتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ المساجد على القبور لأنها هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك . فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك . فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر . ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ، ويخشعون ويختضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي صلى الله عليه وسلم مادتها . حتى نهي عن الصلاة في المقبرة مطلقاً ، وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهي عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس ، فنهي أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون ، سداً للذرية . وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاحة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ولرسوله ، والمخالفة لدینه وابتداع دین لم يأذن به الله ، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم : أن الصلاة عند القبور منهي عنها ، وأنه صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذها مساجد ، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك : الصلاة عندها واتخاذها مساجد ، وبناء المساجد عليها . وقد توالت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه . وقد صرخ عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك . وطائفة أطلقـتـ الـكـراـهـةـ والـذـيـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـحـمـلـ عـلـىـ كـراـهـةـ التـحـرـيمـ ، إـحـسـانـاًـ لـلـظـنـ بـالـعـلـمـاءـ ، وـأـنـ لـاـ يـظـنـ بـهـمـ أـنـ يـجـوزـواـ فـعـلـ ماـ تـوـاتـرـ عـنـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لـعـنـ فـاعـلـهـ وـالـنـهـيـ عـنـهـ . اـهـ كـلـامـهـ رـحـمـهـ اللهـ تـعـالـىـ .

حديث عائشة : لعن الله اليهود والنصارى اتخاذوا قبور أنبيائهم مساجد

قوله : ولهمـاـ عـنـهـ - أـيـ عـنـ عـائـشـةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ - قـالـتـ : " لما نـزـلـ بـرـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ طـقـ طـقـ يـطـرـحـ خـمـيـصـةـ لـهـ عـلـىـ وـجـهـهـ ، إـذـاـ اـغـتـمـ بـهـاـ كـشـفـهـاـ فـقـالـ - وـهـوـ كـذـكـ - : لـعـنـ اللهـ عـلـيـهـ وـالـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ ، اـتـخـذـواـ قـبـورـ أـنـبـيـائـهـمـ مـسـاجـدـ ، يـحـذـرـ مـاـ صـنـعـواـ . وـلـوـ لـذـكـ أـبـرـزـ قـبـرـهـ ، غـيـرـ أـنـ خـشـيـ أـنـ يـتـخـذـ مـسـجـدـاًـ " آخرـجـاهـ .

قوله : ولهمـاـ أـيـ الـبـخـارـيـ وـمـسـلـمـ . وـهـوـ يـغـنـيـ عـنـ قـوـلـهـ فـيـ آخـرـهـ أـخـرـجـاهـ .

قوله : لما نزل هو بضم النون وكسر الزاي . أي نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام

قوله : طفق بكسر الفاء وفتحها ، والكسر أفصح . وبه جاء القرآن ، ومعناه جعل .

قوله : **خميسة** بفتح المعجمة والصاد المهملة . كفاء له أعلام .

قوله : فإذا اغتنم بها كشفها أي عن وجهه .

قوله : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يبين أن من فعل مثل ذلك حل عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى .

قوله : يحذر ما صنعوا الظاهر أن هذا كلام عائشة رضي الله عنها لأنها فهمت من قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم ، فإنه من الغلو في الأنبياء ، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك . ومن غرابة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعليه - تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه صلى الله عليه وسلم ومع الصالحين من أمته - قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة ، واعتقدوه قربة من القربات ، وهو من أعظم السيئات والمنكرات ، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله .

قال القرطبي في معنى الحديث : وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام . انتهى .

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم ، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف ابن يعقوب حيث قال : ' 12 : 28 ' واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء " نكرا في سياق النفي تعم كل شرك .

قوله : ولولا ذلك أي ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً لأبرز قبره
وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقium .

قوله : غير أنه خشي أن يتتخذ مسجداً روى بفتح الخاء وضمهما ، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يدفنه في المكان الذي قضى فيه . وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة ، فلم ييرزوا قبره ، خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلواً وتعظيمياً بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه ولعن فاعله .

قال القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي صلى الله عليه وسلم فأعلوا حيطان تربته وسدوا المدخل إليها ، وجعلوها محدقة بقبره صلى الله عليه وسلم ، ثم خافوا أن يتخذ موضع

قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يمكنوا أحد من استقبال قبره انتهى .

حديث في النهي عن اتخاذ القبور مساجد

قوله : ولسلم عن جندي بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول : " إني أبراً إلى الله أن يكون لي منكم خليل . فإن الله قد اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً لو كنت متخدناً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك " .
قوله : عن جندي بن عبد الله أي ابن سفيان البجلي ، وينسب إلى جده ، صحابي مشهور .
مات بعد السنتين .

قوله : أني أبراً إلى الله أن يكون لي منكم خليل أي أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله . والخلة فوق المحبة والخليل هو المحبوب غاية الحب ، مشتق من الخلة - بفتح الخاء - وهي تخلل المودة في القلب ، كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

هذا هو الصحيح في معناها كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى .
قال القرطبي : وإنما كان ذلك لأن قلبه صلى الله عليه وسلم قد امتلاً من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خلة غيره .

قوله : فإن الله قد اتخذني خليلاً فيه بيان أن الخلة فوق المحبة .

قال ابن القيم رحمه الله : وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ، و Mohammad حبيب الله - فمن جهلهم ، فإن المحبة عامة ، والخلة خاصة وهي نهاية المحبة . وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قد اتجده خليلاً ونفي أن يكون له خليل غير رب ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضي الله عنهم . وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتظاهرين ويحب الصابرين ، وخلته خاصة بالخليلين .

قوله : ولو كنت متخدناً خليلاً لا تأخذت أبا بكر خليلاً فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة . وفيه الرد على الراافضة وعلى الجهمية وهما شر أهل البدع ، وأخرجهم بعض السلف من الثنين

والسبعين فرقة . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد . قاله الصنف رحمة الله ، وهو كما قال بلا ريب .

وفي إشارة إلى خلافة أبي بكر ، لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره . وقد استخلفه على الصلاة بالناس ، وغضب صلى الله عليه وسلم لما قيل يصلي بهم عمر وذلك في مرضه الذي توفي فيه صلى الله عليه وسلم .

واسم أبي بكر : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة الصديق الأكبر ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضل الصحابة بإجماع من يعتقد بقوله من أهل العلم . مات في جمادى الأولى سنة ثلث عشرة ، وله ثلات وستون سنة رضي الله عنه .

قوله : ألا حرف استفتاح ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ... الحديث قال الخلالي : وإنكار النبي صلى الله عليه وسلم صنيعهم هذا مخرج على وجهين : أحدهما : أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا .

الثاني : أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة ، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والبالغة في تعظيم الأنبياء . والأول : هو الشرك الجلي . والثاني : الخلفي ، فلذلك استحقوا اللعن .

قوله : فقد نهى عنه في آخر حياته أي كما في حديث جنبد . وهذا من كلام شيخ الإسلام . وكذا ما بعده .

قوله : ثم إنه لعن ، وهو في السياق من فعله كما في حديث عائشة .

قللت : فكيف يسوع بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبني عليها ويصلى عندها وإليها ؟ هذا أعظم مشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله لو كانوا يعقلون .

قوله : الصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يبن مسجد أي من اتخاذها مساجد الملعون فاعله . وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً " الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام " رواه أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم .

قال ابن القيم رحمة الله : وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاصده ، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغته - صيغة لا تفعلوا وصيغة أني أنهاكم عن ذلك - ليس لأجل النجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك

اللاحقة لمن عصاه ، وارتكب ما عنه نهاد ، واتبع هواه ، ولم يخش ربه ومولاه ، وقل نصيبه أو عدم من لا إله إلا الله فإن هذا وأمثاله من النبي صلى الله عليه وسلم صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويعشاها ، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه ، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنبيه ، وغرضهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكلما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد ، ولعمر الله ، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يعوق ويغوث ونسرا ، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيمة ، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم ، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزل لهم الله إليها من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم .

قال الشارح رحمه الله تعالى : ومن علل بخوف الفتنة بالشرك : الإمام الشافعي ، وأبو بكر الأثرم ، وأبو محمد المقطسي . وشيخ الإسلام وغيرهم رحمهم الله . وهو الحق الذي لا ريب فيه . قوله : فإن الصحابة لم يكونوا ليبنيوا حول قبره مسجداً أي لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه النهي عنه ، ولعن من فعله .

قوله : وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً أي وإن لم يبن مسجد ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً ، يعني وإن لم يقصد بذلك ، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلى فأوقع الصلاة في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه ، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً .

قوله : كما قال صلى الله عليه وسلم " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " أي فسمى الأرض مسجداً ، تجوز الصلاة في كل بقعة منها إلا ما استثنى من الموضع التي لا تجوز الصلاة فيها ، كالمقبرة ونحوها .

قال البعوي في شرح السنة : أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيئهم وكنائسهم ، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا ، تخفيقاً عليهم وتبسيراً ، ثم خص من جميع الموضع : الحمام والمقبة والمكان النجس . انتهى .

حديث ابن مسعود : إن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد

قوله : ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعاً " إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحيا ، والذين يتخذون القبور مساجد " رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه .

قوله : إن من شرار الناس بكسر الشين جمع شرير .

قوله : من تدركهم الساعة وهم أحيا ، أي مقدمتها ، كخروج الدابة ، وطلع الشمس في مغربها .

وبعد ذلك ينفح في الصور نفحة الفزع .

قوله : والذين يتخذون القبور مساجد معطوف على خبر إن في محل نصب على نية تكرار العامل ، أي وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أي بالصلاوة عندها وإليها ، وبناء المساجد عليها ، وتقديم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى وأن النبي صلى الله عليه وسلم لعنهم على ذلك ، تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى . فما رفع أكثرهم بذلك رأساً ، بل اعتقادوا أن هذا الأمر قربة لله تعالى ، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومحفوته . والعجب أن أكثر من يدعى العلم من هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك ، بل ربما استحسنوه ورغبو في فعله ، فلقد اشتتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، تنشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير .

قال شيخ الإسلام : أما بناء المساجد على القبور فقد صرخ عام الطوائف بالنهي عنه ، متابعة للأحاديث الصحيحة . وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريمها ، ثم ذكر الأحاديث في ذلك إلى أن قال وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين ، أو الملوك وغيرهم تعين إزالتها بهدم أو غيره . هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعرفين .

وقال ابن القيم رحمه الله : يجب هدم القباب التي بنيت على القبور ، لأنها أنسنت على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأنبياء ، منهم ابن الجميزي والظهير التزمياني وغيرهما .

وقال القاضي ابن حجر : ولا يجوز أن تجصص القبور ، ولا أن يبني عليها قباب ، ولا غير قباب ، والوصية بها باطلة .

وقال الأذرعي : وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأنبياء وانفاق الأموال الكثيرة ، فلا ريب في تحريمه .

وقال القرطبي في حديث جابر رضي الله عنه نهى أن يجصص القبر أو يبني عليه وبظاهر هذا الحديث قال مالك ، وكراه البناء والجص على القبور . وقد أجازه غيره ، وهذا الحديث حجة عليه .

وقال ابن رشد : كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة ، وهو من بدع أهل الطول ، أحدثوه إرادة الفخر والمباهة والسمعة ، وهو مما لا اختلاف عليه .

وقال الزيلigi في شرح الكنز : ويكره أن يبني على القبر . وذكر قاضي خان : أنه لا يجحص القبر ولا يبني عليه . لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن التجصيص وللبناء فوق القبر . والمراد بالكرابة - عند الحنفية رحمهم الله - كراهة التحرير . وقد ذكر ذلك ابن نجيم في شرح الكنز . وقال الشافعي رحمة الله : أكره أن يعظم مخلوق ، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس . وكلام الشافعي رحمة الله يبين أن مرد هذه بالكرابة كراهة التحرير .

قال الشارح رحمة الله تعالى : وجزم النووي رحمة الله في شرح المذهب بتحريم البناء مطلقاً ، وذكر في شرح مسلم نحوه أيضاً .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار كالمعنى ، والكافى وغيرهما رحمة الله تعالى : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور . لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لعن الله اليهود والنصارى ... " الحديث وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام : تعظيم الأموات واتخاذ صورهم ، والتتمسح بها والصلوة عندها ، انتهى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله : وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتقية ، انقلبت ترتبتها أو لم تنقلب . ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا ، لعموم الاسم وعموم العلة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الذين اتخذوا قبور الأنبيائهم مساجد ، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجمس .

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بنى عليه مسجد ، فلا يصلى في هذا المكان سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب : لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور الأنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهَاكم عن ذلك " وخص قبور الأنبياء لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم ، واتخاذها مساجد أشد ، وكذلك إن لم يكن عليه بنى مسجد ، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النبي عن الصلاة عند القبور من أجلهما ، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " وإن كان موضع قبر أو قبرين .

وقال بعض أصحابنا : لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة ، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق ، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر . وقد تقدم عن علي رضي الله عنه أنه قال : لا أصلى في حمام ولا عند قبر .

فعلى هذا ينبغي أن يكون النهي متناولًا لحريم القبر وفنائه ، ولا تجوز الصلاة في مسجد بنى في مقبرة ، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفاً .

قال في رواية الأثرم : إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة ، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز . وذكر حديث أبي مرثد عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تصلوا على القبور وقال : إسناده جيد ، انتهى .

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لا حتمل عدة أوراق . فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهي ما يؤدي إليه ذلك : من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان .

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتقد بقولهم أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطربهم ، وغلوظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقيادات وغيرها بها ما قصده الرسول صلى الله عليه وسلم بالنبي وأراد . فقال لتنجسها بصدید الموتى ، وهذا كله باطل من وجوه : منها : أنه من القول على الله بلا علم . وهو حرام بنص الكتاب .

ومنها : أن ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه ، وما المانع له أن يقول : صلى في بقعة نجسة فعلية لعنة الله . ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبين العلة ، وأحال الأئمة في بيانها على من يجيء بعده صلى الله عليه وسلم وبعد القرون المفضلة والأئمة ، وهذا باطل قطعاً وعقلاً وشرعأً ، لا يلزم عليه من أن الرسول صلى الله عليه وسلم عجز عن البيان أو قصر في البلاغ ، وهذا من أبطل الباطل . فإن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ البلاغ المبين ، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد ، فإذا بطل اللازم بطل المزوم .

ويقال أيضاً : هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وجاء في بعض النصوص ما يعم الأنبياء وغيرهم ، فلو كانت هذه هي العلة لكان منتفية في قبور الأنبياء ، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صدید يمكن من الصلاة عند قبورهم ، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص ، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم ، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة . والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لننهضي لو لا أن هدانا الله .

الغلو في قبور الصالحين يصيغها أوثانا إلخ

قوله : باب

(ما جاء أَنَّ الْغَلُو فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يَصِيرُهَا أَوْثَانًا تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنَّا يَعْبُدُ

رَوَى مَالِكُ فِي الْمَوْطَأِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَهُمْ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنَّا يَعْبُدُ ، اشْتَدَ غُضْبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوهُ قُبُورًا نَبِيَّهُمْ مَسَاجِدَ " .

هَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ مَالِكٌ مَرْسَلًا عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ... الْحَدِيثُ . وَرَوَاهُ أَبْنُ أَبِي شِيبَةَ فِي مَصْنَفِهِ عَنْ أَبْنِ عَجْلَانَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ بْنِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ عَطَاءً ، وَرَوَاهُ الْبَزَارُ عَنْ زَيْدِ عَنْ عَطَاءِ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ مَرْفُوعًا .

وَلَهُ شَاهِدٌ عِنْدَ إِلَمَامِ أَحْمَدَ بِسْنَدِهِ عَنْ سَهْيَلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفِعَهُ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنَّا ، لَعْنَ اللَّهِ قَوْمًا اتَّخَذُوهُ قُبُورًا نَبِيَّهُمْ مَسَاجِدَ .

قَوْلُهُ : رَوَى مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ هُوَ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنْسٍ بْنُ مَالِكٍ بْنُ أَبِي عَامِرٍ بْنُ عُمَرِ الْأَصْبَحِيِّ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَدْنِيِّ . إِمامُ دَارِ الْهِجْرَةِ وَأَحَدُ الْأَئْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَأَحَدُ التَّقْنِينَ لِلْحَدِيثِ ، حَتَّى قَالَ الْبَخَارِيُّ : أَصْحَحُ الْأَسَانِيدِ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ أَبْنِ عَمْرٍ ، مَاتَ سَنَةً تِسْعَ وَسَبْعِينَ وَمَائَةً . وَكَانَ مَوْلَدُهُ سَنَةً ثَلَاثَ وَتِسْعِينَ . وَقَيْلُ أَرْبَعَ وَتِسْعِينَ . وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ : بَلَغَ تِسْعِينَ سَنَةً .

قَوْلُهُ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنَّا يَعْبُدُ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاهُ كَمَا قَالَ أَبْنُ الْقَيْمِ رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجَدَارَانِ

حَتَّى غَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدَعَائِهِ فِي عَزَّةِ وَحْمَاهِ وَصَبَانِ

وَدَلُّ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ عَبَدَ لَكَانَ وَثَنَّا ، لَكِنَّ حَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ فَلَا يَوْصِلُ إِلَيْهِ . وَدَلُّ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ الْوَثْنَ هُوَ مَا يَبَاشِرُهُ الْعَابِدُ مِنْ الْقُبُورِ وَالْتَّوَابِيَّاتِ الَّتِي عَلَيْهَا . وَقَدْ عَظَمَتِ الْفَتْنَةُ بِالْقُبُورِ لِتَعْظِيمِهَا وَعِبَادَتِهَا ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسَعُودَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا مَسْتَكُمْ فَتْنَةً يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ، وَيَنْشَا فِيهَا الصَّغِيرُ . تَجْرِي عَلَى النَّاسِ يَتَخَذُونَهَا سَنَةً ، إِذَا غَيَّرْتُمْ قَيْلَ : غَيَّرْتُ السَّنَةَ اِنْتَهَى .

وَلَخُوفُ الْفَتْنَةِ نَهَى عَنْ عُمُرٍ تَتَبَعُ آثَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة .

وقال العور بن سويد : صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح . ثم رأى الناس يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجد صلی فيه النبي صلی الله عليه وسلم فهم يصلون فيه ، فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً ، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل . ومن لا فليمض ولا يتعدها .

وَجَدَ الْمُسْلِمِينَ دَانِيَالَ فِي تِسْتَرٍ لَمَا فَتَحُوهَا

وفي مغازي ابن إسحاق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار . حدثنا أبو العالية قال : لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف . فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأه من العرب ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيرتك وأمورك ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : لماذا صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهاي ثلثة عشرة قبراً متفرقة . فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه عن الناس لا ينتشرون . قلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبسوا عنهم بربوا بسريره فيمطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال . فقلت : منذكم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثة سنة .

قلت : ما كان تغير منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شعيرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض .

قال ابن القيم رحمه الله : ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعيمية قبره لثلا يفتتن به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرن لجالدوا عليه بالسيف ولعبدوه من دون الله .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهو إنكار منهم لذلك ، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها - ولم يستحب الشارع قصدها - فهو من المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصل إلى عدوها أو ليدعوا عندها ، أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله عندها ، أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع

من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعاً ولا عيناً ، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يزورها ويسلم عليها ، ويسأله العافية له وللموتى ، كما جاءت به السنة . وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجب من غيره ، فهذا هو المنهي عنه .
انتهى ملخصاً .

قوله : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم فيه تحريم البناء على القبور ، وتحريم الصلاة عندها ، وأن ذلك من الكبائر .

وفي القرى للطبرى من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول : زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلل ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد " الحديث . كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر ، لئلا يقع التشبه بفعل أولئك ، سداً للذرية .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : ومالك قد أدرك التابعين ، وهم أعلم الناس بهذه المسألة ، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم لفاظ زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم - إلى أن قال - وقد ذكروا أسباب كراحته لأن يقول : زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية ، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه ، والرغبة إليه في قضاء الحاجات ، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس ، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا . وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة . وكراه مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد ، بخلاف الصلاة والسلام عليه ، فإن ذلك مما أمر الله به . أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى . ألا ترى إلى قوله : فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة مع زيارته لقبر أمه . فإن هذا يتناول قبور الكفار . فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به ، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع ، بخلاف ما إذا كان المزور معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين ، فإنه كثيراً ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية ، فلهذا كره مالك ذلك في مثل هذا ، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة . اهـ .

وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستعد إلا مما يخاف وقوعه . ذكره المصنف رحمه الله تعالى .

قوله : ولا بن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد " أفرأيتم اللات والعزى " قال : كان يلت لهم السويق ، فمات فعكفوا على قبره ، كذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال : كان يلت السويق للحجاج .

قوله : ولابن جرير هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها . قال ابن خزيمة : لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير وكان من المجتهدين لا يقل أحداً . وله أصحاب يتفقهون على مذهبة ويأخذون بأقواله . ولد سنة أربع وعشرين ومائتين ، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة .

قوله : عن سفيان الظاهر : أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهداً ، وله أتباع يتفقهون على مذهبة . مات سنة إحدى وستين ومائة ، وله أربع وستون سنة .

قوله : عن منصور هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمي ثقة ثبت فقيه . مات سنة اثنين وثلاثين ومائة .

قوله : عن مجاهد هو ابن جبر - بالجيم الواحدة - أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ، ثقة إمام في التفسير ، أخذ عن ابن عباس وغيره رضي الله عنهم . مات سنة أربع ومائة ، قاله يحيىقطان ، وقال ابن حبان : مات سنة اثنين أو ثلاثة ومائة وهو ساجد ، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه .

قوله : كان يلت السويق لهم فمات فعكفوا على قبره في رواية : فيطعم من يمر من الناس . فلما مات عبدوه ، وقالوا : هو اللات رواه سعيد بن منصور .

ومناسبته للترجمة : أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره وثناً من أوثان المشركين .

قوله : وكذا قال أبو الجوزاء هو أوس بن عبد الله الربيعي ، فتح الراء والباء ، مات سنة ثلاثة وثمانين .

قال البخاري : حدثنا مسلم وهو ابن إبراهيم . حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال : كان اللات رجلاً يلت سويق الحجاج .

قال ابن خزيمة : وكذا العزى ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم .

عن الله زوارات القبور إلخ

قوله : وعن ابن عباس رضي الله عنهم قال : " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج " رواه أهل السنن .

قلت : وفي الباب حديث عن أبي هريرة وحديث حسان بن ثابت . فأما حديث أبي هريرة فرواه أحمد والترمذى وصححه . وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من روایة عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال : " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور " .

وحيث أن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هاني ، وقد ضعفه بعضهم ووثقها ببعضهم . قال على بن المديني ، عن يحيى القطان : لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هاني . وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً ، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان . قال ابن معين : ليس به بأس ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه . انتهى من الذهب الإبريز عن الحافظ الذي .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريقين : فعن أبي هريرة رضي الله عنه : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور " وذكر حديث ابن عباس . ثم قال : ورجال هذا ليس رجال هذا . فلم يأخذه أحدهما عن الآخر . وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب . ومثل هذا حجة بلا ريب . وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذى ، فإنه جعل الحسن ما تعدد طرقه ولم يكن فيه متهم ، ولم يكن شاذًا ، أي مخالفًا لما ثبت بنقل الثقات وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالقه أحد من الثقات ، هذا لو كان عن صاحب واحد ، فكيف إذا كان رواه عن صاحب وذاك عن آخر ؟ فهذا كله يبين أن الحديث في الأصل معروف .

والذين رخصوا في الزيارة اعتمدوا على ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت : لو شهدتك ما زرتك وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب الرجال . إذ لو كان كذلك لا ستحبب زيارة سواء شهدته أم لا .

قلت : فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة .

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذى من روایة عبد الله بن أبي مليكة عنها ، وهو يخالف سياق الأثر له عن عبد الله بن أبي مليكة أيضاً : أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر . فقلت لها : يا أم المؤمنين ، أليس نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم نهى عن زيارة القبور ، ثم أمر بزيارتها .

فأجاب شيخ الإسلام رحمة الله عن هذا وقال : ولا حجة في حديث عائشة فإن المحتاج عليها احتج بالنهي العام ، فدفعت ذلك بأن النبي منسخ ، ولم يذكر لها المحتاج النبي الخاص بالنساء الذي فيه لعنهم على الزيارة . يبين ذلك قولها قد أمر بزيارتـها فهـذا يـبين أـنه أمر بـها أمرـاً يـقتضـي الاستحبـاب ، والاستحبـاب إنـما هو ثـابت للـرجال خـاصـة . ولو كانت تـعتقد أنـ النساء مـأمورـات بـزيارة القبور لـكانت تـفعل ذلك كـما يـفعـلـهـ الرـجـالـ وـلـمـ تـقلـ لأـخـيـهـ لـماـ زـرـتـهـ لـوـلـعـنـ صـرـيحـ فيـ التـحرـيمـ ، والـخطـابـ بـالـإـذـنـ فيـ قـوـلـهـ فـزـورـوهـاـ لـمـ يـتـنـاـولـ النـسـاءـ فـلاـ يـدـخـلـنـ فـيـ الـحـكـمـ النـاسـخـ ، وـالـعـامـ إـذـ عـرـفـ أـنـهـ بـعـدـ الـخـاصـ لـمـ يـكـنـ نـاسـخـاـ لـهـ عـنـ جـمـهـورـ الـعـلـمـاءـ ، وـهـوـ مـذـهـبـ الشـافـعـيـ وـأـحـمـدـ فـيـ أـشـهـرـ الـرـوـاـيـتـيـنـ عـنـهـ ، وـهـوـ مـعـرـوفـ عـنـ أـصـحـابـهـ ، فـكـيـفـ إـذـ لـمـ يـعـلـمـ أـنـ هـذـاـ عـاـمـ بـعـدـ الـخـاصـ ؟ـ إـذـ قـدـ يـكـونـ قـوـلـهـ :ـ لـعـنـ اللـهـ زـوـارـاتـ الـقـبـورـ بـعـدـ إـذـنـهـ لـلـرـجـالـ فـيـ الـزـيـارـةـ .ـ يـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـهـ قـرـنـهـ بـالـتـخـذـيـنـ عـلـيـهـ الـمـسـاجـدـ وـالـسـرـجـ .ـ وـمـعـلـومـ أـنـ اـتـخـاذـ الـمـسـاجـدـ وـالـسـرـجـ الـنـهـيـ عـنـهـ مـحـكـمـ ،ـ كـمـ دـلـتـ عـلـيـهـ الـأـحـادـيـثـ الـصـحـيـحةـ وـكـذـلـكـ الـآـخـرـ .ـ

والـصـحـيـحـ :ـ أـنـ النـسـاءـ لـمـ يـدـخـلـنـ فـيـ الإـذـنـ فـيـ زـيـارـةـ الـقـبـورـ لـعـدـةـ أـوـجـهـ :

أـحـدـهـ :ـ أـنـ قـوـلـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـزـورـوهـاـ صـيـغـةـ تـذـكـيرـ .ـ وـإـنـماـ يـتـنـاـولـ النـسـاءـ أـيـضاـ عـلـىـ سـبـيلـ التـغـلـيبـ .ـ لـكـنـ هـذـاـ فـيـهـ قـولـانـ ،ـ قـيـلـ :ـ إـنـهـ يـحـتـاجـ إـلـىـ دـلـيلـ مـنـفـصـلـ ،ـ وـحـيـنـئـذـ فـيـحـتـاجـ تـنـاـولـ ذـلـكـ لـلـنـسـاءـ إـلـىـ دـلـيلـ مـنـفـصـلـ ،ـ وـقـيـلـ أـنـهـ يـحـتـمـلـ عـلـىـ ذـلـكـ عـنـدـ الإـطـلاقـ .ـ وـعـلـىـ هـذـاـ فـيـكـونـ دـخـولـ النـسـاءـ بـطـرـيـقـ الـعـمـومـ الـضـعـيفـ ،ـ وـالـعـامـ لـاـ يـعـارـضـ الـأـدـلـةـ الـخـاصـةـ وـلـاـ يـنـسـخـهـ عـنـدـ جـمـهـورـ الـعـلـمـاءـ ،ـ وـلـوـ كـانـ النـسـاءـ دـاـخـلـاتـ فـيـ هـذـاـ الـخـطـابـ لـاـ سـتـحـبـ لـهـنـ زـيـارـةـ الـقـبـورـ .ـ وـمـاـ عـلـمـنـاـ أـحـدـاـ مـنـ الـأـئـمـةـ اـسـتـحـبـ لـهـنـ زـيـارـةـ الـقـبـورـ ،ـ وـلـاـ كـانـ النـسـاءـ عـلـىـ عـهـدـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـخـلـفـائـهـ الـرـاشـدـيـنـ يـخـرـجـنـ إـلـىـ زـيـارـةـ الـقـبـورـ .ـ

وـمـنـهـ :ـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ عـلـلـ إـذـنـ لـلـرـجـالـ بـأـنـ ذـلـكـ "ـ يـذـكـرـ الـمـوـتـ ،ـ وـيـرـقـقـ الـقـلـبـ ،ـ وـتـدـمـعـ الـعـيـنـ "ـ هـكـذـاـ فـيـ مـسـنـدـ أـحـمـدـ .ـ وـمـعـلـومـ أـنـ الـمـرأـةـ إـذـ فـتـحـ بـالـهـاـ هـذـاـ الـبـابـ أـخـرـجـهـاـ إـلـىـ الـجـزـعـ وـالـنـدـبـ وـالـنـيـاحـةـ ،ـ لـاـ فـيـهـاـ مـنـ الـضـعـفـ وـقـلـةـ الصـبـرـ .ـ وـإـذـ كـانـتـ زـيـارـةـ النـسـاءـ مـظـنـةـ وـسـبـباـ لـلـأـمـورـ الـمـحـرـمـةـ فـإـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـحـدـ الـمـقـدـارـ الـذـيـ لـاـ يـفـضـيـ إـلـىـ ذـلـكـ ،ـ وـلـاـ التـميـيزـ بـيـنـ نـوـعـ وـنـوـعـ ،ـ وـمـنـ أـصـوـلـ الـشـرـيـعـةـ :ـ أـنـ الـحـكـمـ إـذـ كـانـتـ خـفـيـةـ أـوـ مـنـتـشـرـةـ عـلـقـ الـحـكـمـ بـمـظـنـتـهـاـ .ـ فـيـحـرـمـ هـذـاـ الـبـابـ سـداـ لـلـذـرـيـعـةـ ،ـ كـمـ حـرـمـ الـنـظـرـ إـلـىـ الـزـيـنـةـ الـبـاطـنـةـ ،ـ وـكـمـ حـرـمـ الـخـلـوـةـ بـالـأـجـنـبـيـةـ وـغـيـرـ ذـلـكـ .ـ وـلـيـسـ فـيـ ذـلـكـ مـنـ الـمـصـلـحةـ مـاـ يـعـارـضـ هـذـهـ الـمـفـسـدـةـ .ـ إـنـهـ لـيـسـ فـيـ ذـلـكـ إـلـىـ دـعـاؤـهـاـ لـلـمـبـيـتـ وـذـلـكـ مـمـكـنـ فـيـ بـيـتـهـاـ .ـ

ومن العلماء من يقول : التشبيع كذلك ، ويحتاج بقوله صلى الله عليه وسلم " ارجعن مأزورات غير مأجورات ، فإنك تفتن الحي وتؤذين الميت " ، قوله لفاطمة : " أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلني الجنة " ويفيد ما ثبت في الصحيحين من أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز ومعلوم أن قوله صلى الله عليه وسلم : " من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان " وهو أدل على العموم من صيغة التذكير . فإن لفظ من يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس ، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي صلى الله عليه وسلم لهن عن اتباع الجنائز ، فإذا لم يدخلن في هذا العموم فكذلك في ذلك بطريق الأولى . انتهى ملخصاً .

قلت : ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصاً للرجال ، خص بقوله : لعن الله زوارات القبور الحديث فيكون من العام المخصوص .

وعندما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً .

منها : أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارض مما ورد عنهما في هذا الباب فلا يثبت به نسخ .

ومنها : أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع ، وأما تعليمه عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك ، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور ، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد والله أعلم .

قال محمد بن اسماعيل الصنعاني رحمة الله في كتابه تطهير الاعتقاد : فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد ، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنianه : غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلطانين والرؤساء والولاة ، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير ، ويزوره الناس الذي يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف بإسمه ، بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم ، فبأيادي من بعدهم فيجد قبراً قد شيد عليه البناء ، وسرجت عليه الشموع ، وفرش بالغراض الفاخر ، وأرخيب عليه الستور ، وألقيت عليه الأوراد والزهور ، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر ، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل ، وأنزل بفلان الضر النفع . حتى يغرسوا في جبلته كل باطل ، والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها . وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهى عنه . ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة . انتهى

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة والله أعلم .

قوله : والمتخذين عليها المساجد تقدم شرحه في الباب قبله .

قوله : السرج قال أبو محمد المقطبي : لو أبىح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، لأن فيه تضييقاً للمال في غير فائدة ، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام .

وقال ابن القيم رحمه الله : اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر .

قوله : رواه أهل السنن يعني أن أبا داود والترمذى وابن ماجه فقط ولم يروه النسائي .

باب ما جاء في حماية المصطفى إلخ

قوله : باب (ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم وسده كل طريق يوصل إلى الشرك)

الجناب : هو الجانب . والراد حمايته عما يقر منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه .

قوله : وقول الله تعالى : ' 9 : 128 ، 129 ' " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم " .

قال ابن كثير رحمه الله : يقول الله تعالى ممتننا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام : ' 2 : 129 ' ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم " وقال تعالى : ' 3 : 164 ' " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم " وقال تعالى : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم " أي منكم ، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ، ومدخله ومخرجه ، وصدقه وأمانته وذكر الحديث . قال أبو سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم " قال : لم يصبه شيء في ولادة الجاهلية .

وقوله : " عزيز عليه ما عنتم " أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بعثت بالحنينية السمحنة " وفي الصحيح : " إن هذا الدين يسر " وشرعيته كلها سمحنة سهلة كاملة ، ميسيرة على من يسرها الله عليه .

قوله : حريص عليكم أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والآخرني إليكم . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طاير يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو

يذكر لنا منه علماً أخرجه الطبراني ، قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بقي شئ يقر من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم " .

وقوله : " بالمؤمنين رؤوف رحيم " كما قال تعالى : ' 16 : 215 ، 216 ، 217 ' واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم " وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله : " فإن تولوا " أي مما جثتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة " حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم " .

قلت : فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أمته أن أنذرهم وحدرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب ، وبين لهم ذرائعه الموصلة إليه ، وأبلغ في نهيهم عنها ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها ، والصلة عندها وإليها ، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها ، كما تقدم ، وكما سيأتي في أحاديث الباب .

لا تجعلوا قبرى عيдаً وصلوا على حيث كنتم

قوله : وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم " رواه أبو داود بإسناد حسن . رواته ثقات .

قوله : لا تجعلوا بيوتكم قبوراً قال شيخ الإسلام : أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة ، فتكون منزلة القبور ، فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريهما عند القبور ، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة .

وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً : " أجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً " وفي صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعاً : " لا تجعلوا بيوتكم مقابر فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه " .

قوله : ولا تجعلوا قبرى عيداً قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : العيد ما يعتاد مجئه وقصده من زمان ومكان ، مأخوذ من المعاودة والاعتياد . فإذا كان اسمأً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتسابه للعبادة وغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيضاً للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام

العيد فيها عيداً . وكان للمشركين أعياد زمنية ومكانية . فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وأعيد النحر وأيام منى ، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالкуبة ومنى ومزدلفة وعرفة المشاعر .

قوله : وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم .

قال شيخ الإسلام رحمة الله تعالى : يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم ، فلا حاجة لكم إلى اتخاذكم عيداً .

قوله : لا تجعلوا بيوتكم قبوراً تقدم كلام شيخ الإسلام في معنى الحديث قبله ا هـ .

قوله : وعن علي بن الحسين رضي الله عنه : " أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعوه ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم " رواه في المختار .
هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنة الإسنادين .

أما الأول : فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصانع قال : أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقربي عن أبي هريرة فذكره ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع قال فيه أبو حاتم : ليس بالحافظ ، تعرف وتتذكر . وقال ابن معين : هو ثقة وقال أبو زرعة : لا بأس به . قال شيخ الإسلام رحمة الله : ومثل هذا إذا كان لحديث شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة .
وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي : هو حديث حسن جيد الإسناد ، وله شواهد يرتفقى بها إلى درجة الصحة .

وأما الحديث الثاني : فرواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي في المختار .

قال شيخ الإسلام رحمة الله تعالى : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدنية وأهل البيت الذين لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب النسب وقرب الدار ، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكانوا له أضبط . ا هـ .

وقال سعيد بن منصور في سننه ، حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبارني سهيل بن أبي سهل قال : رأني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عند القبر ، فناداني ، وهو في بيت فاطمة رضي الله عنها يتعشى ، فقال : هلم إلى العشاء . فقلت : لا أريده . فقال : ما لي رأيتك عند القبر ؟ فقلت

: سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تتخذوا قبري عيدها ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيّثما كنتم ، لعن الله اليهود والنصارى اتخاذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ما أنتم وبني بالأندلس إلا سواء " .

وقال سعيد أيضاً : حدثنا حبان بن علي ، حدثنا محمد عجلان عن أبي سعيد مولى المهرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تتخذوا قبري عيدها ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني " .

قال شيخ الإسلام : فهذا المرسلان من هذين الموجين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لا سيما وقد احتج به من أرسله . وذلك يقتضي ثبوته عنده هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين ، فكيف وقد تقدم مسندأ .

قوله : على بن الحسين أئي ابن علي بن أبي طالب ، المعروف بزين العابدين رضي الله عنه ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم . قال الزهري : ما رأيت قرشياً أفضل منه . مات سنة ثلاثة وتسعين على الصحيح . وأبوه الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته ، حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضي الله عنه . قوله : أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة بضم الفاء وسكون الراء ، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما .

قوله : فيدخل فيها فيدعونا فنهاء هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاحة عندها .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : ما علمت أحداً رخص فيه ، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدها ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهى عنه ، لأن ذلك لم يشرع ، وكراه مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، قال : ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيصلون ، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجن ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل ، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك ، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ، بل نهاهم عنه في قوله " لا تتخذوا قبري عيدها وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني " فيبين أن الصلاة تصل إليه من بعد

وكذلك السلام ، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد . وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب ، إذا كانت عائشة رضي الله عنها فيها ، وبعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه ، لا للسلام ولا للصلوة ، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطبع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمتهم وأفتابهم ، وبين لهم الأحاديث ، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج ، كما طمع الشيطان في غيرهم فأصلهم عند قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويغتنيهم ويحدثهم في الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رأهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المراج

والقصد : أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعتادون والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف ، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قد من سفر . كما كان ابن عمر يفعله . قال عبيد الله بن عمر عن نافع كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله . السلام عليك يا أبا بكر . السلام عليك يا أبا تاه ثم ينصرف قال عبيد الله ما نعلم أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك إلا ابن عمر وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ، فكان بدعة ممحضة . وفي المبسوط : قال مالك : لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولكن يسلم ويمضي . ونص أحمد أنه يستقبل القبلة و يجعل الحجرة عن يساره لثلا يستدربه .

وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر ، وتنازعوا : هل يستقبله عند السلام عليه أم لا ؟ وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره وإلى غيره من القبور والمشاهد ، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً . بل من أعظم أسباب الإشكال بأصحابها . وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رحمه الله - أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها اختلاف العلماء ، فمن م البيح لذلك . كالغزالى وأبى محمد المقدسى . ومن مانع لذلك ، كابن بطة وابن عقيل ، وأبى محمد الجويني ، والقاضى عياض . وهو قول الجمهور ، نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة ، وهو الصواب . لما في الصحيحين عن أبى سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والممسجد الأقصى " فدخل في النهي شدها

لزيارة القبور والمشاهد ، فإنما أن يكون نهياً ، وإنما أن يكون نفياً . وجاء في رواية بصيغة النهي ، فتعين أن يكون للنهي ، ولهذا فهم منه الصحابة رضي الله عنهم المنع - كما في الموطأ والمسنن - عن بصرة بن أبي بصرة الغفارى أنه قال لأبي هريرة - وقد أقبل من الطور - : لو أدركت قبل أن تخرج إليه لما خرجت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، ومسجد الأقصى " وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قزعة قال : أتيت ابن عمر فقلت : إني أريد الطور . فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، ومسجد الأقصى . فدع عنك الطور ولا تأته فابن عمر وبصرة بن أبي بصرة جعلاً الطور مما نهى عن شد الرحال إليه . لأن اللفظ الذي ذكره فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة ، فعلم أن المستنى منه عام في المساجد وغيرها ، وأن النهي ليس خاصاً بالمساجد ، وللهذا نهياً عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث . والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة . فإن الله سماه الوادي المقدس ، والبقعة المباركة وكلمه موسى عليه السلام هناك ، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربع وجمهور العلماء ، ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الأحناش فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى . لأن المفسدة في ذلك ظاهرة .

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها : أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال ، ولا مزية تدعو إليه . وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب الصارم المنكي في رد السبكي ، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه ، مع أنها لا تدل على محل النزاع . إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة ، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال ، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة .

قوله : رواه في المختار المختار : كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة عن الصحيحين .

مؤلفه : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام . قال الذهبي : أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين ، والورع والفضيلة التامة والإتقان . فالله يرحمه ويرضى عنه .

وقال شيخ الإسلام : تصحّيحة في مختاراته خير من تصحّيحة الحاكم بلا ريب . مات سنة ثلث وأربعين وستمائة .

ما جاء في أن بعض هذه الأمة يعبدون الأوثان

قوله : باب (ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)

وقول الله تعالى : ' 4 : 51 ' ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبّت والطاغوت " .

الوثن يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام : ' 22 : 17 ' إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً " ومع قوله : ' 21 : 17 ' قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين " وقوله : ' 37 : 95 ' أتعبدون ما تنحتون " فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله ، كما تقدم في الحديث .

قول اليهود : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً

قوله : " يؤمنون بالجبّت والطاغوت " روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : جاء حبيبي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العناة ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنبور ، قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج من غفار . فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خيراً وأهدى سبيلاً فأنزل الله تعالى : " ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبّت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً " وفي مسند أحمد عن ابن عباس نحوه .

معنى (عبد الطاغوت) وقال الذين خلبوا على أمرهم إلخ

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجبّت السحر ، والطاغوت الشيطان وكذلك قول ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم . وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك الجبّت الشيطان - زاد ابن عباس : بالحبشية وعن ابن عباس أيضاً : الجبّت الشرك وعن الجبّت الأصنام وعن الجبّت : حبيبي بن أخطب وعن الشعبي الجبّت الكاهن وعن مجاهد : الجبّت كعب بن الأشرف قال الجوهرى الجبّت كلمة تقع على الصنم والكافر والساخر ونحو ذلك .

قال المصنف رحمة الله تعالى : وفيه معرفة الإيمان بالجبر والطاغوت في هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها ، مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟ .

قوله : قوله تعالى : ' 5 : 60 ' قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت " .

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد هل أخبركم بشر جراء عند الله يوم القيمة مما تظنو نه بنا ؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : من لعنه الله أي أبعده من رحمته وغضب عليه أي غضباً لا يرضى بعده أبداً " وجعل منهم القردة والخنازير " وقد قال الثوري عن علقة بن مرثد عن المغيرة بن عبد الله البشري عن المعرور بن سويد أن ابن مسعود رضي الله عنه قال " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير ، أهي مما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يهلك قوماً - أو قال لم يمسخ قوماً - فجعل لهم نسلاً ولا عقباً ، وإنما القردة والخنازير كانت قبل ذلك " رواه مسلم .

قال البعوي في تفسيره قل يا محمد هل أنبئكم أخبركم بشر من ذلك الذي ذكرتم ، يعني قولهم : لم نر أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شرّاً من دينكم ، فذكر الجواب بلفظ الإبتداء وإن لم يكن الإبتداء شرّاً ، لقوله تعالى : ' 22 : 72 ' قل فأنبئكم بشر من ذلك النار .

قوله : مثوبة ثواباً وجراً ، نصب على التفسير عند الله ، من لعنه الله أي هو من لعنه الله وغضب عليه يعني اليهود " وجعل منهم القردة والخنازير " فالقردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار مائدة عيسى . وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المحسنين كلهم من أصحاب السبت ، فشبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير .

وعبد الطاغوت أي وجعل منهم من عبد الطاغوت ، أي أطاع الشيطان فيما سول له ، وقرأ ابن مسعود عبدوا الطاغوت وقرأ حمزة و عبد بضم الباء ، و الطاغوت بجر التاء أراد العبد . وهما لغتان : عبد بسكون الباء ، وعبد بضمها ، مثل سبع وسبعين وقرأ الحسن عبد الطاغوت على الواحد

وفي تفسير الطبرسي : قرأ حمزة وحده عبد الطاغوت بضم الباء وجر التاء ، والباقيون عبد الطاغوت بمنصب الباء وفتح التاء . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم المخعي والأعمش وأبان بن تغلب عبد الطاغوت بضمن العين والباء وفتح الدال وخفض التاء ، قال : وحججة حمزة في قراءته

وعبد الطاغوت أنه يحمله على ما عمل فيه جعل كأنه : وجعل منهم عبد الطاغوت . ومعنى جعل خلق . كقوله وجعل الظلمات والنور وليس عبد لفظ جمع لأنه ليس من أبنية الجموع شئ على هذا البناء ، ولكنه واحد يراد به الكثرة ، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعرف ما لفظه الأفراد ومعناه الجمع ، كما في قوله تعالى : " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " ولأن بناء فعل يراد به المبالغة والكثرة نحو يقظ ودنس ، وكأن تقديره : أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب .

وأما من فتح فقال عبد الطاغوت فإنه عطفه على بناء المضي الذي في الصلة وهو قوله لعن الله وأفرد الضمير في عبد وإن كان المعنى فيه الكثرة ، لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه ، وفاعله ضمير من كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير من فأفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ . وأما قوله : عبد الطاغوت فهو جمع عبد .

وقال أحمد بن يحيى : عبد جمع عابد ، كباذل وبزل ، وشارف وشرف ، وكذلك عبد جمع عابد . ومثله عباد وعباد . ا ه .

وقال شيخ الإسلام في قوله عبد الطاغوت الصواب أنه معطوف على ما قبله من الأفعال ، أي من لعنه وغضبه عليه ، ومن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت . قال : والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله ، مظهراً أو مضمراً . وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت . وهو الضمير في عبد ولم يعد سبحانه من لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود .

قوله : أولئك شر مكاناً مما تظنون بنا وأضل عن سوء السبيل وهذا من باب استعمال أ فعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى : ' 25 : 24 ' أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرها وأحسن مقiliاً " قاله العمامي ابن كثير في تفسيره ، وهو ظاهر .

قوله : وقول الله تعالى : ' 18 : 21 ' قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً " والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله . لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد أراد تحذير أمته أن يفعلوا ك فعلهم .

لتتبعن سنن من كان قبلكم

قوله : عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ " أخرجاه وهذا سياق مسلم .

قوله : سُنن بفتح المهملة أي طريق من كان قبلكم . قال المهلب : فتح أولى .

قوله : حذو القذة بالقذة بنصب حذو على المصدر . والقذة بضم القاف واحدة القذذ وموريش السهم . أي لتبين طريقهم في كل ما فعلوه ، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى . وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة . وقد وقع كما أخبر ، وهو علم من أعمال النبوة .

قوله : حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وفي حديث آخر حتى لو كان فيهم من يأتي أمة علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك أراد صلي الله عليه وسلم أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلى فعلته كله لا تترك منه شيئاً ولهذا قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . ا ه .

قلت : بما أكثر الغريقين ، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلاله كما في حديث ثوبان الآتي قريباً .

قوله : قالوا يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ هو برفع اليهود خبر مبتدأ محذوف ، أي أهم اليهود والنصارى الذين تتبع سنتهم ؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره : تعني

قوله : قال فمن ؟ استفهام إنكارى . أي فمن هم غير أولئك ؟

حديث ثوبان : إن الله زوى لي الأرض إلخ

قوله : ولسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : " إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها وغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها . وأعطيت الكنزين : الأحمر ، والأبيض . وإنني سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإن ربى قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإن أعطيتك لأمتك أن لا يهلكها بسنة بعامة . وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بإقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً " ورواه البرقاني في صحيحه وزاد " وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضللين . وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيمة ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي ، بالشركين وحتى تعبد فثام من أمتي الأوثان . وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثة ، كلهم يزعم أنهنبي ، وأنا خاتم النبيين لانبي بعدي ، ولا

تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى ” . هذا الحديث رواه أبو داود في سننه وابن ماجه بالإضافة التي ذكرها المصنف .

قوله : عن ثوبان هو مولى النبي صلى الله عليه وسلم صحبه . ولازمه . ونزل بعده الشام ومات بمحض سنة أربع وخمسين .

قوله : زوى لي الأرض قال التوربشتى : زويت الشئ جمعته وقبضته ، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه إطلاعه على القريب . وحاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرأة ينظره . قال الطيبى : أي جمعها ، حتى بصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها .

قوله : وإن أمتي سينبغ ملكها ما زوى لي منها قال القرطبي : هذا الخبر وجد مخبره كما قال ، وكان ذلك من دلائل نبوته ، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة - بالنون والجيم - الذي هو منتهى عمارة المغرب ، إلى أقصى الشرق مما هو وراء خراسان والنهر ، وكثير من بلاد السندي والهند والصعد ، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال . وذلك لم يذكر عليه السلام أنه أربىه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه .

قوله : زوى لي منها يحتمل أن يكون مبيناً للفاعل ، وأن يكون مبنياً للمفعول .

قوله : وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض قال القرطبي : عني به كنز كسرى ، وهو ملك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبладهما . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله " وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كالذهب ، وبال أبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة . وووجد ذلك في خلافة عمر . فإنه سبق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله ، وجميع ما حوتة مملكته على سعتها وعظمتها ، وكذلك فعل الله بقيصر والأبيض والأحمر منصوبان على البدل .

قوله : وإنني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله بعامة بالباء وهي روایة صحيحة في صحيح مسلم وفي بعضها بحذفها . قال القرطبي : وكأنها زائدة لأن عامة : صفة السنة ، والسنة الجدب الذي يكون به الهلاك العام ، ويسمى الجدب والقطح : سنة . يجمع على سنين ، كما قال تعالى : ' 7 : 130 ' ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين " أي الجدب المتواتي .

قوله : من سوى أنفسهم أي من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً ، وسبى بعضهم بعضاً ، كما هو مبسوط في التاريخ فيما قيل . وفي زماننا هذا ، نسأل الله العفو والعافية .

قوله : فيستبيح بيضتهم قال الجوهري : بيضة كل شئ جوزته . وببيضة القوم ساحتهم ، وعلى هذا فيكون معنى الحديث : إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض ، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها . وقيل : بيضتهم معظمهم وجماعتهم ، وإن قلوا .

قوله : حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً والظاهر أن حتى عاطفة ، أو تكون لانتهاء الغاية ، أي إن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً . وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع ، وذلك لكثره اختلافهم وتفرقهم .

قوله : وإن ربي قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد قال بعضهم : أي إذا حكمت حكماً مبرماً نافذاً فإنه لا يرد بشئ ، ولا يقدر أحد على رده ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ولا راد لما قضيت .

قوله : رواه البرقاني في صحيحه هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي الشافعي . ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعين . قال الخطيب : كان ثبتاً ورعاً ، لم نر في شيوخنا أثبت منه ، عارفاً بالفقه كثير التصانيف . صنف مسندًا ضمنه ما أشتمل عليه الصحيحان . وجمع حديث الثوري وحديث شعبية وطائفة .

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنته إلى أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله - أو قال إن ربي - زوى لي الأرض فأربت مشارق الأرض ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها . وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض . وإنني سألت لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ولا يسلط عليهم عدواً سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وأن ربي قال لي : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، ولا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وإن ربي قال لي : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، ولا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال : بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وحتى يكون بعضهم يسبى بعضاً . وإنما أخاف على أمتي الأئمة المسلمين . وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيمة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل أمتي بالشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان وإنه سيكون في

أمتی كذابون ثلاثة يزعم أنه نبی ، وأنا خاتم النبیین لا نبی بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتی على الحق - قال ابن عیسی : ظاهرين ثم اتفقا لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى .

وروى أبو داود أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلی الله عليه وسلم أنه قال : " تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين ، أو سبع وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم يقم سبعين عاماً " قلت : أما بقى أو مما مضى ؟ قال : مما مضى .

وروى في سننه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلی الله عليه وسلم : " يتقارب الزمان وينقص العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى الشح ، ويكثر الهرج ، قيل : يا رسول الله أية هو ؟ قال : القتل القتل " .

قوله : وإنما أخاف على أمتی الأئمة المضلین أي الأماء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيفضلونهم ، كما قال تعالى : ' 33 : 67 ' وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلنا السبيل ' وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه : من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيتها له ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ، ونحو هذا . وهذا هو الضلال البعید ، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتغريج كرباتها ، وقد قال تعالى : ' 22 : 12 ، 13 ' يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعید * يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير " وقال تعالى : ' 25 : 3 ' واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً " وقال تعالى : ' 29 : 17 ' فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون " وأمثال هذا في القرآن كثير ، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال .

ومن هذا الضرب : من يدعى أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف ، ويدعى أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضررون ويدبرون الأمور على سبيل الكراهة ، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ، يعلم أسرار الناس وما في ضمائهم ، ويجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وإيقادها بالسرج ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله . فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحاداة لله ولكتابه ولرسوله .

قوله صلى الله عليه وسلم : " وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضللين " أتى بإنما التي قد تأتي للحصر بياناً لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال ، وما وقع في خلد النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله : " لتتبعن سنن من كان قبلكم ... " الحديث .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضللون " رواه أبو داود الطيالسي . وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما أخاف على أمتي الأئمة المضللين " رواه الدارمي .

وقد بين الله تعالى في كتابه صراطه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين . فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون وحده مردود ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيمة صرفاً ولا عدلاً " وقال : " من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد " وقال : " كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله " وهذه أحاديث صحيحة . ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها . وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز كما قال تعالى : ' ٣ : ٧ ' اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون " وقال تعالى : ' ٤٥ : ١٨ ' ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون " ونظائرها في القرآن كثير .

وعن زياد بن حذير قال : قال لي عمر رضي الله عنه : هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت : لا ، قال يهدمه زلة العالم ، وجداول المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضللين رواه الدارمي .

وقال يزيد بن عمير : كان معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يجلس مجلساً للذكر إلى ويقول : الله حكم قسط : هلك المرتابون - وفيه : فاحذروا زبعة الحكيم فإن الشيطان قد يقول الضلال على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . قلت معاذ : وما يدرني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلال ، والمنافق قد يقول كلمة الحق ؟ فقال : اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقول : ما هذه : ولا يثنيك ذلك عنه ، فإنه لعله أن يراجع الحق ، وتلق الحق إذا سمعته ، فإن على الحق نوراً رواه أبو داود وغيره .

قوله : وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيمة وكذلك وقع . فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع ، وكذلك يكون إلى يوم القيمة ، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى ، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى .

قوله : ولا تقوم بالساعة حتى يلحق حي من أمتى بالشركين الحي واحد الأحياء وهي القبائل : وفي رواية أبي داود حتى يلحق قبائل من أمتى بالشركين والمعنى : أنهم يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ويلحقون بأهل الشرك .

وقوله : حتى تعبد فئام من أمتى الأوثان الفئام بكسر الفاء مهموز الجماعات الكبيرة ، قاله أبو السعادات .

وفي رواية أبي داود : حتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان .

وهذا هو شاهد الترجمة ، فيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان . وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما ينافقه من الشرك والتنديد ، فالتوحيد هو أعظم مطلوب والشرك هو أعظم الذنوب .

وفي معنى هذا الحديث : ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : " لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة قال : ذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية " وروى ابن حبان عن معمر قال : إن عليه الآن بيته مبنياً مغلقاً .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في قصة هدم اللات ، لما أسلمت ثقيف : فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً ، وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور ، والتي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله ، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة ، أو أعظم شركاً عندها وبها . فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة ، وغلب الشرك على أكثر النفوس ، لظهور الجهل وخفاء العلم ، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، وطمست الأعلام ، واشتدت غربة الإسلام ، وقل العلماء ، وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد ، في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين اهـ ملخصاً .

قلت : فإذا كان هذا في القرن السابع قبله ، مما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع .

سيكون في أمتى كذابون ثلاثة

وقوله : وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثة يزعم أنه نبي قال القرطبي : وقد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون ، منهم أربع نسوة " أخرجه أبو نعيم . وقال : هذا حديث غريب . انتهى .
وحيث ثوبان أصح من هذا .

قال القاضي عياض : عد من تنبأ من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآن من اشتهر بذلك وعرف وأتبعه جماعة على ضلاله . فوجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الأخبار والتاريخ عرف صحة هذا .

وقال الحافظ : وقد ظهر مصدق ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامية ، والأسود العنسي باليمن ، وفي خلافة أبي بكر : طليحة بن خوبيل فيبني أسد بن خزيمة ، وسجاح فيبني تميم ، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، قتله وحشى قاتل حمزة يوم أحد ، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار ، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه . ونقل أن سجاح تابت أيضاً . ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة الزبير . وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين ، فتتبعهم فقتل كثيراً من باشر ذلك ، وأغان عليه . فأحبه الناس ، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريلاً عليه السلام يأتيه . ومنهم الحرش الكذاب ، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل . وخرج في خلافةبني العباس جماعة .

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً . فإنهم لا يصحون كثرة لكون غالبيهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوء . وإنما المراد من قامت له شوكة وبدأ له شبهة كمن وصفنا . وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر .

قوله : وأنا خاتم النبيين قال الحسن . الخاتم الذي ختم به يعني أنه آخر النبيين ، كما قال تعالى : ' 33 : 40 ' ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين " وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكماً بشرعية محمد صلى الله عليه وسلم مصلياً إلى قبلته . فهو أحد من أئمته ، بل هو أفضل هذه الأئمة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقوساً . فليكسرن الصليب ، وليرقبن الخنزير ، ولریضعن الجزية " .

قوله : ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم قال يزيد بن هرون ، وأحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم ؟ .
قال ابن المبارك وعلي بن المديني ، وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم إنهم أهل الحديث وعن ابن المديني رواية هم العرب واستدل برواية من روى ، هم أهل الغرب . وفسر الغرب بالدلالة العظيمة ، لأن العرب هم الذين يستقون بها .

قال النووي : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب ، وفقيه ومحدث ومفسر ، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد ، وافتراقهم في أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه ، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً بأول إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقضوا جاء أمر الله . اهـ ملخصاً مع زيادة فيه . قاله الحافظ .

قال القرطبي : وفيه دليل على أن الإجماع حجة لأن الأمة اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة .

قال المصنف رحمه الله : وفي الآية العظيمة : أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . وفيه البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية .

قتل : واحتج به الإمام أحمد على أن الإجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة .
قوله : حتى يأتي أمر الله الظاهر أن المراد به ما روى من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة ، ووقوع الآيات العظام ، ثم لا يبقى إلا شرار الناس ، كما روى الحكم أن عبد الله بن عمر قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر أهل الجاهلية فقال عقبة بن عامر لعبد الله : اعلم ما تقول ، وأما أنا فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك قال عبد الله : ويبعث الله ريحًا ريحها المسك ، ومسها مس الحرير فلا تترك أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة وفي صحيح مسلم : لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله .

وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه حتى تأتيهم الساعة ساعتهم وهي وقت موتهم بهبوب الريح . ذكره الحافظ .

وقد اختلف في محل هذه الطائفة ، فقال ابن بطال : إنها تكون في بيت المقدس ، كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة قيل : يا رسول الله ، أين هم ؟ قال : بيت المقدس وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : هم بالشام وفي كلام الطبرى ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائمًا ، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة .

قلت : ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس ، فإنهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيما من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن ، فإنهم كانوا في زمانهم على الحق يدعون إليه ، وبناظرون عليه ، ويجاهدون فيه . وقد يجيء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة . والله على كل شيء قادر .

ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنّة في زمن الأئمة الأربعـة وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا في محل واحد ، بل هم في غالب الأمصار في الشام منهم الأئمة ، وفي الحجار وفي مصر ، وفي العراق واليمن ، وكلهم على الحق يناضلون ، ويجاهدون أهل البدع ، ولهم المصنفات التي صارت أعلاماً لأهل السنّة ، وحجة على كل مبتدع .

فعلى هذا ، فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق ، وقد تكون في الشام ، وقد تكون في غيره ، فإن حديث أبي أمامة ، وقول معاذ ، لا يفيد حصرها بالشام وإنما يفيد أنها تكون في الشام في مصر بعض الأزمنة لا في كلها .

وكل جملة من هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، فإن كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

وقوله : تبارك وتعالى قال ابن القيم : البركة نوعان :

أحدهما : بركة هي فعلة والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة وبأدأة على تارة ، وبأدأة في تارة ، والمفعول منها مبارك . وهو ما جعل منها كذلك ، فكان مباركاً يجعله تعالى .

والنوع الثاني : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ، والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ، ولا يصلح إلا له عز وجل ، فهو سبحانه المبارك ، وعبده رسوله المبارك ، كما قال المسيح عليه السلام : ' 30 ' وجعلني مباركاً أين ما كنت " فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك .

وأما صفة تبارك فمحخصة به ، كما أطلقه على نفسه في قوله : ' 54 ' تبارك الله رب العالمين " ' 76 : 1 " تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قادر " أفلأ تراها كيف اطربت في

القرآن جارية عليه مختصة به ، لا تطلق على غيره ؟ وجاءت على بناء السعة والبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوه ، فجاء بناء تبارك على بناء تعالي الذي هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمته وسعتها . وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك تعاظم . وقال ابن عباس رضي الله عنهم : جاء بكل بركة .

ما هو الجبٰت والطاغوت

قوله : قال عمر رضي الله عنه : الجبٰت : السحر . والطاغوت : الشيطان هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره .

قوله : وقال جابر : الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قال : سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها ، فقال : إن في جهنمة واحداً ، وفي أسلم واحداً ، وفي هلال واحداً ، وفي كل حي واحداً ، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين .

قوله : قال جابر هو عبد الله بن حرام الأنباري .

قوله : الطواغيت كهان أراد أن الكهان من الطواغيت : فهو من إفراد المعنى .

قوله : كان ينزل عليهم الشيطان أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة ، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقو من السمع ، فيصدقون مرة وينكذبون مائة .

قوله : في كل حي واحد الحي واحد الأحياء ، وهم القبائل ، أي في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسأله عن الغيب ، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فأبطل الله ذلك بالإسلام وحرست السماء بكثرة الشهب .

السبع الموبقات

قوله : وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، وال술 ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحسنات الغافلات المؤمنات " .

كذا أورده المصنف غير معزو . وقد رواه البخاري ومسلم .

قوله : اجتنبوا أي أبعدوا ، وهو أبلغ من قوله : دعوا واتركوا ، لأن النهي عن القربان أبلغ ، قوله : ' 6 : 141 ' ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن " .

قوله : الموبقات بمودحة وقاف . أي المهلكات . وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب .

وفي حديث ابن عمر عند البخاري في الآدب المفرد والطبراني في التفسير ، وعبد الرزاق مرفوعاً وموقوفاً قال : الكبائر تسع - وذكر السبع المذكورة - وزاد : والإلحاد في الحرم ، وعوق الوالدين ولابن أبي حاتم عن علي قال : الكبائر - ذكر السبع - إلا مال اليتيم ، وزاد - العقوق ، والتعرّب بعد الهجرة ، وفراق : الجماعة ونكث الصفة .

قال الحافظ : ويحتاج عندي هذا الجواب عن الحكمة في الاقتصر على سبع .

ويحاجب : بأن مفهوم العدد ليس بحججة وهو ضعيف ، أو بأنه أعلم أو لا بالذكرات . ثم أعلم بما زاد ، فيجب الأخذ بالزائد ، أو أن الاقتصر وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل .

وقد أخرج الطبراني وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له : الكبائر سبع قال : هن أكثر من سبع وسبعين وهي إلى سبعين أقرب وفي رواية : إلى السبعين .

قوله : قال الشرك بالله هو أن يجعل لله ندأً يدعوه ويرجوه ، ويحافظه كما يخاف الله ، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود " سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندأً وهو خلقك ، ..." الحديث ، وأخرج الترمذى بسنده عن صفوان بن عسال قال : قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي ، فقال له صاحبه : لا تقلنبي ، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين ، فأتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن تسعة آيات بينات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقدّروا محسنة ، ولا تولوا للفار يوم الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تدعوا في السبت . فقبلًا يديه ورجليه . وقالا : نشهد أنك نبي ..." الحديث . وقال : حسن صحيح .

قوله : السحر تقدم معناه . وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة .

قوله : وقتل النفس التي حرم الله أي حرم قتلها . وهي نفس المسلم المعصوم .

قوله : إلا بالحق أي بأن تفعل ما يوجب قتلها . كالشرك والنفس بالنفس ، والزاني بعد الإحسان ، وكذا قتل المعاهد ، كما في الحديث "من قتل معاهداً لم يرِح رائحة الجنة " .

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً ، وهل له توبة أم لا ؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له ، استدلاً بقوله تعالى : ' 4 : 93 ' ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها " وقال ابن عباس نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء وفي رواية : لقد نزلت في آخر ما نزل وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نزل وهي روى في ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء ، كما عند الإمام أحمد والنسائي وابن المنذر عن معاوية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً " .

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ، فإن تاب وأناب عمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات ، كما قال تعالى : ' 25 : 68 - 71 ' " والذين لا يدعون مع الله إليها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيمة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا " الآيات .

قوله : ومن يقتل مؤمناً متعمداً قال أبو هريرة وغيره هذا جزاؤه إن جازاه .
وقد روی عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور ، فروی عبد بن حميد والنحاس عن سعید بن
عبدة أن ابن عباس رضي الله عنه كان يقول : لمن قتل مؤمناً توبة وكذلك ابن عمر رضي الله عنهم .
وروی مرفوعاً " أن جزاءه جهنم إن جازاه " .

قوله : وَأَكَلَ الرِّبَا أَيْ تَنَوُّلَهُ بِأَيْ وَجْهٍ كَانَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ' 275 - 280 ' الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الظِّيَّارُ بِتَخْبِطِهِ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمُسْ " الْآيَات . قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : وَهُوَ مُجْرِبٌ لِسُوءِ الْخَاتِمَةِ . نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

قوله : وَأَكْلَ مَالَ الْيَتَيمِ يَعْنِي التَّعْدِي فِيهِ . وَعِبْرَ بِالْأَكْلِ لَأَنَّهُ أَعْمَ وَجْهَ الْإِنْفَاعِ ، كَمَا قَالَ تَعْلَى : ' ٤ : ١٠ ' ٧ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظَلَمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بَطْوَنِهِمْ نَارًا وَسِيَصُلُونَ سَعِيرًا ' .

قوله : والتولى يوم الزحف أي الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال ، وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال . كما قيد به في الآية .

قوله : وقذف المحسنات الغافلات المؤمنات وهو بفتح الصاد : المحفوظات من الزنا ، وبكسرها الحافظات فووجه منه ، والراد بالحراء العفيقات ، والراد ، مبینه بننا أو لواط . والغافلات ، أي

عن الفواحش وما رمبن به . فهو كنایة عن البريئات . لأن الغافل بريء عما بهت به . والمؤمنات ، أي بالله تعالى احترازاً من قذف الكافرات .

حد الساحر : ضربه بالسيف

قوله : وعن جندب مرفوعاً " حد الساحر ضربه بالسيف " رواه الترمذى وقال : الصحيح أنه موقف .

قوله : عن جندب ظاهر صنيع الطبراني في الكبير أنه جندب بن عبد الله البجلي . لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر فإنه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم . وخالد العبد ضعيف . قال الحافظ : والصواب أنه غيره . وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الخير : أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - فذكره وجندب الخير هو جندب بن كعب ، وقيل: جندب بن زهير ، وقيل : هما واحد ، كما قال ابن حبان : أبو عبد الله الأزدي الغامدي صحابي روى ابن السكن من حديث بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يضرب ضربة واحدة فيكون أمة واحدة " .

قوله : حد الساحر ضربه بالسيف وروى بالهاء وبالباء ، وكلاهما صحيح .

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا : يقتل الساحر . وروى ذلك عن عمر ، وعثمان ، وابن عمر ، وحفصة ، وجندب بن عبد الله ، وجندب بن كعب ، وقيس ابن سعد ، وعمر بن عبد العزيز ، ولم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر . وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد . والأول أولى للحديث ولأثر عمر ، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير .

قال : وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال فقتلنا ثلاثة سواحر .

هذا الأثر رواه البخاري كما قال المصنف رحمة الله ، لكن لم يذكر قتل السواحر .

قوله : عن بجالة بفتح المودحة بعدها جيم ، ابن عبدة بفتحتين ، التميمي العنبري بصرى ثقة .

قوله : كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة وظاهره أنه يقتل من غير استتابة . وهو كذلك على المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك ، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة . وعن

أحمد يستتاب ، فإن تاب قبلت توبته ، وبه قال الشافعي لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك ، والشرك يستتاب وتقبل توبته ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

قوله : وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلتها .
هذا الأثر وراث مالك في الموطأ .

وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد خينس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين .

قوله : وكذلك صح عن جندي أشار المصنف بهذا إلى قتلة الساحر كما رواه البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي قال : كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا ، فأعاد رأسه فجاء جندي الأزدي فقتله ورواه البيهقي في الدلائل مطولاً . وفيه فأمر به الوليد فسجن فذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة .

قوله : قال أحمد عن ثلات من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحمد هو الإمام ابن محمد بن حنبل .

قوله : عن ثلاثة أي صح قتل الساحر عن ثلاثة ، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، يعني عمر ، وحفصة ، وجندبأ . والله أعلم .

باب بيان شيءٍ من أنواع السحر

قوله : باب (بيان شيءٍ من أنواع السحر)

قلت : ذكر الشارح رحمه الله تعالى ها هنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيراً من العوام والجهال ، وظنوا أنها تدل على ولایة من جرت على يديه من هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال : ولشيخ الإسلام كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فراجعه . انتهى .

قال رحمه الله تعالى قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا عوف عن حيان ابن العلاء ، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن العيافة ، والطرق ، والطير من الجبـت " قال عوف : العيافة زجر الطير ، والطرق الخط يخط في الأرض ، والجبـت : قال الحسن رنة الشيطان إسناده جيد . ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه : المسند منه .

قوله : قال أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل .

ومحمد بن جعفر هو المشهور بغمدر الهذلي البصري ، ثقة مشهور ، مات سنة ست ومائتين .
وعوف هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدي البصري ، المعروف بعوف الأعرابي ، ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين ، وله ست وثمانون سنة .

وحيان بن العلاء هو بالتحتية ، ويقال حيان بن مخارق ، أبو العلاء البصري ، مقبول .
وقطن ، بفتحترين أبو سهل البصري صدوق .
قوله : عن أبيه هو قبيصة - بفتح أوله - ابن مخارق - بضم الميم - أبو عبد الله الهلالي . صحابي ، نزل البصرة .

قوله : إن العيافة والطرق والطيرة من الجبٍ قال عوف : العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ، وهو من عادات العرب ، وكثير من أشعارهم ، يقال : عاف يعف عيفاً ، إذا زجر وحدس وظن .

قوله : والطرق الخط يخط الأرض كذا فسره عوف ، وهو كذلك .
وقال أبو السعادات : هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء . وأما الطيرة فيأتي الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى .

قوله : من الجبٍ أي السحر . قال القاضي : والجبٍ في الأصل الفضل الذي لا خير فيه ، ثم استعير لما يعبد من دون الله ، وللساحر والسحر .

قوله : قال الحسن : رنة الشيطان قلت : ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح أن في تفسير بقي بن مخلد أن إبليس رن أربع رنات : رنة حين لعن ، ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب . قال سعيد بن جبیر : لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورن رنة ، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيمة . رواه ابن أبي حاتم . وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة رن إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده . رواه الحافظ الضياء في المختارة : الرنين الصوت . وقد رن بين رنيناً ، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى .

قوله : ولأبي داود وابن حبان في صحيحه : المسند منه ولم يذكر التفسير الذي فسره به عوف .
وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن .

قوله : وعن أبي عباس رضي الله عنهمما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد " رواه أبو داود بإسناد صحيح وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه .

قوله : من اقتبس قال أبو السعادات : قبست العلم واقتبسته إذا علمته أه .

قوله : شعبة أي طائفة من النجوم علم . والشعبة الطائفة . ومنه الحديث " الحياة شعبة من الإيمان " أي جزء منه .

قوله : فقد اقتبس شعبة من السحر المحرم تعلمه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : فقد صرخ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن علم النجوم من السحر ، وقال تعالى : ' 20 : 69 ' ولا يفلح الساحر حيث أتي ' .

قوله : زاد ما زاد من تعلم علم النجوم زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه ، فإن ما يعتقد في النجوم من التأثير باطل ، كما أن تأثير السحر باطل .

من سحر فقد أشرك

قوله : وللنمسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : " من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك . ومن تعلق شيئاً وكل إليه " هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي . وقد رواه النمسائي مرفوعاً وحسنه ابن مفلح .

قوله : وللنمسائي هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها . وروى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق ، وكان إليه المنتهي في العلم بعمل الحديث ، مات سنة ثلاثة وثلاثمائة ، وله ثمان وثمانون سنة رحمه الله تعالى .

قوله : من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة ، حتى ينعقد ما يريدون من السحر ، قال الله تعالى : " ومن شر النفات في العقد " يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك ، والنفث هو النفخ مع الريق ، وهو دون التفل . والنفث فعل الساحر ، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريد المسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقيدة نفخاً معه ريق . فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك ، وقد يتتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكوني القدر لا الشرعي ، قاله ابن القيم رحمه الله تعالى .

قوله : ومن سحر فقد أشرك نص في أن الساحر مشرك ، إذا لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم .

قوله : ومن تعلق شيئاً وكل إليه أي من تعلق قلبه شيئاً : بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشئ . فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شئ ومليكه ، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه . فنعم المولى ونعم النصير . قال تعالى: ' 36 : 39 ' أليس الله بكاف عبده " ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلق فهلك . ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عياناً ، وهذا من جوامع الكلم . والله أعلم .

قال : وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة ، القالة بين الناس " رواه مسلم .

قوله : ألا هل أنبئكم أخبركم و العضه بفتح المهملة وسكن المعجمة ، قال أبو السعادات : هكذا يروي في كتب الحديث . والذي في كتب الغريب ألا أنبئكم ما العضه بكسر العين وفتح الضاد . قال الزمخشري : أصلها العضمة فعلة من العضة وهو البهت . فحذفت لامه ، كما حذفت من السنة والشفة ، وتجمع على عضين ثمن فسره بقوله : هي النميمة القالة بين فأطلق عليها العضه لأنها لا تنفك من الكذب والبهتان غالباً . ذكره القرطبي .

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثیر قال : يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة . وقال أبو الخطاب في عيون المسائل : ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس . قال في الفروع : ووجهه أن يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة ، أشبه السحر ، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله السحر ، أو أكثر فيعطي حكمه تسويية بين التمااثلين أو المتقاربين . لكن يقال : الساحر إنما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص ، وهذا ليس بساحر . وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطي حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة . انتهى ملخصاً .

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة . وهو يدل على تحريم النميمة ، وهو مجمع عليه قال ابن حزم رحمه الله : اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة . وفيه دليل على أنها من الكبائر .

قوله : القالة بين الناس قال أبو السعادات : أي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس ومنه الحديث : " فشت القالة بين الناس " .

إن من البيان لسحراً

قال : ولهمما عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من البيان لسحر " البيان البلاحة والفصاحة . قال صعصعة بن صوحان : صدق نبي الله ، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو أحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وقال ابن عبد البر تأوله طائفة على الذم . لأن السحر مذموم ، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح . لأن الله تعالى مدح البيان . قال : وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله . قال : هذا والله السحر الحلال انتهى . والأول أصح والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس ، كما قال بعضهم :

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخذ من قول الشاعر :

تقول : هذا مجاج النحل ، تمدحه وإن تشاً قلت : ذا قيء الزنابير
مدحاً وذماً ، وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير
قوله : إن من البيان لسحراً هذا من التشبيه البليغ ، لكون ذلك يعمل عمل السحر ، فيجعل الحق في قالب الباطل ، والباطل في قالب الحق . فيستميل به قلوب الجهال ، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق ، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى .

وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبينه . فهذا هو المدوح . وهكذا حال الرسل وأتباعهم ، ولهذا علت مراتبهم في الفضائل وعظمت حسناتهم . وبالجملة فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب ، وتغطية الحق ، وتحسين الباطل . فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم . وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث " إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها " رواه أحمد وأبو داود .

باب ما جاء في الكهانة

قوله : (باب ما جاء في الكهان ونحوهم)

الكافر هو الذي يأخذ عن مسترق السمع ، وكانوا قبل المبعث كثيراً . وأما بعد المبعث فإنهم قليل . لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب . وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من

الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار ، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة ، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن ولِيَ اللَّهُ . وهو من أولياء الشيطان ، كما قال تعالى : ' 6 : 128 ' ويوم يحشرهم جمِيعاً يا معاشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن رب حكيم علِيم " .

من أتى عرافاً فصدقه لا تقبل له صلاة

قوله : روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أتي عرافاً فسألة عن شيء ، فصدقه بما يقول ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً "

قوله : عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم هي حفصة ، ذكره أبو مسعود الثقفي . لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها .

قوله : من أتى عرافاً سياطي بيان العرف إن شاء الله تعالى . وظاهر هذا الحديث أن الوعيد مرتب على مجئه وسؤاله ، سواء صدقه أو شك في خبره . فإن في بعض روايات الصحيح "من أتى عرافاً فسألة عن شيء لم تقبل له صلاة الأربعين ليلة " .

قوله : لم تقبل له صلاة إذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسئول ؟ قال النووي وغيره : معناه أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجرئة بسقوط الفرض عنه ، ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث ، فإن العلماء متتفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة . اهـ ملخصاً . وفي الحديث النهي عن إتيان الكاهن ونحوه . قال القرطبي : يجب على من قدر على ذلك من محتبس وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير ، وعلى من يجيء إليهم ، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يجيء إليهم من ينتسب إلى العلم ، فإنهم غير راسخين في العلم بل من الجهل بما في إتيانهم من المحذور .

من أتي كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد

قال : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم " رواه أبو داود .

وفي رواية أبي داود أو أتى امرأة - قال مسدد : امرأته حائضاً - أو أتى امرأة . قال مسدد : امرأته في دبرها - فقد بريء مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فنال هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة .

قال : وللأربعة والحاكم - وقال صحيح على شرطهما عن النبي صلى الله عليه وسلم من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

هكذا بيض المصنف لاسم الرواوي . وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً . قوله : من أتى كاهناً قال بعضهم لا تعارض بين هذا وبين حديث من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة هذا على قول من يقول هو كفر دون كفر ، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديدين . وظاهر الحديث أن يكفر متى اعتقاد صدقه بأي وجه كان . وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين .

قوله : فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم قال القرطبي : المراد بالمنزل الكتاب والسنة . اهـ . وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر ، فلا ينفل عن الله ، أم يتوقف فيه ، فلا يقال يخرج عن الله ولا يخرج ؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمة الله تعالى .

قال : ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله مرفوعاً .

أبو يعلى اسمه أحمد بن علي بن المثنى الموصلى الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره . روى عن يحيى بن معين وأبى بكر بن أبى شيبة وخلق . وكان من الأئمة الحفاظ ، مات سنة سبع وثلاثمائة ، وهذا الأثر رواه البزار أيضاً ولفظه : من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر ، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً .

التحذير من الطيرة . والكهانة وال술

قال : وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً " ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر أو سحر له . ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم " رواه البزار بإسناد جيد ، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : ومن أتى كاهناً الحديث .

قوله : ليس منا فيه وعيٍ شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة وال술 .
كفر .

قوله : من تطير أي فعل الطيرة أو تطير له أي قبل قول المتطير له وتابعه كذا معنى أو تكهن أو
تكهن له كالذي يأتي الكاهن ويصدقه ويتبعه ، وكذلك من عمل الساحر له السحر .

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد بريء منه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونها إما
شراكاً ، كالطيرة ، أو كفراً كالكهانة وال술 ، فمن رضي بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل
وابتعاه .

قوله : رواه البزار هو أحمد بن عبد الخالق ، أبو بكر البزار البصري صاحب المسند الكبير
وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق ، مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

قوله : قال البغوي إلى آخره البغوي - بفتحتين - هو الحسين بن مسعود الفراء الشافعي ،
صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان ، كان ثقة ، فقيهاً زاهداً ، مات في شوال سنة ست عشرة
وخمسين وسبعين رحمة الله تعالى .

من هو الكاهن والعرف

قوله : العرف : الذي يدعى معرفة الأمور ظاهرة : أن العرف هو الذي يخبر عن الواقع
كالسرقة وسارقهها والضالة ومكانها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى : إن العرف اسم للكاهن والمنجم والرمالي ونحوهم ،
والحارز الذي يدعى علم الغيب أو يدعى الكشف .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم العرف ، وعند بعضهم هو معناه .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء ، وحكى ذلك عن
العرب . وعند آخرين هو من جنس الكاهن ، وأسوأ حالاً منه ، فيلحق به من جهة المعنى .

وقال الإمام أحمد : العرافة طرف من السحر . والساحر أخبث .

وقال أبو السعادات : العرف المنجم ، والحارز الذي يدعى علم الغيب ، وقد استأثر الله تعالى به

وقال ابن القيم رحمة الله تعالى : من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً ، وعرافاً .

والمقصود من هذا : معرفة أن من يدعى معرفة علم الشئ من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن ، وإنما مشارك له في المعنى فيلحق به . وذلك أنإصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف . ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفال والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ، ونحو هذا من علوم الجاهلية ، وتعني بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام ، كال فلاسفة والكهان والمنجمين ، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم ، وكل هذه الأمور تسمى صاحبها كاهناً أو عرافاً أو في معناهما ، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة .

ولا ريب أن من ادعى الولاية ، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ، إن الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى ، إما بدعاً أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها ، ولا قدرة له عليها ، بخلاف من يدعى أنه ولد ويقول للناس : اعلموا أنني أعلم المغيبات ، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب ، وإن كانت أسباباً محربة كاذبة في الغالب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الكاهن : فيكذبون معها مائة كذبة فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة ، وهكذا حال من سلك سبيل الكاهن من يدعى الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله : ' 53 : 32 ' فلا تزكوا أنفسكم " وليس هذا من شأن الأولياء ، فإن شأنهم الإذراء على نفوسهم وعيوبهم لها ، وخوفهم من ربهم ، فكيف يأتون الناس ويقولون : اعرفوا أننا أولياء ، وأنا نعلم الغيب ؟ وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور . وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، وهم سادات الأولياء ، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شئ ؟ لا والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن ، كالصديق رضي الله عنه ، وكان عمر رضي الله عنه يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته ، وكان يمر بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه ، وكان تميم الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ثم يقوم إلى صلاته . وبكيفك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء ، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبراء والعظمة وعلم الغيب ، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر . فكيف يكون المدعى لذلك ولِيَ الله ؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء

المفترفين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ، ولبسوا بها على خفافيش القلوب : نسأل الله السلامه والعا فيه في الدنيا والآخرة .

قوله : وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد إلى آخره هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً . وإسناده ضعيف . ولفظه " رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيمة " ورواه حمد بن زنجويه عنه بلفظ رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق .

قوله : ما أرى بجوز فتح الهمزة بمعنى : لا أعلم . ويجوز ضمها بمعنى : لا أظن وكتابه أبي جاد وتعلمتها من يدعى بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحرف ، وهو الذي جاء في الوعيد ، فأما تعلمها للتهجي وحساب الحمل فلا بأس به .

قوله : وينظرون في النجوم أي يعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتي في باب التنجيم . وفيه من الفوائد عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى : ' 40 : 83 ' فلما جاءتهم رسالهم بالبيانات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون " .

باب ما جاء في النشرة ، وما هي النشرة

قوله : (باب : ما جاء في النشرة)

بضم النون ، كما في القاموس ، قال أبو السعادات : النشرة ضرب من العلاج والرقية ، يعالج به من يظن أن به مساً من الجن ، سميت نشرة لأنها ينشر بها عنه ما خامره من الداء ، أي يكشف ويزال .

قال الحسن : النشرة من السحر . وقد نشرت عنه تنشيراً ، ومنه الحديث : فلعل طباً أصابه ، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس أي رقاه .

وقال ابن الجوزي : النشرة حل السحر عن المسحور . ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر .
قال : عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة ؟ فقال : " هي من الشيطان " رواه أحمد بسند جيد . وأبو داود وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله .

هذا الحديث رواه أحمد ورواه عنه أبو داود في سننه . والفضل بن زياد في كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن جابر فذكره قال ابن مفلح : إسناد جيد ، وحسن الحافظ إسناده .

قوله : سئل عن النشرة والألف واللام في النشرة للعهد أي النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعنها هي من عمل الشيطان .

قوله : وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله أراد أحمد رحمه الله أن ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمام مطلقاً .

قوله : وللبخاري عن قتادة : قلت لابن المسيب رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه ، أو ينشر ؟ قال : لا بأس به : إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينفع عنه .

قوله : عن قتادة هو ابن دعامة - بكسر الدال - الدوسي ثقة فقيه من أحفظ التابعين . قالوا إنه ولد أكمه . مات سنة بضع عشرة ومائة .

قوله : رجل به طب بكسر الطاء . أي سحر ، يقال : طب الرجل - بالضم - ذا سحر . ويقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً . كما يقال للديغ : سليم .

وقال ابن الأنباري : الطب من الأضداد . يقال لعلاج الداء طب ، والسحر من الداء يقال له طب .

قوله : يؤخذ بفتح الواو مهموزة وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة . أي يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخذه - بضم الهمزة - الكلام الذي يقوله الساحر .

قوله : أيحل بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول .

قوله : أو ينشر بتشديد المعجمة .

قوله : لا بأس به يعني أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الإصلاح ، أي إزالة السحر ، ولم ينفعه عملاً يريد به الإصلاح ، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر .

قوله : وروى الحسن أنه قال : لا يحل السحر إلا ساحر هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد .

والحسن هو ابن أبي الحسن واسميه : يسار - بالتحتية والمهملة - البصري الأنباري : مولاهم . ثقة فقيه ، إمام من خيار التابعين . مات سنة عشرة ومائة رحمه الله ، وقد قارب التسعين .

قوله * : قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهي نوعان ، حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان - إلى آخره * . وما جاء في صفة النشرة الجائزة : ما رواه ابن أبي حاتم

وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله ، تقرأ في إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور : الآية التي في سورة يونس : ' 10 : 81 ، 82 ' فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون " قوله : ' 7 : 118 - 120 ' فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون " إلى آخر الآيات الأربع . قوله : ' 20 : 69 ' إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى " .

وقال ابن بطال : في كتاب وهب بن منبه : أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقوافل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل مابه ، هو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

قلت : قول العلامة ابن القيم والثاني النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهو جائز يشير رحمه الله إلى مثل هذا ، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء .
والحاصل : أن ما كان منه بالسحر فيحرم ، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجاز : والله أعلم .

ما هي النشرة

باب ما جاء في التطير

قوله : (باب : ما جاء في التطير)

أي من النهي عنه والوعيد فيه ، مصدر تطير يتطير ، و الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء ، وقد تسكن اسم مصدر من تطير طيرة ، كما يقال تخير خيرة ، ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرهما ، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فنفاه الشارع وأبطله ، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر .

قال المدائني سألت رؤبه بن العجاج قلت : ما السانح ؟ قال : ما ولد ميامنه . قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولد مياسره . والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد .

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكرها المصنف رحمة الله في كتاب التوحيد تحذيراً مما ينافي كما التوحيد الواجب .

قوله : وقول الله تعالى : ' 7 : 131 ' ألا إنما طائرهم عند الله " ... الآية ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله : " فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الآية . المعنى : أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة ، أي الخصب والسعفة والعافية ، كما فسره مجاهد وغيره - قالوا : لنا هذه ، أي نحن الجديرون والحقيقةيون به ، ونحن أهله . وإن تصبهم سيئة . أي بلاء وقطط تطيروا بموسى ومن معه ، فيقولون : هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم فقال الله تعالى : " ألا إنما طائرهم عند الله " قال ابن عباس طائرهم : ما قضى عليهم وقدر لهم وفي رواية شؤمهم عند الله ومن قبله أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بأياته ورسله .

قوله : " ولكن أكثرهم لا يعلمون " أي أن أكثرهم جهال لا يدركون . ولو فهموا وعلقوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلى الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه .

قوله : وقوله تعالى : ' 36 : 19 ' قالوا طائركم معكم " الآية المعنى - والله أعلم - حكم وما نابكم من شر معكم ، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا . بل ببغيكم وعدوانكم . فطائر الباقي الظالم معه ، مما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له . وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله ، كما قال تعالى : 7 68 ، 35 ، 36 ' أفنجعل المسلمين كال مجرمين * ما لكم كيف تحكمون " ويحتمل أن يكون المعنى : طائركم معكم . أي راجع عليكم ، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم . وهذا من باب القصاص في الكلام . ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام : " إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم " ذكره ابن القيم رحمه الله .

قوله تعالى : " أَنْذِرْتُمْ " أَيْ مِنْ أَجْلِ أَنَا ذَكْرَنَاكُمْ وَأَمْرَنَاكُمْ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ قَابْلَتُمُونَا بِهَذَا الْكَلَامِ "
 بل أَنْتُمْ قَوْمٌ مَسْرُوفُونْ " قال قَاتِدٌ : أَئْنَ ذَكْرَنَاكُمْ بِاللَّهِ تَطْبِيرَتُمْ بِنَا ؟
 وَمِنْاسِبَةُ الْآيَتَيْنِ لِلتَّرْجِمَةِ : أَنَّ التَّطْبِيرَ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ الْجَاهْلِيَّةِ وَالْمُشْرِكِينَ . وَقَدْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ
 وَمُقْتَمِهِ ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ التَّطْبِيرِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ شَرٌّ . كَمَا سِيَّأَتِيَ فِي أَحَادِيثِ
 الْبَابِ .

حدیث : لا عدوی ولا طیرة إلخ

قال * : وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر " أخر جاه . زاد مسلم : " ولا نوء ولا غول " .

قال أبو السعادات : العدوى اسم من الإعداء . كالدعوى . يقال : أعداء الداء يعديه إعداد إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء .

وقال غير : لا عدوى هو اسم من الإعداد ، وهو مجازة العلة من صاحبها إلى غيره والمنفي نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة . والأول هو الظاهر .

وفي رواية لمسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث لا عدوى ، ويحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يورد ممرض على مصح " ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث : لا يورد ممرض على مصح وأمسك عن حديث لا عدوى فراجعوه وقالوا : سمعناك تحدث به ، فأبلى أن يعترف به . قال أبو مسلمة - الرواية عن أبي هريرة : فلا أدرى أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر ؟

وقد روى حديث لا عدوى جماعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، والسائب بن يزيد ، وابن عمر ، وغيرهم ، وفي بعض روایات هذا الحديث وفر من المجنون كما تفر من الأسد .

وقد اختلف العلماء في ذلك . وأحسن ما قيل فيه : قول البيهقي ، وتبعه ابن الصلاح وابن القيم ، وابن رجب ، وابن مفلح وغيرهم : أن قوله : لا عدوى على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى ، وإن هذه الأمور تعدى بطبيعتها . وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك ، ولهذا قال : فر من المجنون كما تفر من الأسد وقال : لا يورد ممرض على مصح وقال في الطاعون : من سمع به في أرض فلا يقدم عليه وكل ذلك بتقدير الله تعالى . ولأحمد والترمذى عن ابن مسعود مرفوعاً : " لا يعدي شيء قالها ثلاثة " فقال أعرابي يا رسول الله إن النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها " فأخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك كله قضاء الله وقدره ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية . فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء والنار ، مما جرت العادة أن يهلك أو يضر . فكذلك اجتنب مقاربة المريض كالمجنون ، والقدوم على بلد الطاعون .

إإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف ، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومبادراتها . لا خالق غيره ولا مقدر غيره . وأما إذا قوى التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك ،

لاسيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة ، وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذى : " أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد مجنون فأدخلها معه في القصعة ، ثم قال كل بسم الله ثقة بالله وتوكل عليه " وقد أخذ به الإمام أحمد . وروى ذلك عن ابن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم . ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم ومنه مشى سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني على متن البحر ، قاله ابن رجب رحمة الله .

قوله : ولا طيرة قال ابن القيم رحمة الله تعالى : يحتمل أن يكون نفيًّا أو نهيًّا أي لا تطيروا ، ولكن قوله في الحديث : لا عدو ولا صفر ولا هامة يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها . والنفي في هذا أبلغ من النهي . لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنهي إنما يدل على المنع منه .

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم " ومنا أناس يتطيرون . قال : ذلك شئ يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنك " فأخبر أن تأديبه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقدته ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصدده لما رأه وسمعه ، فأوضح صلى الله عليه وسلم لأمنته الأمر ، وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليه علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحدرونها ، ولطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسلاً ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السماوات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع صلى الله عليه وسلم علق الشرك في قلوبهم ، لثلا يبقى فيها علقة منها ، ولا يتلبسوها بعمل من أعمال أهل النار البتة .

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى ، واعتصم بحبه المتن ، وتوكل على الله ، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها ، وبادر خواطرها من قبل استكمانها . قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس ، فصر طائر يصبح ، فقال رجل من القوم : خير خير . فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر . فبادره بإنتكار عليه لثلا يعتقد تأثيره في الخير والشر . وخرج طاوس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير . فقال طاوس : وأي خير عند هذا ؟ لا تصحبي . اهـ ملخصاً . وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة ، كقوله : الشؤم في ثلاثة : في المرأة ، والدابة ، والدار ونحو هذا .

قال ابن القيم رحمة الله تعالى : إخباره صلى الله عليه وسلم بالشُؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاحتها الله سبحانه ، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من

قاربها وساكنها ، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها شؤم ولا شر ، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركاً يربان الخير على وجهه ، ويعطي غيرهما ولدًا مشؤوماً يربان الشر على وجهه ، وكذلك ما يعطاه العبد من ولادة وغيرها ، فكذلك الدار والمرأة والفرس . والله سبحانه خالق الخير والشر والسعادة والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمين والبركة له . ويخلق بعضها نحوساً يتتنحس بها من قاربها . وكل ذلك بقضاء وقدره ، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمس陂اتها المضادة والمختلفة . كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس . وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس ، فكذلك الديار والنساء والخييل . فهذا لون والطيرة الشركية لون . انتهى .

قوله : ولا هامة بتخفيض الميم على الصحيح . قال الفراء : الهمة طير من طير الليل . كأنه يعني البوحة . قال ابن الأعرابي : كانوا يتشاركون بها إذا وقعت على بيت أحدهم ، يقول : نعمت إلى نفسى أو أحداً من أهل داري ، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله .

قوله : ولا صفر بفتح الغاء ، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال : هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب . وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى ومن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير . وقال آخرون : المراد به شهر صفر ، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه ، وهو قول مالك .

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول : إن أهل الجاهلية يتشارؤون بصفر ، ويقولون : إنه مشؤوم ، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . قال ابن رجب : ولعل هذا القول أشبه الأقوال ، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها ، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة .

لَا نُوءُ وَلَا غُولٌ

قوله : ولا نواء النوء واحد الأنواء ، وسيأتي الكلام عليه في بابه إن شاء الله تعالى .
قوله : ولا غول هو بالضم اسم ، وجمعه أغوال وغيلان ، وهو المراد هنا .

قال أبو السعادات : الغول واحد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس ، تتلون تلوناً في صور شتى وتغولهم ، أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم ، فنفاه النبي صلى الله عليه وأبطله .

فإن قيل : ما معنى النفي وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان " .

أجيب عنه : بأن ذلك كان في الإبتداء ، ثم دفعها الله عن عباده . أو يقال : المنفي ليس وجود الغول ، بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه ، أو يكون المعنى بقوله لا غول أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكيل عليه . ويشهد له الحديث الآخر " لا غول ولكن السعال سحرة الجن " أي ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخبيث . ومنه الحديث " إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان " أي ادفعوا شرها بذلك بذكر الله .

وهذا يدل على أنه لم يرد بنيتها أو عدمه . ومنه حديث أبي أويوب " كان لي تمر في سهوة فكانت الغول تجي فتأخذ " .

أحسنها الفأل

قوله : " ولهمما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدو ولا طيرة ، ويعجبني الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة " .

قوله : ويعجبني الفأل قال أبو السعادات : الفأل ، مهموز فيما يسر ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسر . يقال : تفألت بكذا وتفاولت ، على التحقيق والقلب ، وقد أولع الناس بتترك الهمزة تحفيقاً ، وإنما أحبت الفأل لأن الناس إذا أملوا فائدة الله ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوى فهم على خير ، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر . وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء ، والتفاؤل : أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول : يا سالم ، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول : يا واجد ، فيقع في ظنه أنه يبرا من مرضه ويجد ضالته . ومنه الحديث : " قيل يا رسول الله ما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة " .

قوله : قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة بين صلى الله عليه وسلم أن الفأل يعجبه فعل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ووجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائهما ، كما أخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه ويحب عالي الأخلاق ومكارم الشيم . بالجملة يحب كل كمال وخير ما يفضي إليهما ، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الإسم الحسن ومحبته ، وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشر والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك ، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استشبرت بها النفوس وانشرح لها الصدر وقوى بها القلب ، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال . فأحزنها ذلك وأثار لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفة الشرك .

وقال الحليمي : وإنما كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل لأن التشاوم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق ، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال . قوله : ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك " .

قوله : عن عقبة بن عامر هكذا وقع في نسخ التوحيد ، وصوابه : عن عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما . وهو مكي اختلف في نسبة ، فقال أحمد : عن عروة بن عامر القرشي ، وقال غيره : الجهمي . وخالف في صحته ، فقال الماوردي : له صحبة ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين ، وقال المزي : لا صحبة له تصح .

قوله : فقال أحسنها الفأل قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل . وروى الترمذى وصححه عن أنس رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع : يا نجيح ، يا راشد " وروى أبو داود عن بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء ، وكان إذا بعث عاملًا سأله عن اسمه فإذا أعجبه فرح به ، وإن كره اسمه رؤي كراهية ذلك في وجهه وإناده حسن . وهذا فيه استعمال الفأل .

قال ابن القيم : أخبر صلى الله عليه وسلم أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها ، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع

أحدهما ومضره الآخر ، ونظير هذا : منعه من الرقي بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك ، لما فيها من المنفعة الحالية من المفسدة .

قوله : ولا ترد مسلماً قال الطيبي : تعريض بأن الكافر بخلافه .

قوله : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت أي لا تأتي الطيرة الحسنة ولا تدفع المكروهات ، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات ، وتدفع السيئات ، والحسنات هنا النعم ، والسيئات المصائب ، قوله ' 4 : 78 ، 79 ' وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفهمون حديثاً * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك " ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر ، وهذا هو التوحيد ، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ، وبعد من اعتقادها سفيهاً مشركاً .

قوله : ولا حول ولا قوة إلا بك استعانة بالله تعالى على فعل التوكل وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها . وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات .

و الحول التحول والإنتقال من حال إلى حال ، و القوة على ذلك بالله وحده لا شريك له . ففيه التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته . وهذا هو التوحيد في الربوبية ، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ، وهو توحيد القصد والإرادة ، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله .

قوله : وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : " الطيرة شرك ، والطيرة شرك . وما من إلا ، ولكن الله يذهب به بالتوكل " رواه أبو داود والترمذى وصححه . وجعل آخر من قول ابن مسعود .
ورواه ابن ماجه وابن حبان . ولفظ أبي داود الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك . ثلثاً وهذا صريح في تحريم الطيرة ، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى .

قال ابن حمدان : تكره الطيرة ، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد .

قال ابن مفلح : والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك ، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الإصطلاحية ؟

قال في شرح السنن: وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها ، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى .

قوله : وما منا إلا قال أبو القاسم الأصبهاني ، والمنذري : في الحديث إضمار . التقدير : وما منا إلا وقد وقع في قلبه شئ من ذلك . اهـ .

وقال الخلخاني : حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكرهة . وهذا من أدب الكلام .

قوله : ولكن الله يذهبه بالتوكل أي لكن لما توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده .

قوله : وجعل آخره من قول ابن مسعود قال ابن القيم : وهو من الصواب ، فإن الطيرة نوع من الشرك .

من ردهه الطيرة فقد أشرك
قال : ولأحمد من حديث ابن عمر : " ومن ردهه الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك " .
هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وفي إسناده ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات .

قوله : من حديث ابن عمرو وهو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد . وقيل أبو عبد الرحمن ، أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة الفقهاء . مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف .

قوله : من ردهه الطيرة عن حاجته فقد أشرك وذلك أن الطيرة هي التشاوم بالشئ المرئي أو المسموع ، فإذا رده شئ من ذلك عن حاجته التي عزم عليها إرادة السفر ونحوه ، فمنعه مما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاوحاً ، فقد دخل في الشرك . كما تقدم ، فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه فيكون للشيطان منه نصيب .

قوله : فما كفارة ذلك ؟ إلى آخره . فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه ، ولم يلتفت إليه ، كفر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده ، والإعراض عما سواه .

وتتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه ، وأما من لا يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك ، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره ، لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله ، وأن الخير كله بيده ، فهو الذي يجلبه لعبد بمشيئة وإرادته ، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده

بقدرته ولطفه وإحسانه ، فلا خير إلا منه ، وهو الذي يدفع الشر عن عبده فما أصابه من ذلك فبذنبه ، كما قال تعالى : ' 4 : 79 ' ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك .

قوله : وله من حديث الفضل بن عباس إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك .

هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس قال : " خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فبرح ظبي ، فمال في شقه فاحتضنته ، فقلت : يا رسول الله تطيرت ، فقال : إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك " وفي إسناده انقطاع ، أي بين مسلمة روایة وبين الفضل ، وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن معين : قتل يوم اليرموك . وقال غيره : قتل يوم مرج الصفر سنة ثلث عشرة وهو ابن اثنين وعشرين سنة . وقال أبو داود : قتل بدمشق . كان عليه درع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله : إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك هذا حد الطيرة المنهي عنها : أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده ، ويعنده من المضي فيه كذلك . وأما الفأر الذي كان يحبه النبي صلى الله عليه وسلم فيه نوع من بشارة ، فييسر به العبد ولا يعتمد عليه بخلاف ما يمضي أو يرده ، فإن للقلب عليه نوع اعتماد . فافهم الفرق والله أعلم .

باب ما جاء في التنجيم

قوله : (باب : ما جاء في التنجيم)

قال شيخ الإسلام رحمه الله : التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية . وقال الخطابي : علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكواكب والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان ، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر ، وتغير الأسعار ، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجريها ، واجتماعها وافتراقها ، يدعون أن لها تأثيراً في السفليات ، وهذا منهم تحكم على الغيب ، وتعاط لعلم قد استأثر الله به ، ولا يعلم الغيب سواه .

قوله : قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجموم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به .

هذا الأثر علقة البخاري في صحيحه . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم . وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة ، ولفظه قال : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين . فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه وأضاع نصيبيه ، وتكلف ما لا علم له به ، وإن ناساً جهله بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذا الدابة وهذا الطائر بشئ من هذا الغريب ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شئ انتهى .

فتتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين ، وما زال الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار ، وعمت به البلوى في جميع الأمصار فمقلو ومستكثرون ، وعز في الناس من ينكروه ، وعظمت المصيبة به في الدين . فإن الله وإنما إليه راجعون .

قوله : خلق الله هذه النجوم لثلاث قال تعالى : ' 67 : 5 ' ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين " وقال تعالى : ' 16 : 16 ' وعلامات وبالنجم هم يهتدون " وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا ، كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ، وزينها بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين ، وحفظاً من كل شيطان رجيم " .

قوله : وعلامات أي دلالات على الجهات يهتدى بها أي يهتدى بها الناس في ذلك . كما قال تعالى : ' 97 : 6 ' وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر " أي لتعرفوا بها جهة قصدكم ، وليس المراد أن يهتدى بها في علم الغيب ، كما يعتقد المنجمون ، وقد تقدم وجه بطلانه وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة : فمن تأول فيها غير ذلك أي زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ . حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان ، وأضاع نصيبيه من كل خير ، لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه .

فإن قيل : المنجم قد يصدق ؟ قيل : صدقه كصدق الكاهن ، ويصدق في كلمة ويکذب في مائة .
وصدقه ليس عن علم ، بل قد يوافق قدرأ ، فيكون فتنـة في حق من صدقه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهم في قوله : ' 16 : 15 ' وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات " قوله : علامات معطوف على ما تقدم مما ذكره في الأرض ، ثم استأنف فقال : " وبالنجم هم يهتدون " ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه . وقد جاءت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بإبطال علم التنجيم ، كقوله : " من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر . زاد ما زاد " .

وعن رجاء بن حبيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن مما أخاف على أمتي : التصديق بالنجوم ، والتكذيب بالقدر ، وحيث الأئمة " رواه عبد بن حميد . وعن أبي محجن مرفوعاً : " أخاف على أمتي ثلاثة : حيف الأئمة ، وإيماناً بالنجوم وتكذيباً للقدر " رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي .

وعن أنس رضي الله مرفوعاً " أخاف على أمتي بعدي خصلتين : تكذيباً بالقدر ، وإيمان بالنجوم " رواه أبو علي وابن عدي والخطاب في كتاب النجوم وحسنه السيوطي أيضاً . والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة .

ما جاء في تعلم علم الفلك
قوله : وكره قادة تعلم منازل القمر . ولم يرخص ابن عبيدة فيه . ذكره حرب عنهم . ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق .

قال الخطابي : أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال ، وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه . وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل ما دام متناقضاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي ، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي ، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده . وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها ، مثل أن يشاهدها بحضور الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكيهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكتنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير مهتمين في دينهم ، ولا مقصرين في معرفتهم . انتهى .

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر . وروى عن إبراهيم أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به . قال ابن رجب : والمأذون في تعلمه التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم ، قليله وكثيره . وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور .

قوله : ذكره حرب عنهمـ هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرمانـي الفقيـه من جلة أصحاب الإمامـ أحمد . روى عنـ أحمد وإسحـاق وابنـ الدينـي وابنـ معـين وغـيرـهم . وله كتاب المسائلـ التي سـئـلـ عـنـهاـ الإمامـ أحمدـ وغـيرـهـ ، مـاتـ سـنةـ ثـمـانـينـ وـمـائـتينـ . وأـمـاـ إـسـحـاقـ فـهـوـ اـبـنـ إـبـرـاهـيمـ بنـ مـخـلـدـ أـبـوـ أـيـوبـ الـحنـظـليـ الـنـيـساـبـوريـ ،ـ الإـمـامـ الـمـعـرـوفـ بـابـنـ رـاهـوـيـهـ .ـ روـىـ عـنـ اـبـنـ المـبارـكـ وـأـبـيـ أـسـامـةـ وـابـنـ عـبـيـنـةـ وـطـبـقـتـهـمـ .ـ قـالـ أـحـمدـ :ـ إـسـحـاقـ عـنـدـنـاـ إـمـامـ مـنـ أـئـمـةـ الـمـسـلـمـيـنـ .ـ روـىـ عـنـهـ أـحـمدـ وـالـبـخـارـيـ وـمـسـلـمـ وـأـبـوـ دـاـودـ وـغـيرـهـمـ .ـ روـىـ هـوـ أـيـضاـ عـنـ أـحـمدـ .ـ مـاتـ سـنةـ تـسـعـ وـثـلـاثـيـنـ وـمـائـيـنـ .ـ

قال : وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمـنـ الـخـمـرـ ،ـ وـقـاطـعـ الـرـحـمـ ،ـ وـمـصـدـقـ بـالـسـحـرـ " رواهـ أـحـمدـ وـابـنـ حـبـانـ فـيـ صـحـيـحـهـ

هـذـاـ الـحـدـيـثـ روـاهـ أـيـضاـ الطـبـرـانـيـ وـالـحـاـكـمـ وـقـالـ :ـ صـحـيـحـ .ـ وـأـقـرـهـ الـذـهـبـيـ .ـ وـتـمـامـهـ وـمـاتـ وـهـوـ يـدـمـنـ الـخـمـرـ سـقاـهـ اللـهـ مـنـ نـهـرـ الـغـوـطـةـ :ـ نـهـرـ يـجـريـ مـنـ فـرـوجـ الـمـوـمـسـاتـ ،ـ يـؤـذـيـ أـهـلـ النـارـ رـيـحـ فـرـوجـهـنـ

قولـهـ :ـ وـعـنـ أـبـيـ مـوسـىـ هـوـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ قـيـسـ بـنـ سـلـيـمـ بـنـ حـضـارـ -ـ بـفـتـحـ الـمـهـمـلـةـ وـتـشـدـيـدـ الـضـادـ ،ـ أـبـيـ مـوسـىـ الـأـشـعـرـيـ .ـ صـحـابـيـ جـلـيلـ .ـ مـاتـ سـنةـ خـمـسـيـنـ .ـ

قولـهـ :ـ ثـلـاثـةـ لـاـ يـدـخـلـونـ الـجـنـةـ هـذـاـ مـنـ نـصـوصـ الـوـعـيـدـ الـتـيـ كـرـهـ السـلـفـ تـأـوـيلـهـاـ .ـ وـقـالـوـاـ :ـ أـمـرـوـهـاـ كـمـاـ جـاءـتـ ،ـ وـعـنـ تـأـوـلـهـاـ فـهـوـ عـلـىـ خـطـرـ مـنـ القـوـلـ عـلـىـ اللـهـ بـلـاـ عـلـمـ .ـ وـأـحـسـنـ مـاـ يـقـالـ :ـ إـنـ كـلـ عـلـمـ دـوـنـ الشـرـكـ وـالـكـفـرـ الـمـخـرـجـ عـلـىـ مـلـةـ الـإـسـلـامـ فـإـنـهـ يـرـجـعـ إـلـىـ مـشـيـثـةـ اللـهـ ،ـ فـإـنـ عـذـبـهـ فـقـدـ اـسـتـوـجـبـ العـذـابـ ،ـ وـإـنـ غـفـرـ لـهـ فـبـفـضـلـهـ وـعـفـوـهـ وـرـحـمـتـهـ .ـ

قولـهـ :ـ مـدـمـنـ الـخـمـرـ أـيـ المـداـمـ عـلـىـ شـرـبـهـاـ .ـ

قولـهـ :ـ وـقـاطـعـ الـرـحـمـ يـعـنيـ الـقـرـابـةـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ :ـ 'ـ 47ـ :ـ 22ـ 'ـ فـهـلـ عـسـيـتـمـ إـنـ تـولـيـتـمـ أـنـ تـفـسـدـواـ فـيـ الـأـرـضـ وـتـقطـعـواـ أـرـحـامـكـمـ "ـ الـآـيـةـ .ـ

قوله : ومصدق بالسحر أي مطلقاً . ومنه التنجيم ، لما تقدم من الحديث . وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة .

قال الذهبي في الكبائر : ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها ، وعقد المرأة عن زوجته ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه . وأشباه ذلك بكلمات مجھولة . قال : وكثير من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلق من الأمة تحريمها ، وما بلغه الضرر فيه ، ولا الوعيد عليه أه .

الاستسقاء بالنجوم

قوله : (ما جاء في الاستسقاء بالأأنواء)

أي من الوعيد ، والمراد : نسبة السقية ومجيء المطر إلى الأنواء . جمع نوء وهي منازل القمر . قال أبو السعادات : وهي ثمان وعشرون منزلة . ينزل القمر كل ليلة منها . ومنه قوله تعالى : ' 36 : 39 ' والقمر قدرناه منازل " يسقط في الغرب كل ثلات عشرة ليلة منزلة طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق ، فتقضي جميعها مع انتهاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، وينسبونه إليها ، ويقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالشرق ، أي نهض وطلع .

قال : قوله تعالى ' 56 : 82 ' وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون " روى الإمام أحمد والترمذى - وحسنه - وابن جرير وابن أبي حاتم والصياغ في المختار عن علي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " وتجعلون رزقكم " يقول : شكركم " أنكم تكذبون " تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا : بنجم كذا وكذا " وهذا أولى ما فسرت به الآية . وروى ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم وهو قول جمهور المفسرين وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمة الله بالآية .

قال ابن القيم رحمة الله : أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم : التكذيب به ، يعني القرآن . قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب .

قوله : عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتذكرونها : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنهاية " . وقال : " النهاية إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيمة عليها سرير من قطران ودرع

من جرب " رواه مسلم . أبو مالك اسمه الحرش بن الحرش الشامي . صاحبى تفرد عنه بالرواية أبو سلام . وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا .

قوله : أربع في أمتي من أمر بالجاهلية لا يتركونهن ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك ، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكرورة المحرمة . والمراد بالجاهلية هنا : ما قبل المبعث ، سموا ذلك لفطرة جهله . وكل ما يخالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو جاهلية ، فقد خالفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من أمورهم أو أكثرها . وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة . ولشخنا رحمة الله مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أهل الجاهلية ، بلغ مائة وعشرين مسألة .

قال شيخ الإسلام رحمة الله تعالى : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًا لمن لم يتركه ، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام ، وإنما لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا قوله تعالى : ' 33 : 33 ' ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى " فإن في ذلك ذمًا للتبرج وذمًا لحال الجاهلية الأولى ، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة .

قوله : الفخر بالأحساب أي التعاظم على الناس بالآباء وما ثرهم ، وذلك جهل عظيم ، إذ لا كرم إلا بالتقوى ، كما قال تعالى : ' 49 : 13 ' إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وقال تعالى : ' 34 : 37 ' وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفي إلا من آمن وعمل صالحًا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون " .

ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً : " إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم وأدم من تراب ، ليبدعن رجال فخرهم بأقوام إنما فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أحون على الله من الجعلان " .

قوله : والطعن في الأنساب أي الواقع فيها بالعيوب والتنقص . ولما غير أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أغيرته بأمه ؟ إنك أمرؤ فيك جاهلية " متفق عليه . فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية ، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال بجاهلية ويهودية ونصرانية ، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه . قاله شيخ الإسلام رحمة الله .

قوله : والاستسقاء بالنجوم أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير السوائي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أخاف على أمتي ثلاثة : استسقاء بالنجوم . وحيف السلطان . وتكذيباً بالقدر " .

إذا قال قائلهم : مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا . فلا يخلوا إما أن يعتقد أن له تأثيراً في إنزال المطر . فهذا شرك وكفر . وهو الذي يعتقد أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضراً . أو أنه يشفع بدعائهم إياه ، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالنهي عنه وقتال من فعله . كما قال تعالى : ' 39 ' وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله " والفتنة الشرك ، وإنما أن يقول : مطرنا بنوء كذا مثلاً ، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده . لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم ، وال الصحيح : أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز ، فقد صرخ ابن مفلح في الفروع : بأنه يحرم قول مطرنا بنوء كذا وجزم في الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز ، ولم يذكر خلافاً . وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء ، فيكون ذلك شركاً أصغر . والله أعلم .

عقوبة النائحة إذا لم تتتب

قوله : والنهاية أي رفع الصوت بالندب على الميت لأنها تسخط بقضاء الله ، وذلك ينافي الصبر الواجب ، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة .

قوله : والنهاية إذا لم تتتب قبل موتها فيه تنبيه على أن التوبة تکفر الذنب وإن عظم ، هذا مجمع عليه في الجملة ، ويكفر أيضاً الحسنات الماحية والمصادب ، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض ، وبالشفاعة بإذن الله ، وعفو الله عنمن شاء من لا يشرك به شيئاً وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعاً : " إن الله تعالى يقبل توبه العبد ما لم يغرغر" رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان .

قوله : تقام يوم القيمة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب قال القرطبي : السربال واحد السرابيل ، وهي الثياب والقميص ، يعني أنهن يلطخن بالقطران ، فيكون لهم كالقمح ، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ، ورائحتهن أنتن ، وألمهن بسبب الجرب أشد . وروى عن ابن عباس : إن القطران هو النحاس المذاب .

قال : "ولهمما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال : صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحدبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب " .

زيد بن خالد الجهنمي صحابي مشهور ، مات سنة ثمان وستين ، وقيل : غير ذلك ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله : صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أي بنا ، فاللام بمعنى الباء . قال الحافظ : وفيه إطلاق ذلك مجازاً . وإنما الصلاة لله .

قوله : بالحدبية بالمهملة المضمومة وتحفيف يائها وتتشقّل .

قوله : على إثر سماء كانت من الليل بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور ، وهو ما يعقب الشئ .

قوله : سماء أي مطر . لأنه ينزل من السحاب ، والسماء يطلق على كل ما ارتفع .

قوله : فلما انصرف أي من صلاته ، أي التفت إلى المؤمنين ، كما يدل عليه قوله : أقبل على الناس ويحتمل أنه أراد السلام .

قوله : هل تدرؤن لفظ استفهام ومعناه التنبيه . وفي النسائي : ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة ؟ وهذا من الأحاديث القدسية . وفيه إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم .

قوله : قالوا الله ورسوله أعلم فيه حسن الأدب للمسئول عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه . وذلك يجب .

قوله : أصبح من عبادي بالإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر كقوله تعالى : ' 64 : ' 2 ' هو الذي خلقتم فمِنْكُمْ كافر وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ' .

قوله : مؤمن بي وكافر إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر فهذا كفر لأنه أشرك في الربوبية . والمشرك كافر . وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر ، لأنه نسب نعمة الله إلى غيره ، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه ، وإنما هو فضل من الله ورحمته يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء . ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيق أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز . وأيضاً الباء تحتمل معاني ، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ ، فليست للسببية ولا للاستعانة ، لما عرفت

من أن هذا باطل . ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة ، لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه ، وإنما يجيء المطر في الوقت الذي أراد الله مجئه فيه برحمته وحكمته وفضله . فكل معنى تحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهي عنه فاسد . فيظهور على هذا تحريم هذه اللفظة مطلقاً لفساد المعنى . وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب الفروع والإنصاف .

قال المصنف رحمه الله : وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع يشير إلى أنه الإخلاص .

قوله : فأما من قال : مطربنا بفضل الله ورحمته فالفضل والرحمة صفتان لله ، ومذهب أهل السنة والجماعة : أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات : كالحياة والعلم ، وصفات الأفعال ، كالرحمة التي يرحم بها عباده . كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره ، فتفطن لهذا فقط غلط فيه طوائف .

وفي هذا الحديث : إن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده ، وهو الذي يحمد عليها ، وهذه حال أهل التوحيد .

قوله : وأما من قال : مطربنا بنوء كذا وكذا إلى آخره ، تقدم ما يتعلق بذلك .

قال المصنف رحمه الله : وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع .

يشير إلى أنه نسبة النعمة إلى غير الله كفر ، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه ، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر ، فيكون من كفر النعم ، لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها ، ونسبتها إلى غيره ، كما سيأتي في قوله تعالى : ' 16 : 83 ' "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها" .

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد : وكانت العرب إذا طلع نجم من الشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح ، فمنهم من ينسبه إلى الطالع ، ومنهم من ينسبه إلى الغارب نسبة إلى إيجاد واحتراز ، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث . فنهى الشارع عن إطلاق ذلك لثلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم . انتهى .

قوله : فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد - يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك ، كما قال تعالى : ' 29 : 63 ' "ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلقون" فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذي أوجد المطر ، وقد يعتقد هؤلاء أن النوء فيه شيئاً من التأثير ، والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره . فلا اعتراض عليه بالأية للاحتمال المذكور .

قوله : ولهمـا من حديث ابن عباس معناه ، وفيه : قال بعضـمـ : لقد صدق نـوـ كـذـا . فـأـنـزـلـ اللـهـ هـذـهـ الآـيـاتـ : ٥٦ : ٧٥ - ٨٢ " فلا أـقـسـمـ بـمـوـاـقـعـ النـجـوـمـ * وإنـهـ لـقـسـمـ لـوـ تـعـلـمـونـ عـظـيمـ * إـنـهـ لـقـرـآنـ كـرـيمـ * فـيـ كـتـابـ مـكـنـونـ * لاـ يـمـسـهـ إـلـاـ الـمـطـهـرـوـنـ * تـنـزـيلـ مـنـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ * أـفـبـهـذاـ الحـدـيـثـ أـنـتـمـ مـدـهـنـوـنـ * وـتـجـعـلـوـنـ رـزـقـكـمـ أـنـكـمـ تـكـذـبـوـنـ " . وبـلـفـظـهـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ قـالـ : مـطـرـ النـاسـ عـلـىـ عـهـدـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـقـالـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : " أـصـبـحـ مـنـ النـاسـ شـاـكـرـ ، وـمـنـهـ كـافـرـ . قـالـوـاـ : هـذـهـ رـحـمـةـ اللـهـ . وـقـالـ بـعـضـهـ : لـقـدـ صـدـقـ نـوـ كـذـاـ . فـقـالـ : فـنـزـلتـ هـذـهـ الآـيـةـ : " فـلاـ أـقـسـمـ بـمـوـاـقـعـ النـجـوـمـ " .

هـذـاـ قـسـمـ مـنـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ ، يـقـسـمـ بـمـاـ شـاءـ مـنـ خـلـقـهـ عـلـىـ مـاـ شـاءـ . وـجـوابـ القـسـمـ : " إـنـهـ لـقـرـآنـ كـرـيمـ " فـتـكـونـ لـاـ صـلـةـ لـتـأـكـيدـ النـفـيـ ، فـتـقـدـيرـ الـكـلـامـ ، لـيـسـ الـأـمـرـ كـمـ زـعـمـتـ فـيـ الـقـرـآنـ أـنـهـ سـحـرـ ، أـوـ كـهـانـةـ ، بـلـ هـوـ قـرـآنـ كـرـيمـ . قـالـ اـبـنـ جـرـيرـ : قـالـ بـعـضـ أـهـلـ الـعـرـبـ : مـعـنـىـ قـوـلـهـ : فـلاـ أـقـسـمـ فـلـيـسـ الـأـمـرـ كـمـ تـقـولـوـنـ ، ثـمـ اـسـتـؤـنـفـ الـقـسـمـ بـعـدـ فـقـيـلـ : أـقـسـمـ بـمـوـاـقـعـ النـجـوـمـ . قـالـ اـبـنـ عـبـاسـ : يـعـنيـ نـجـوـمـ الـقـرـآنـ ، إـنـهـ نـزـلـ جـمـلـةـ لـيـلـةـ الـقـدـرـ مـنـ السـمـاءـ الدـنـيـاـ ، ثـمـ نـزـلـ مـفـرـقاًـ فـيـ السـنـنـيـنـ بـعـدـ ، ثـمـ قـرـأـ اـبـنـ عـبـاسـ هـذـهـ الآـيـةـ . وـمـوـاـقـعـهـاـ : نـزـولـهـاـ شـيـئـاًـ بـعـدـ شـيـئـ . وـقـالـ مجـاهـدـ : مـوـاـقـعـ النـجـوـمـ مـطـالـعـهـاـ وـمـشـارـقـهـاـ . وـاـخـتـارـهـ اـبـنـ جـرـيرـ . وـعـلـىـ هـذـهـ فـتـكـونـ الـمـنـاسـبـةـ بـيـنـ الـقـسـمـ بـهـ وـالـقـسـمـ بـهـ وـهـوـ الـقـرـآنـ - مـنـ وـجـوهـ أـحـدـهـاـ : أـنـ النـجـوـمـ جـعـلـهـاـ اللـهـ يـهـتـدـيـ بـهـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـبـرـ وـالـبـحـرـ ، وـآيـاتـ الـقـرـآنـ يـهـتـدـيـ بـهـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـغـيـ وـالـجـهـلـ . فـتـلـكـ هـدـيـةـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـحـسـيـةـ ، وـالـقـرـآنـ هـدـيـةـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـمـعـنـوـيـةـ . فـجـمـعـ بـيـنـ الـهـدـيـاتـيـنـ مـعـ ماـ فـيـ النـجـوـمـ مـنـ الـزـيـنـةـ الـظـاهـرـةـ . وـفـيـ الـقـرـآنـ مـنـ الـزـيـنـةـ الـبـاطـنـةـ ، وـمـعـ ماـ فـيـ النـجـوـمـ مـنـ الرـجـومـ لـلـشـيـاطـيـنـ ، وـفـيـ الـقـرـآنـ مـنـ رـجـومـ شـيـاطـيـنـ الـجـنـ وـالـإـنـسـ . وـالـنـجـوـمـ آيـاتـ الـمـشـهـودـةـ الـعـيـانـيـةـ ، وـالـقـرـآنـ آيـاتـ الـمـتـلـوـةـ الـسـمـعـيـةـ ، مـعـ ماـ فـيـ مـوـاـقـعـهـاـ عـنـدـ الـغـرـوبـ مـنـ الـعـبـرـةـ وـالـدـلـالـةـ عـلـىـ آيـاتـ الـقـرـآنـيـةـ وـمـوـاـقـعـهـاـ عـنـدـ النـزـولـ ذـكـرـهـ اـبـنـ الـقـيـمـ رـحـمـهـ اللـهـ .

وـقـوـلـهـ : " إـنـهـ لـقـسـمـ لـوـ تـعـلـمـونـ عـظـيمـ " قـالـ اـبـنـ كـثـيرـ : أـيـ وـإـنـ هـذـهـ الـقـسـمـ الـذـيـ أـقـسـمـتـ بـهـ لـقـسـمـ عـظـيمـ لـوـ تـعـلـمـونـ عـظـمـتـهـ لـعـظـمـتـ الـقـسـمـ بـهـ عـلـيـهـ .

وـقـوـلـهـ : " إـنـهـ لـقـرـآنـ كـرـيمـ " هـذـاـ هـوـ الـقـسـمـ عـلـيـهـ ، وـهـوـ الـقـرـآنـ ، أـيـ إـنـهـ وـحـيـ اللـهـ وـتـنـزـيلـهـ وـكـلـامـهـ ، لـاـ كـمـ يـقـوـلـ الـكـفـارـ : إـنـهـ سـحـرـ أـوـ كـهـانـةـ ، أـوـ شـعـرـ . بـلـ هـوـ قـرـآنـ كـرـيمـ أـيـ عـظـيمـ كـثـيرـ الـخـيـرـ لـأـنـهـ كـلـامـ اللـهـ .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : فوصفه بما يقتضي حسن وكماله ، وإن الكريم هو البهي الكبير الخير العظيم ، وهو من كل شئ أحسن وأفضل . والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله تعالى كريم جميل الفعال ، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وقوله : " في كتاب مكنون " أي في كتاب معظم محفوظ موقر ، قاله ابن كثير .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : اختلف المفسرون في هذا ، فقيل : هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة ، وهو المذكور في قوله : ' 80 - 13 - 16 ' في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام ببرة " ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله : " لا يمسه إلا المطهرون " فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه .

" لا يمسه إلا المطهرون "

قوله : " لا يمسه إلا المطهرون " قال ابن عباس رضي الله عنهم : لا يمسه إلا المطهرون . قال : الكتاب الذي في السماء وفي رواية لا يمسه إلا المطهرون يعني الملائكة وقال قتادة : لا يمسه عند الله إلا المطهرون فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس والمنافق الرجس واختار هذا القول كثيرون ، منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه ، وقال ابن زيد : زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال تعالى : ' 26 - 210 - 212 ' وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون " قال ابن كثير : هذا قول جيد . وهو لا يخرج عن القول قبله . وقال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في هذه الآية : لا يجد طעםه إلا من آمن به .

قال ابن القيم رحمه الله : هذا من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً . لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه .

وقال آخرون : " لا يمسه إلا المطهرون " أي من الجنابة والحديث . قالوا : ولفظ الآية خبر معناه الطلب . قالوا : والمراد بالقرآن هنا المصحف . واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ عن عبد الله

بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : أن لا يمس القرآن إلا ظاهر .

وقوله : " تنزيل من رب العالمين " قال ابن كثير : هذا القرآن منزل من رب العالمين وليس كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مزية فيه ، وليس وراءه حق نافع . وفي هذه الآية : أنه كلام الله تكلم به .

قال ابن القيم رحمة الله : ونظيره : ' 32 : 13 ' ولكن حق القول مني " قوله : ' 16 : 102 ' قل نزله روح القدس من رب بالحق " هو إثبات علو الله تعالى على خلقه . فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشئ من أعلى إلى أسفل ولا يرد عليه قوله : ' 39 : 6 ' وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج" لأننا نقول : إن الذي أنزلها فوق سماواته . فأنزلها لنا بأمره .

قال ابن القيم رحمة الله : وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لها وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتكررهم سدى ، ويدعهم هملاً ، ويخلقهم عبثاً . لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله . واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به ، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق . وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس . وذلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله : " أفبهاذا الحديث أنتم مدهنون " قال مجاهد : أتريدون أن تمالثوهم فيه وتركتنا إليهم ؟ .

قال ابن القيم رحمة الله تعالى : ثم وبخهم على وضعهم الإدھان في غير موضعه ، وأنهم يداهنوν فيما حقه أن يتصدع به ويعرف به ، وبعض عليه بالتواجذ ، وتناثني عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفندة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرا ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود ، وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح ، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر . فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ، وإنما نزل بالحق وللحق ، والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا تمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهنه به ؟

قوله : " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون " تقدم الكلام عليها أول الباب ، والله تعالى أعلم .

ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً
قوله : باب

قول الله تعالى : ' 2 : 165 ' ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله "

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه ، فبكمالها يكمل ،
وبنقصها ينقص توحيد الإنسان ، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة .

قوله تعالى : " ومن الناس من يتأخذ من دون الله أنداداً الآية . قال في شرح المنازل : أخبر تعالى
أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو من اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا ند في
المحبة لا في الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند ، بخلاف ند المحبة . فإن
أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم . ثم قال تعالى : " يحبونهم كحب الله
وفي تقدير الآية قوله :

أحدهما : والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم والهتمم التي يحبونها
ويعظمونها من دون الله .

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى : " يحبونهم كحب الله " مباهة ومضاهاة للحق بالأنداد
" والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لأوثانهم . ثم روى عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركون لأندادهم
آهتمم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله من حبهم
آهتمم . انتهى .

والثاني : والذين آمنوا أشد حباً لله من المشركين بالأنداد لله ، فإن محبة المؤمنين خالصة ،
ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت لأندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة . والقولان
مرتبان على القولين في قوله تعالى : " يحبونهم كحب الله " فإن فيها قولين أيضاً :
أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة الله . ولكنها محبة أشركوا فيها
مع الله تعالى لأندادهم .

والثاني : أن المعنى يحبون لأندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله
أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ويقول : إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم ، وهم في النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب ' 26 : 97 ، 98 ' " تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين " ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى : ' 6 : 1 ' " الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم .

وقال تعالى : ' 3 : 31 ' " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله " وهذه تسمى آية المحنـة . قال بعض السلف : ادعى قوم محبة الله فأنزل الله تعالى آية المحنـة : " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله " إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائتها ، فدليلها وعلامتها : اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وفائتها وثمرتها ، محبة المرسل لكم ، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكـم له غير حاصلة ، ومحبته لكم منافية .

وقال تعالى : ' 5 : 54 ' يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبـهم ويحبـونه أذلة على المؤمنين أعزـة على الكافـرين يـجاهـدون في سبيل الله ولا يخـافـون لـوـمة لـائـم " ذكر لها أربع علامـات :

إـحـداـهـما : أـنـهـمـ أـذـلـةـ عـلـىـ الـمـؤ~مـنـيـنـ ، قـيـلـ : مـعـنـاهـ أـرـقـاءـ رـحـمـاءـ مـشـفـقـيـنـ عـاطـفـيـنـ عـلـيـهـمـ ، فـلـمـ ضـمـنـ أـذـلـةـ هـذـاـ الـعـنـىـ عـدـاـ بـأـدـاـةـ عـلـىـ . قـالـ عـطـاءـ رـحـمـهـ اللـهـ : لـمـؤ~م~ن~ي~ن~ كـالـو~ل~د~ لـو~ال~د~ و~ك~ال~ع~ب~د~ لـس~ي~د~ ، و~ع~ل~ى~ الـكـافـرـيـنـ كـالـأـسـدـ عـلـىـ فـرـيـسـتـهـ ، " أـشـدـاءـ عـلـىـ الـكـافـرـ رـحـمـاءـ بـيـنـهـمـ " .

الـعـالـمـةـ الثـالـثـةـ : الـجـهـادـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ بـالـنـفـسـ وـالـلـيدـ وـالـمـالـ وـالـلـسـانـ . وـذـلـكـ تـحـقـيقـ دـعـوـيـ المـحـبـةـ .

الـعـالـمـةـ الـرـابـعـةـ : إـنـهـمـ لـاـ تـأـخـذـهـمـ فـيـ اللـهـ لـوـمـةـ لـائـمـ . وـهـذـهـ عـلـامـةـ صـحـةـ المـحـبـةـ . فـكـلـ مـحـبـ أـخـذـهـ اللـوـمـ عـلـىـ مـحـبـوـهـ فـلـيـسـ بـمـحـبـ عـلـىـ الـحـقـيـقـةـ . وـقـالـ تـعـالـيـ : ' 17 : 57 ' أـولـئـكـ الـذـيـنـ يـدـعـونـ يـبـتـغـونـ إـلـىـ رـبـهـمـ الـوـسـيـلـةـ أـيـهـمـ أـقـرـبـ وـيـرـجـونـ رـحـمـتـهـ وـيـخـافـونـ عـذـابـهـ " فـذـكـرـ المـقـامـاتـ الـثـلـاثـةـ : الـحـبـ . وـهـوـ اـبـتـغـاءـ الـقـرـبـ إـلـيـهـ ، وـالـتـوـسـلـ إـلـيـهـ بـالـأـعـمـالـ الصـالـحةـ . وـالـرـجـاءـ وـالـخـوفـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ اـبـتـغـاءـ الـوـسـيـلـةـ أـمـرـ زـائـدـ عـلـىـ رـجـاءـ الرـحـمـةـ وـخـوـفـ الـعـذـابـ ، وـمـنـ الـمـعـلـومـ قـطـعاـ أـنـهـ لـاـ يـتـنـافـسـ إـلـاـ فـيـ قـرـبـ يـحـبـ قـرـبـهـ ، وـحـبـ قـرـبـهـ تـبـعـ لـمـحـبـةـ ذـاتـهـ ، بـلـ مـحـبـةـ ذـاتـهـ أـوجـبـتـ مـحـبـةـ الـقـرـبـ مـنـهـ . وـعـنـدـ الـجـهـمـيـةـ وـالـمـعـطـلـةـ : مـاـ مـنـ ذـلـكـ كـلـهـ شـيـءـ إـنـهـ عـنـدـهـمـ لـاـ تـقـرـبـ ذـاتـهـ مـنـ شـيـءـ ، وـلـاـ يـقـرـبـ مـنـ ذـاتـهـ شـيـءـ ، وـلـاـ

يحب ، فأنكروا حياة القلوب ، ونعم الأرواح وبهجة النفوس ، وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة . ولذلك ضربت قلوبهم بالقصوة وضرب دونهم دون الله حجاب على معرفته ومحبته ، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلى عند تعطيل أسمائه وصفاته ، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم ، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونحوت جلاله ويرمونه بالآدء التي هم أحق بها وأهلها . وحسب ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : لا تحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء . فحدتها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ، وإنما يتكلم الناس في أسبابها ومبرراتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها . وأجمع ما قيل في ذلك : ما ذكره أبو بكر الكتاني عن الجنيد .

محبة الله

قال أبو بكر : جرت مسألة في المحبة بمكة - أعزها الله في أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنًا ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقي ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذا هب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفا شرابه من كأس مودته ، وانكشف له الحياة من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله وبالله ومع الله . فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين .

وذكر رحمه الله تعالى : أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة :

أحدهما : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به .

الثاني : التقرب إلى الله تعالى بالنواقل بعد الفرائض .

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا .

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبادرتها .

السادس : مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع : وهو أعجبها - إنكسار القلب بين يديه .

الثامن : الخلوة وقت النزول الإلهي وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطاييف ثمرات كلامهم ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك .

العاشرة : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب .

قوله : وقول الله تعالى : ' ٩ : ٢٤ ' قل إن كان آباءكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كсадها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربيصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين " .

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتوعد من أحب أهله وماليه وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثارها ، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التي يحبها الله تعالى ويرضاها ، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك .

قال العمام ابن كثير رحمه الله تعالى : أي إن كانت هذه الأشياء " أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربيصوا " أي انتظروا ما يحل بكم من عقابه . روى الإمام أحمد وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا تباعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم " .

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده ، فيحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه ، ويتوالى فيه ويعادي فيه ويتابع رسوله صلى الله عليه وسلم كما تقدم في آية المحنـة ونظائرها .

محبة النبي

قوله : وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يؤمن أحدكم حتى تكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " أخر جاه أبي البخاري ومسلم .

قوله : لا يؤمن أحدكم أي الإيمان الواجب ، والمراد كماله ، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين ، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه

، كما في الحديث : " أَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي . فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّكَ الْآنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ : الْآنَ يَا عُمَرَ " رواه البخاري .

فمن قال : إن المنفي هو الكمال ، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويعرض للعقوبة فقد صدق ، وإن أراد أن المنفي الكمال المستحب ، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . قاله شيخ الإسلام رحمة الله .

فمن ادعى محبة النبي صلى الله عليه وسلم بدون متابعة وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب كما قال تعالى : ' 47 : 47 ' ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين " فنفي الإيمان عن تولي عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن كل مسلم يكون محبًا بقدر ما معه من الإسلام وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمناً وإن لم يكن مؤمناً بالإيمان المطلق . لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين .

قال شيخ الإسلام رحمة الله : وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله . فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك ، وإنما فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شكوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا . إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدموه على الأهل والمال ، فهولاء إن عرفوا من المحنـة ماتوا ودخلوا الجنة ، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإن صاروا مرتابين ، وانتقلوا إلى نوع من النفاق . انتهى .

وفي هذا الحديث : أن الأعمال من الإيمان . لأن المحبة عمل القلب .

وفيه : أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها ، فإنها لله ولأجله ، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها ، وكل من كان محبًا لله فإنما يحب في الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح . وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه . وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله ، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله ، التي هي من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده .

قوله : ولهمما عنه - أَيِ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، عَنْ أَنْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ثَلَاثٌ مَنْ كَنْ فِيهِ وَجَدَ حَلاوةَ الإِيمَانَ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مَا سَوَاهُمَا ، وَأَنْ يَحْبُّ الْمَوْءُ لَا يَحْبُّ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ يَكُرِهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكُرِهُ أَنْ يُقْذَفَ بِالنَّارِ " وَفِي رَوَايَةٍ : لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوةَ الإِيمَانَ حَتَّى يَحْبُّ الْمَوْءُ لَا يَحْبُّ إِلَّا اللَّهُ ... إِنَّمَا .

قوله : ثَلَاثٌ أَيِ ثَلَاثٌ خَصَّالٌ .

قوله : مَنْ كَنْ فِيهِ أَيِ وَجَدَتْ فِيهِ تَامَةً .

قوله : وَجَدَ بِهِنَ حَلاوةَ الإِيمَانَ الْحَلاوةُ هُنَا هِيَ الَّتِي يَعْبُرُ عَنْهَا بِالذُّوقِ لَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ لَذَّةِ الْقَلْبِ وَنَعِيمِهِ وَسُرُورِهِ وَغَذَائِهِ ، وَهِيَ شَيْءٌ مَحْسُوسٌ يَجِدُهُ أَهْلُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ .

قال السيوطي رحمه الله في التوضيح : وَجَدَ حَلاوةَ الإِيمَانَ فِيهِ اسْتِعْارَةً تَحْبِيلِيَّةً . شَبَهَ رَغْبَةُ الْمُؤْمِنِ فِي الإِيمَانِ بِشَيْءٍ حَلُوٍّ، وَأَثْبَتَ لَهُ لَازِمَ ذَلِكَ الشَّيْءَ، وَأَضَافَهُ إِلَيْهِ .

وقال النووي : مَعْنَى حَلاوةَ الإِيمَانِ اسْتِلَادُ الطَّاعَاتِ وَتَحْمِلُ الْمَشَاقَ وَإِيْثَارُ ذَلِكَ عَلَى أَغْرَاضِ الدُّنْيَا ، وَمَحْبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ بِفَعْلِ طَاعَتِهِ وَتَرْكِ مُخَالَقَتِهِ . وَكَذَلِكَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال يحيى بن معاذ : حَقِيقَةُ الْحُبُّ فِي اللَّهِ : أَنْ لَا يَزِيدَ بِالْبَرِّ وَلَا يَنْقُصَ بِالْجُفَاءِ .

قوله : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مَا سَوَاهُمَا يَعْنِي بِالسُّوَى : مَا يَحْبُّ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ بِطَبَعِهِ ، كَمْحَبَّةِ الْوَلَدِ وَالْمَالِ وَالْأَزْوَاجِ وَنَحْوُهَا . فَتَكُونُ أَحَبُّ هُنَا عَلَى بَابِهَا .

وقال الخطاطبي : الْمَرَادُ بِالْمَحْبَّةِ هُنَا حُبُّ الْإِخْتِيَارِ لَا حُبُّ الْطَّبَعِ كَذَا قَالَ .

وَأَمَّا الْمَحْبَّةُ الْشَّرْكِيَّةُ الَّتِي قَدْ تَقْدُمُ بِبِيَانِهَا فَقَلِيلُهَا وَكَثِيرُهَا يَنْفَيُ مَحْبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ : " أَحَبُّوا اللَّهَ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ " فَمِنْ عَلَامَاتِ مَحْبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ : أَنْ يَحْبُّ مَا يَحْبُّهُ اللَّهُ وَيَكُرِهُ مَا يَكُرِهُ اللَّهُ ، وَيُؤْثِرُ مَرْضَاتِهِ عَلَى مَا سَوَاهُ ، وَيُبَسِّعُ فِي مَرْضَاتِهِ مَا اسْتِطَاعَ ، وَيَبْعَدُ عَمَّا حَرَمَهُ اللَّهُ وَيَكُرِهُ أَشَدَّ الْكَرَاهَةِ ، وَيَتَابُعُ رَسُولَهُ وَيَمْتَثِلُ أَمْرَهُ وَيَتَرَكُ نَهِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ' 4 : 80 ' مِنْ يَطِعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ " فَمِنْ آثَرَ أَمْرَ غَيْرِهِ عَلَى أَمْرِهِ وَخَالَفَ مَا نَهَى عَنْهُ ، فَذَلِكَ أَحَبُّ اللَّهِ وَأَطَاعَهُ أَحَبُّ الرَّسُولِ وَأَطَاعَهُ . وَمَنْ لَا فِلَّا ، كَمَا فِي آيَةِ الْمُحْنَةِ ، وَنَظَارُهَا . وَاللَّهُ الْمُسْتَعْنَى .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْثَلَاثَ مَنْ كَنْ فِيهِ وَجَدَ حَلاوةَ الإِيمَانِ . لَأَنَّ وَجْدَ الْحَلاوةِ لِلشَّيْءِ يَتَبَعُ الْمَحْبَّةُ لَهُ فَمَنْ أَحَبَ شَيْئًا وَاشْتَهَاهُ ، إِذَا حَصَلَ لَهُ مَرَادُهُ فَإِنَّهُ يَجِدُ الْحَلاوةَ وَاللَّذَّةَ وَالسُّرُورَ بِذَلِكَ ، وَاللَّذَّةُ أَمْرٌ يَحْصُلُ عَقِيبَ إِدْرَاكِ الْمَلَائِمِ الَّذِي هُوَ الْمُحِبُّ وَالْمُشْتَهَى . قَالَ : فَحَلاوةُ الإِيمَانِ الْمُتَضْمِنَةُ لِلَّذَّةِ وَالْفَرَحِ تَتَبَعُ كَمَالَ مَحْبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ . وَذَلِكَ

بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة وتفريغها ، ودفع ضدها . فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب ، بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

قلت : ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته ، فإنه يحب من عبده أن يطيعه . والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد .

ومن لوازم محبة الله أيضاً : محبة أهل طاعته ، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده . فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان ، كما في حديث ابن عباس الآتي .

قال : وتفريغها . أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، قال : ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار . انتهى .

قوله : أحب إليه مما سواهما فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه قوله :

أحدهما : أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين ، لا كل واحدة فإنها وحدها لاغية . وأمر بالإفراد في حديث الخطيب إشعاراً بأن كل واحد من العصبيانين مستقل باستلزم الغواية إذ العطف في تقدير التكثير ، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم .

الثاني : حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى ، وهذا هو الجواز .

وجواب ثالث : وهو أن هذا وارد على الأصل ، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح .

قوله : كما يكره أن يقذف في النار أي يستوى عنده الأمران . وفيه رد على الغلاة الذين يتوهمن أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقاً وإن تاب منه .

والصواب : أنه إن لم يتتب كان نقصاً وإن تاب فلا ، ولهذا كان المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم أفضل هذه الأمة مع كونهم في الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الإسلام ، والإسلام يمحو ما قبله ، وكذلك الهجرة . كما صح الحديث بذلك .

قوله : وفي رواية : لا يجد أحد هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من صحيحه . ولفظها : لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلى الله ، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والإجلال والهيبة ولوازم

ذلك ، قال الشاعر :

من أحب الله أبغض في الله ووالى في الله

قوله : وعن ابن عباس رضي الله عنهم : "من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تناول ولية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً " رواه ابن جرير .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولى منه فقط .

قوله : ومن أحب في الله أي أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك .

قوله : وأبغض في الله أي أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه ، كما قال تعالى : ' 22 ' 58 لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله " الآية .

قوله : ووالى في الله هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى ، فمن أحب فيه ، ووالى أولياءه ، وعادى أهل معصيته وأبغضهم ، وجاحد أعداءه ونصر أنصاره . وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها ، وبكمالها يكمل توحيد العبد ، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه ، فمقابل مستكثر ومحروم .

قوله : إنما تناول ولية الله بذلك أي توليه لعبد . و ولية بفتح الواو لا غير : أي الأخوة والمحبة والنصرة ، وبالكسر الإمارة ، والمراد هنا الأول . ولأحمد والطبراني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله . فإذا أحب لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله " وفي حديث آخر : " أوثق عري الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله عز وجل " رواه الطبراني .

قوله : ولن يجد عبد طعم الإيمان إلى آخره . أي لا يحصل له ذوق الإيمان ولذاته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك ، أي حتى يحب في الله ويبغض في الله ، ويعادي في الله ، ويبالى فيه .

وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً : " من أحب الله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكملا الإيمان " رواه أبو داود .

قوله : وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا . وذلك لا يجدي على أهله شيئاً أى لا ينفعهم ، بل يضرهم كما قال تعالى : ' 43 ، 67 ' الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقيين " فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس خير القرون فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة ، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسق والعصيان . وقد وقع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله : " بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ " . وقد كان الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهم يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة في الله وتقرباً إليه ، كما قال تعالى : ' 59 : 9 ' وبؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " وعن ابن عمر رضي الله عنهم قال : لقد رأينا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما منا منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودررمه من أخيه المسلم رواه ابن ماجه .

قوله : وقال ابن عباس في قوله تعالى : ' 2 : 166 ' " وتقطعت بهم الأسباب " قال : المودة هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه .

قوله : قال المودة أي التي كانت بينهم في الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى : ' 29 : 25 ' " وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيمة يكفر بعضكم ببعض ويعلن بعضكم ببعضًا وأماواكم النار وما لكم من ناصرين " .

قال العامة ابن القيم في قوله تعالى : ' 2 : 166 ، 167 ' " إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب " الآيتين فهوؤلاء المتبعون كانوا على الهوى وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومناهجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم ، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيتبرأون منهم يوم القيمة فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله . وهذا حال كل من اتخذ من دون الله أولياء ، يوالي لهم ، ويعادي لهم ، ويرضى لهم ، ويغضب لهم ، فإن أعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيمة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبيها ونصبها ، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وإنصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله . وقطع تلك الأسباب . فينقطع يوم القيمة كل سبب وصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله ، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه . وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها : من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالاة والمعاداة ، والتقارب والإبعاد ، وتجريد ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره ، فضلاً عن

تقديم قول غيره عليه . فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبـه . وهذه هي النسبة التي بين العبد وربـه ، وهي نسبة العبودية المحسـنة ، وهي آخيـته التي يجـول ما يجـول وإليـها مرجعـه ، ولا تتحققـ إلا بتجـريـده متابـعة الرسـل صـلوات الله وسلامـه عـلـيـهم ، إذ هـذه العـبـودـيـة إنـما جاءـت عـلـى أـسـنـتـهـم ، وما عـرـفـت إـلا بـهـمـ ولا سـبـيلـ إـلـيـهاـ إـلا بـمـتابـعـتـهـمـ . وقد قالـ تعالـى : ' 25 : 23 ' " وقدمنـا إـلـى ما عـملـواـ منـ عـلـمـ فـجـعلـنـاهـ هـبـاءـ مـنـثـورـاـ " فـهـذـهـ هيـ الأـعـمـالـ التـيـ كـانـتـ فـيـ الدـنـيـاـ عـلـىـ غـيرـ سـنـةـ رـسـلـهـ وـطـرـيقـهـ وـلـغـيرـ وـجـهـهـ ، يـجـعـلـهـ اللهـ هـبـاءـ مـنـثـورـاـ لـاـ يـنـتـفـعـ مـنـهـاـ صـحـابـهـ بـشـئـ أـصـلـاـ . وـهـذـاـ مـنـ أـعـظـمـ الـحـسـرـاتـ عـلـىـ الـعـبـدـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ : أـنـ يـرـىـ سـعـيـهـ ضـائـعـاـ . وـقـدـ سـعـدـ أـهـلـ السـعـيـ النـافـعـ بـسـعـيـهـمـ . اـنـتـهـىـ مـلـخـصـاـ .

قولـ اللهـ : إنـماـ ذـلـكـ الشـيـطـانـ يـخـوـفـ أـولـيـاءـهـ

قولـهـ : بـابـ

قولـ اللهـ تعالـى : ' 3 : 175 ' " إنـماـ ذـلـكـ الشـيـطـانـ يـخـوـفـ أـولـيـاءـهـ فـلـاـ تـخـافـوـهـمـ وـخـافـوـنـ إنـ كـنـتـ مـؤـمـنـينـ " .

الـخـوـفـ مـنـ أـفـضـلـ مـقـامـاتـ الـدـيـنـ وـأـجـلـهـ ، وـأـجـمـعـ أـنـوـاعـ الـعـبـادـةـ التـيـ يـجـبـ إـخـلـاصـهـاـ للـهـ تعالـىـ . قالـ تعالـىـ : ' 21 : 28 ' " وـهـمـ مـنـ خـشـيـتـهـ مـشـفـقـوـنـ " وـقـالـ تعالـىـ : ' 16 : 50 ' " يـخـافـوـنـ رـبـهـمـ مـنـ فـوـقـهـمـ " وـقـالـ تعالـىـ : ' 46 : 55 ' " وـلـنـ خـافـ مـقـامـ رـبـهـ جـنـتـانـ " وـقـالـ تعالـىـ : ' 16 : 51 ' " فـإـيـاـيـ فـارـهـبـوـنـ " وـقـالـ تعالـىـ : ' 5 : 44 ' " فـلـاـ تـخـشـوـنـ النـاسـ وـاخـشـوـنـ " وـأـمـثـالـ هـذـهـ الـآـيـاتـ فـيـ الـقـرـآنـ كـثـيرـ .

أـقـسـامـ الـخـوـفـ

وـالـخـوـفـ مـنـ حـيـثـ هـوـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ أـقـسـامـ :

أـحـدـهـاـ : خـوـفـ السـرـ ، وـهـوـ أـنـ يـخـافـ مـنـ غـيـرـ اللهـ مـنـ وـثـنـ أوـ طـاغـوتـ أـنـ يـصـبـيـهـ بـمـاـ يـكـرـهـ ، كـمـاـ قـالـ تعالـىـ عـنـ قـوـمـ هـوـدـ عـلـيـهـ السـلـامـ إـنـهـمـ قـالـواـ لـهـ : ' 11 : 54 ' " إـنـ نـقـولـ إـلـاـ اـعـتـرـاكـ بـعـضـ آـهـنـتـناـ بـسـوـءـ قـالـ إـنـيـ أـشـهـدـ اللهـ وـاـشـهـدـواـ أـنـيـ بـرـيءـ مـاـ تـشـرـكـوـنـ *ـ مـنـ دـونـهـ فـكـيـدـوـنـيـ جـمـيـعـاـ ثـمـ لـاـ تـنـظـرـوـنـ " وـقـالـ تعالـىـ : ' 39 : 36 ' " وـيـخـوـفـوـنـكـ بـالـذـيـنـ مـنـ دـونـهـ " وـهـذـاـ هـوـ الـوـاقـعـ مـنـ عـبـادـ الـقـبـورـ وـنـحـوـهـاـ مـنـ

الأوثان يخافونها ، ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله ، وهذا ينافي التوحيد .

الثاني : أن يترك الإنسان ما يجب عليه ، خوفاً من بعض الناس ، فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد . وهذا هو سبب نزول هذه الآية . كما قال تعالى : ' 3 : 173 - 175 ' الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه " الآية . وفي الحديث : " إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيمة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره ؟ فيقول : رب خشية الناس . فيقول : إباهي كنت أحق أن تخشي " .

الثالث : الخوف الطبيعي ، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك . فهذا لا يذم . كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام : ' 28 : 21 ' فخرج منها خائفاً يتربص " الآية .

ومعنى قوله : " إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه " أي يخوفكم أولياءه " فلا تخافوه وخافون " وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره ، وأمر لهم أن يقتربوا خوفهم على الله ، فلا يخافون إلا إيه . وهذا هو الإخلاص الذي أمر به عباده ورضيه منهم . فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ' 39 : 36 ' أليس الله بكاف عبده ويحذرونك بالذين من دونه " الآية .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن كيد عدو الله : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، لئلا يجاهدوهم ، لا يأمرهم بمعرفة ، ولا ينههم عن منكر . وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه . ونهانا أن نخافهم . قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفهم بأوليائه . قال قتادة : يعظمهم في صدوركم . فكلما قوى إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه ، وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم . فدللت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان .

" إنما يعمـر مساجـد الله " الآية

قوله : وقول الله تعالى : ' 9 : 18 ' إنما يعمـر مساجـد الله من آمن بالله واليـوم الآخر وأقام الصلاة وآتـى الزـكـاة وـلـم يـخـش إـلـا الله فـعـسـى أـولـئـكـ أـن يـكـونـوا مـنـ الـمـهـتـدـينـ " .

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمـرـها إـلـا أـهـلـ الإـيمـانـ بالـلـهـ والـيـومـ الـآـخـرـ ، الـذـينـ آـمـنـوا بـقـلـوبـهـمـ وـعـمـلـوا بـجـوارـهـمـ ، وـأـخـلـصـوا لـهـ الخـشـيـةـ دـوـنـ مـنـ سـوـاـهـ ، فـأـثـبـتـ لـهـمـ عـمـارـةـ المسـاجـدـ بـعـدـ أـنـ نـفـاـهـاـ عـنـ

الشركين . لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح ، والمشرك وإن عمل فعلمه : ' 24 : 30 ' كسراب بقبيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً " أو ' 18 : 14 " كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف " وما كان كذلك فالعدم خير منه ، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي عظمته التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع ، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والإجماع .

قوله : " ولم يخش إلا الله " قال ابن عطية : يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية ، وينبغي في ذلك كله قضاء الله وتصريفه .

وقال ابن القيم رحمه الله : الخوف عبودية القلب . فلا يصلح إلا الله ، كالذلة والإنابة والمحبة والتوكلا والرجاء وغيرها من عبودية القلب .

قوله : " فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين " قال بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : يقول : إن أولئك هم المهتدون ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة وفي الحديث : " إذارأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى : " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر " " رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبي سعيد الخدري .

" ومن الناس من يقول آمنا بالله " فإذا أؤذى إلخ
قوله : ' 29 : 10 ' ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ".

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين يدعون الإيمان بأسنتهم ، ولم يثبت في قلوبهم : أنهم إذا جاءتهم محنـة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نعمة الله بهم ، فارتدوا عن الإسلام . قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني فتنـة أن يرتد عن دينه إذا أؤذى في الله .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرـين : إما أن يقول أحدهـم : آمنـا ، وإما أن لا يقول ذلك . بل يستمر على السيئـات والـكفر ، فمن قال : آمنـا امتحـنه ربـه وابتـلاه وفتـنته . والـفتـنة : الإـبتـلاء والـاخـبار ، ليـتبـين الصـادـق من الـكـاذـب ، ومن لم يـقل : آمنـا . فلا يـحسب أنه يـعـجر الله ويـفـوتـه ويـسـبـقه . فمن آمن بالـرـسـل وأـطـاعـهم عـادـاه أـعـدـأـهـم وـآذـوهـ وـابـتـلـىـ بماـيـؤـلـهـ ، ومن لمـيـؤـمـنـ بهـمـ وـلمـيـطـعـمـ عـوـقـبـ فيـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ وـحـصـلـ لـهـ ماـيـؤـلـهـ ، وـكـانـ هـذـاـ الـأـلـمـ أـعـظـمـ وـأـدـوـمـ منـ

أَلْمَ أَتَبَاعُهُمْ . فَلَا بَدْ مِنْ حَصُولِ الْأَلْمِ لِكُلِّ نَفْسٍ ، آمَنْتُ أَوْ رَغَبْتُ عَنِ الإِيمَانِ ، لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْصُلُ لِهِ الْأَلْمَ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْمُعْرُضُ عَنِ الإِيمَانِ تَحْصُلُ لَهُ الْلَّذَّةُ ابْتِدَاءً ثُمَّ يَصِيرُ فِي الْأَلْمِ الدَّائِمِ ، وَالْإِنْسَانُ لَا بَدْ أَنْ يَعِيشَ مَعَ النَّاسِ ، وَالنَّاسُ لَهُمْ إِرَادَاتٍ وَتَصْوِيرَاتٍ ، فَيَطْلَبُونَ مِنْهُ أَنْ يَوْافِقُهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِنْ لَمْ يَوْافِقُهُمْ آذُوهُ وَعَذَّبُوهُ ، وَإِنْ وَافَقُهُمْ حَصُولُهُ لِهِ الْعَذَابُ تَارَةً مِنْهُمْ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ ، كَمَنْ عَنْهُ دِينٌ وَتَقْيِيَّ حَلٌّ بَيْنَ قَوْمٍ فَجَارٌ ظَلْمٌ لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ فَجُورِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إِلَّا بِمَوْافِقَتِهِ لَهُمْ أَوْ سُكُوتِهِ عَنْهُمْ ، فَإِنْ وَافَقُهُمْ أَوْ سُكُوتُهُمْ لِمَنْ شَرَهُمْ فِي الْإِبْتِدَاءِ ، ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ وَالْأَذْى أَضْعَافُ مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَخَالَفَهُمْ ، وَإِنْ سَلَمْ مِنْهُمْ فَلَا بَدْ أَنْ يَهَانَ وَيَعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ .

فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ بِمَا قَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِمَاعِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسُخْطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَؤْنَةُ النَّاسِ . وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسُخْطِ اللَّهِ لَمْ يَغُنِّوْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا " .

فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ وَأَلْهَمَهُ رِشْدَهُ وَوَقَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ امْتَنَعَ مِنَ الْمُوْافِقَةِ عَلَى فَعْلِ الْمُحْرَمِ وَصَبَرَ عَلَى عَدَوْتِهِمْ ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا كَانَتْ لِلرَّسُولِ أَتَبَاعُهُمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ الدَّاخِلِ فِي الإِيمَانِ بِلَا بَصِيرَةٍ وَأَنَّهُ إِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فَتْنَةَ النَّاسِ لَهُ ، وَهِيَ أَذَاهُمْ وَنَيِّلُهُمْ إِيَّاهُ بِالْمُكْرُوهِ ، وَهُوَ الْأَلْمُ الَّذِي لَا بَدْ أَنْ يَنْالَ الرَّسُولَ وَأَتَبَاعُهُمْ مِنْ خَالِفِهِمْ ، جَعَلَ ذَلِكَ فِي فَرَارِهِ مِنْهُ وَتَرَكَهُ السَّبِبَ الَّذِي يَنَالُهُ بِهِ : كَعَذَابِ اللَّهِ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ .

فَالْمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصِيرَتِهِمْ فَرَوُا مِنْ أَلْمِ عَذَابِ اللَّهِ إِلَى الإِيمَانِ ، وَتَحْمَلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَلْمِ الزَّائِلِ الْمَفَارِقِ عَنْ قَرْبٍ . وَهَذَا لِضَعْفِ بَصِيرَتِهِ فَرَمَّى مِنْ أَلْمِ أَعْدَاءِ الرَّسُولِ إِلَى مَوْافِقَتِهِمْ وَمُتَابِعَتِهِمْ ، فَفَرَّ مِنْ أَلْمِ عَذَابِهِمْ إِلَى أَلْمِ عَذَابِ اللَّهِ . فَجَعَلَ أَلْمَ فَتْنَةِ النَّاسِ فِي الْفَرَارِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ عَذَابِ اللَّهِ . وَغَبَنَ كُلُّ الغَبَنِ إِذَا استَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ . وَفَرَّ مِنْ أَلْمِ سَاعَةٍ إِلَى أَلْمِ الْأَبْدِ ، وَإِذَا نَصَرَ اللَّهُ جَنْدَهُ وَأَوْلَيَاهُ قَالَ : إِنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ صَدْرُهُ مِنَ النَّفَاقِ . اَنْتَهَى .

وَفِي الآيَةِ ردُّ عَلَى الْمُرْجَأَةِ وَالْكَرَامِيَّةِ ، وَوَجْهُهُ : أَنَّهُ لَمْ يَنْفَعْ هُؤُلَاءِ قَوْلُهُمْ : آمَنَا بِاللَّهِ . مَعَ عَدَمِ صَبْرِهِمْ عَلَى أَذَى مِنْ عَادَاهُمْ فِي اللَّهِ ، فَلَا يَنْفَعُ القَوْلُ وَالتَّصْدِيقُ بِدُونِ الْعَمَلِ . فَلَا يَصُدِّقُ الإِيمَانُ الشَّرِعيُّ عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ الْمُلْكَةِ : التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ وَعَمَلُهُ ، وَالْقَوْلُ بِاللِّسَانِ ، وَالْعَمَلُ بِالْأَرْكَانِ . وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلْفًا وَخَلْفًا ، وَاللَّهُ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . وَفِيهِ الْخُوفُ مِنْ مَدَاهِنَةِ الْخُلُقِ فِي الْحَقِّ . وَالْمَعْصَومُ مِنْ عَصْمَهُ اللَّهُ .

من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله
قوله : عن أبي سعيد مرفوعاً : إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتكم الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره .

هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي ، وأعلمه بمحمد بن مروان السدي وقال : ضعيف ، وفيه أيضاً عطية العوفي : ذكره الذهبي الضعفاء والمتروكين ، ومعنى الحديث صحيح ، وتمامه : " وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين ، وجعل لهم والحزن في الشك والسخط " .

قوله : إن من ضعف اليقين الضعف يضم ويحرك ، ضد القوة ، ضعف كرم ونصر ، ضعفاً ، وضعفة ، وضعافية ، فهو ضعيف وضعف وضعفان ، والجمع : ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفى ، أو الضعف - بالفتح - في الرأي وبالضم في البدن ، فهي ضعيفة وضعف . اليقين كمال الإيمان . قال ابن مسعود : اليقين الإيمان كله ، والصبر نصف الإيمان رواه أبو نعيم الحلية ، والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعاً . قال : ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق ، كما في حديث ابن عباس مرفوعاً : " فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً " وفي رواية : " قلت يا رسول الله كيف أصنع باليقين ؟ قال : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك " .

قوله : أن ترضى الناس بسخط الله أي تؤثر رضاهم على رضى الله ، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويعفر الذنوب . وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك . لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله . وتقرب إليه بما يسخط الله . ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله . ووفقه لعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله ، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله ، ومعرفة توحيده من ربوبيته وإلهيته وبالله التوفيق .

قوله : وأن تمدهم على رزق الله أي على ما وصل إليك من أيديهم ، بأن تضifie إليهم وتحمدhem عليه . فإن المنفصل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك وأوصله إليك ، وإذا أراد أمراً قيضاً له أسباباً . ولا ينافي هذا حديث : " من لا يشكر الناس لا يشكر الله " لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم لكون الله ساقه على أيديهم فتدعوا لهم أو تكافئهم ، لحديث : " ومن صنع إليكم معروفاً

فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه ” . فإضافة الصناعة إليهم لكونهم صاروا سبباً في إيصال المعروف إليك ، والذي قدره وساقه هو الله وحده .

قوله : وأن تذمهم على ما لم يؤتكم الله لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم فلو قدره لك لساقته المقادير إليك . فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب ، ومن حيث لا يحتسب ، لم يمدح مخلوقاً على رزق ولم يذمه على منع ، ويفوض أمره إلى الله ، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه . وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث : ” إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهيته كاره ” كما قال تعالى : ' 35 : 2 ' ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ” .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما عدا الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه ، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم ، وإنما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة . فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم . وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاءً لهم وذلك من ضعف اليقين . وإذا لم يقدر لك ما تظن يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم . فإنه ما شاء كان وما لم يشاً لم يكن ، فإذا ذمتمهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجمهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهووك ، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم . ولما قال بعض وفدبني تميم : ” أي محمد أعطني . فإن حمدي زين وذمي شين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ذات الله ” ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص وأن الأعمال من مسمى الإيمان .

قوله : وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من التمس رضي الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضي عنه الناس ، ومن التمس رضي الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ” رواه ابن حبان في صحيحه .

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ ، ورواه الترمذى عن رجل من أهل المدينة قال : كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها : أن اكتب لي كتاباً توصيني فيه ، ولا تكثري علي ، فكتبت عائشة رضي الله عنها : إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : " من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس . والسلام عليك " ورواه أبو نعيم في الحلية .
قوله : من التمس أي طلب .

قال شيخ الإسلام : وكتب عائشة إلى معاوية ، وروي أنها رفعته : " من أرضي الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن أرضي الناس بسخط الله لم يغنو عنه من الله شيئاً " هذا لفظ المرفوع .
ولفظ الموقف : " من أرضي الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضي عنه الناس ، ومن أرضي الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذماً " وهذا من أعظم الفقه في الدين فإن من أرضي الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، والله كاف عبده : ' 65 : 2 ، 3 ' " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب " . والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب . وأما كون الناس كلهم يرضون عنه قد لا يحصل ذلك ، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة . ومن أرضي الناس بسخط الله لم يغنو عنه من الله شيئاً كالظالم الذي يغضبه . وأما كون حامده ينقلب ذاماً ، فهذا يقع كثيراً ويحصل في العاقبة . فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهواهم . اهـ .

وقد أحسن من قال :

إذا صر منك الود يا غاية المنى فكل الذي فوق التراب تراب
قال ابن رجب رحمه الله : فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب ؟ إن هذا لشيء عجاب

وفي الحديث : عقوبة من خاف الناس وآثراهم رضاهم على الله ، وأن العقوبة قد تكون في الدين . عياذاً بالله من ذلك . كما قال تعالى : ' 9 : 78 ' " فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون " .

وعلى الله فتوكلوا إلخ

قوله : باب

قوله الله تعالى : ' 5 : 23 ' " وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " .

قال أبو السعادات : يقال : توكل بالأمر . إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان . إذا اعتمدت عليه ، ووكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكتابته ، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه . أهـ

وارد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى ، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر . أي وعلى الله فتوكلوا لا على غيره ، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها ، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة ، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية ، دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى ، فهو من أعظم منازل " إياك نعبد وإياك نستعين " فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله ، كما في هذه الآية ، وكما قال تعالى : ' 10 : 84 ' إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين " قوله : ' 73 : 9 ' رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلًا " الآيات في الأمر به كثيرة جداً . قال الإمام أحمد رحمه الله : التوكل عمل القلب .

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان فدل على إنفقاء الإيمان عند انفائه ، وفي الآية الأخرى : ' 10 : 84 ' قال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين " فجعل دليل صحة الإسلام التوكل ، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والهداية .

فظهر أن التوكل أصل جميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك : ' 22 : 31 ' ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق " .

قال الشارح رحمه الله تعالى : قلت : لكن التوكل على الله قسمان : أحدهما : التوكل في الأمور التي لا يقدر الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواحيث في رجاء مطالبهم من نصر ، أو حفظ أو رزق أو شفاعة . فهذا شرك أكبر .

الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة ، كمن يتوكى على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق ، أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهو نوع شرك أصغر . والوكالة الجائزة هي توكيل الإنسان للإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه ، لكن ليس له أن يعتمد في حصوله ما وكل فيه ، بل يتوكى على الله في تيسير أمره الذي يطلب بنفسه أو نائبه ، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب .

” إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ”

قال : وقول الله تعالى : ' 8 : 2 ' ” إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ” الآيات .

قال ابن عباس في الآية : المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ” إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ” فأدوا فرائضه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ووصل القلب من الله مستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه : قال السدي : ” الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ” هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال يهم بمعصية ، فيقال له : اتق الله ، فيجعل قلبه رواه ابن أبي شيبة وابن جرير . قوله : ” وإذا تلقيت عليهم آياته زادتهم إيماناً ” استدل الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه .

قال عمير بن حبيب الصحابي : ” إن الإيمان يزيد وينقص ، فقيل له : وما زيادة ونقصانه ؟

قال : إذا ذكرنا الله وخشيناه بذلك زيادته . وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا بذلك نقصانه ” . رواه ابن سعد .

وقال مجاهد : الإيمان يزيد وينقص وهو قول وعمل رواه ابن أبي حاتم .

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى .

قوله : ” وعلى ربهم يتوكلون ” أي يعتمدون عليه بقلوبهم مفهومين إليه أمرهم فلا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا إليه ، يعلمون أن ما شاء كان وما لم يشاً لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده ، والعبود وحده ، لا شريك له . وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان ، وهي : الخوف ، وزيارة الإيمان ، والتوكى على الله وحده . وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة مثال ذلك الصلاة ، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها وأدى

الزكاة كما أمره الله استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات وترك جميع المحرمات ، كما قال تعالى : ' 45 : 29 ' إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر " .

معنى : حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين

قال وقوله : ' 8 : 64 ' يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين " قال ابن القيم رحمة الله : أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك : فلا تحتاجون معه إلى أحد ، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله .

وأقيل : المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون .

قال ابن القيم رحمة الله : وهذا خطأ محضر لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكافية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة . قال الله تعالى : ' 8 : 62 ' وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين " ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعبادته ، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى : ' 3 : 173 ' الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل " ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله . ونظير هذا قوله سبحانه : ' 9 : 59 ' وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون " . فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول ، وجعل الحسب له وحده . فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال " إنا إلى الله راغبون " فجعل الرغبة إليه وحده ، كما قال تعالى " وإلى ربك فارغب" فالرغبة والتوكيل والإنابة والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلق لا يكون إلا له سبحانه وتعالى . انتهى .

وبهذا يتبيّن مطابقة الآية للترجمة . فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكّل إلا عليه ، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وكله الله إلى من التفت إليه ، كما في الحديث : " من تعلق شيئاً وكل إليه " .

قال : وقول الله تعالى : ' 3 : 65 ' ومن يتوكّل على الله فهو حسبيه " .

قال ابن القيم رحمة الله وغيره : أي كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطعم فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه ، كالحر والبرد والجوع والعطش . وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذي هو الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشفى به منه . قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكيل

عليه نفس كفایته ، فقال : " ومن يتوکل علی الله فهو حسّبه " فلم يقل : فله کذا وكذا من الأجر كما قال في الأفعال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكّل عليه وحسّبه وواقيه . فلو توکل العبد على الله حق توکله ، وكادته السموات والأرض ومن فيهن ، لجعل الله له مخرجاً وكفاه رزقه ونصره . انتهى .

وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال : " قال الله عز وجل في بعض كتبه : بعزمي إنّه من اعتصم بي فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن ، فإنني أجعل له من ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ثم أكله إلى نفسه . كفى بي لعبي مالاً . إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني ، وأستجيب له قبل أن يدعوني . فأنا أعلم بحاجته التي نرفق به منه " .

وفي الآية دليل على فضل التوکل ، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار . لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى وتعليق الجزء على الشرط . فيمتنع أن يكون وجود الشرك كعدمه ، لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له ، فعلم أن توکله هو سبب كون الله حسّباً له .

وفيها تنبئه على القيام بالأسباب مع التوکل ، لأنّه تعالى ذكر التقوى ثم ذكر التوکل ، كما قال تعالى : ' 5 : 11 ' واتقوا الله وعلى الله فليتوکل المؤمنون " فجعل التوکل مع التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها . فالتوکل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محسن ، وإن كان مشوباً بنوع من التوکل فلا ينبغي للعبد أن يجعل توکله عجزاً ولا عجزه توکلاً ، بل يجعل توکله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها . ذكره ابن القيم بمعناه .

قال : وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " حسّبنا الله ونعم الوكيل " ، قالها إبراهيم صلي الله عليه وسلم حين ألقى في النار ، وقالها محمد صلي الله عليه وسلم حين قالوا له : " إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهن فزادهم إيماناً وقالوا حسّبنا الله ونعم الوكيل " رواه البخاري . قوله : حسّبنا الله أي كافينا . فلا نتوکل إلا عليه . قال تعالى ' 39 : 36 ' أليس الله بكاف عبده ؟ .

قوله : ونعم الوكيل أي نعم الموكل إليه ، كما قال تعالى : ' 78 : 22 ' واعتتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير " ومخصوص نعم ممحوف تقديره هو .

قال ابن القيم رحمه الله : هو حسب من توكل عليه وكافي من لجاً إليه ، وهو الذي يؤمن خوف الخائف ، ويغير المستجير ، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه . ومن خافه واتقه ، أمنه مما يخاف ويحذر ، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع .

ما قال إبراهيم حين ألقى في النار

قوله : قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى في النار قال تعالى : ' 21 : 68 - 70 ' " قالوا حرقوه وانصرعوا آهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني بربا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرین " .

قوله : وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له : " إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل " وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد " بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكراة عليهم ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان . فرجع إلى مكة بمن معه ، ومر به ركب من عبد القيس فقال : أين ت يريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : فهل أنتم مبلغون محمداً عنني رسالة ؟ قالوا : نعم . قال فإذا وافيتكموه فأخبروهم أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان . فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل " ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة وأنها قول الخليلين عليهمما الصلاة والسلام في الشدائى . وجاء في الحديث : " إذا وقعت في الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل " .

ما قال إبراهيم حين ألقى في النار

قوله : قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى في النار قال تعالى : ' 21 : 68 - 70 ' " قالوا حرقوه وانصرعوا آهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني بربا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرین " .

قوله : وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له : " إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل " وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد " بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكراة عليهم ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين راكباً حتى

انتهى إلى حمراء الأسد ، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان . فرجع إلى مكة بمن معه ، ومر به ركب من عبد القيس فقال : أين ت يريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : فهل أنتم مبلغون محمداً عن رسالتة ؟ قالوا : نعم . قال فإذا وافيتتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان . فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل " ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة وأنها قول الخليلين عليهم الصلاة والسلام في الشدائد . وجاء في الحديث : " إذا وقعت في الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل " .

باب قول الله " أَفَمْنَوْا مَكْرَ اللَّهِ "

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 7 : 99 ' أَفَمْنَوْا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنْ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ " .

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبية على أن الأمان من مكر الله من أعظم الذنوب . وأنه ينافي كمال التوحيد ، كما أن القنوط من رحمه الله كذلك وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة .

ومعنى الآية : أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بين أن الذي حملهم على ذلك هو الأمان مكر الله وعدم الخوف منه ، كما قال تعالى : ' 7 : 96 - 98 ' أَفَمَنَ أَهْلَ الْقَرَى أَن يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا بَيَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمْنَ أَهْلَ الْقَرَى أَن يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا ضَحْى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَمْنَوْا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنْ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ " . أي الهالكون . وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعيم ، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا .

قال الحسن رحمه الله : من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له .

وقال قتادة : بعثت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلى عند سلطتهم ونعمتهم غرتهم . فلا تغروا بالله .

وفي الحديث : " إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدرج " رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم .

وقال إسماعيل بن رافع : " من الأمان من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة " رواه ابن أبي حاتم .

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف : يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه ، ويملئ لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك ، ذكره ابن جرير بمعناه . قال : وقول الله تعالى : ' 56 : 15 ' ومن يقنط من رحمة ربها إلا الضالون " القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه . وهو يقابل الأمان من مكر الله . وكلاهما ذنب عظيم . وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد .

وذكر المصنف رحمة الله تعالى هذه الآية مع التي قبلها تنبئهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته ، بل يكون خائفاً راجياً ، يخاف ذنبه ويعمل بطاعته ، ويرجو رحمته ، كما قال تعالى : ' 39 : 9 ' أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربها " وقال : ' 2 : 218 ' إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم " فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان ، ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك ، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفاً من الله تعالى وهرباً من عقابه ، وطمعاً في المغفرة ورجاء لثوابه .

والمعنى أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عليه السلام ، لما بشرته الملائكة بابنه إسحاق : ' 15 : 54 ' قال أبشرتني على أن مبني الكبر بضم تبشيرون " لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها . والله على كل شئ قدير ، فقالت الملائكة : " بشرناك بالحق " الذي لا ريب فيه . فإن الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون : " فلا تكن من القاطنين " أي من الأيسين ، فقال عليه السلام : " ومن يقنط من رحمة ربها إلا الضالون " فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم ، لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجب .

قوله : " إلا الضالون " قال بعضهم : إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون . كقوله : ' 12 : 87 ' إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " .

اليأس من روح الله والأمان من مكر الله
قوله : وعن ابن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " سئل عن الكبائر ، فقال : الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمان من مكر الله " .

هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر . فقال ابن معين : ثقة . ولينه أبو حاتم . وقال ابن كثير : في إسناده نظر . والأشبه أن يكون موقوفاً .

قوله : الشرك بالله هو أكبر الكبائر . قال ابن القيم رحمه الله : الشرك بالله هضم للربوبية وتنقص للإلهية ، وسوء ظن برب العالمين . انتهى .

ولقد صدق ونصح . قال تعالى : ' ٦ : ١ ' ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " وقال تعالى : ' ٣١ : ١٣ ' إن الشرك لظلم عظيم " ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

قوله : واليأس من روح الله أي قطع الرجاء الأول والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه ، وذلك إساءة ظن بالله ، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته .

قوله : والأمن من مكر الله أي من استدرجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان ، نعوذ بالله من ذلك . وذلك جهل بالله وبقدرته ، وثقة بالنفس وعجب بها .

واعلم أن هذا الحديث لم يرد به حصر الكبائر في الثلاث ، بل الكبائر كثير وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة ، وضابطها ما قاله المحققون من العلماء : كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب . زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : أو نفي الإيمان .

قلت : ومن برأ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قال : " ليس مما من فعل كذا وكذا "

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الإستغفار ولا صغيرة مع الإصرار

قوله : وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " أكبر الكبائر الإشراك بالله . والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله " رواه عبد الرزاق .

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه .

قوله : والقنوط من رحمة الله قال أبو السعادات : هو أشد اليأس .

وفيه التنبية على الرجاء والخوف ، فإذا خاف فلا يقتنط ولا ييأس ، بل يرجو رحمة الله . وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف ، وفي المرض الرجاء . وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره . قال : ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ، فإذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب .

قال تعالى : ' ١٤ : ١٢ ' إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير " وقال : ' ١٤ :

٣٧ ' يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقْلِبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ " قَالَ تَعَالَى : ' ٢٣ : ٦٠ ' وَالَّذِينَ يُؤْتَوْنَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ " وَقَالَ تَعَالَى : ' ٣٩ : ٩ ' أَمْنٌ هُوَ قَاتِنُ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ " الْآيَةُ . قَدْمُ الْحَذْرِ عَلَى الرَّجَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

قوله : (باب من الإيمان بالله : الصبر على أقدار الله)

قال الإمام أحمد : ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعًا من كتابه . وفي الحديث الصحيح : " الصبر ضياء " رواه أحمد ومسلم، وللبخاري ومسلم مرفوعاً : " ما أعطى أحد عطاء خيراً أوسع من الصبر " قال عمر رضي الله عنه : وجدنا خيراً عيشنا بالصبر رواه البخاري . قال علي رضي الله عنه : " إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - ثم رفع صوته - فقال : ألا إله إلا إيمان لمن لا صبر له " .

واشتقاقه : من صبر إذا حبس ومنع . والصبر حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكي والتتسخط ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما ذكره ابن القيم رحمه الله . واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام : صبر على ما أمر الله به ، وصبر على ما نهى عنه ، وصبر على ما قدره من المصائب .

قوله : وقول الله تعالى : ' ٦٤ : ١١ ' وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .

وأول الآية : " مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ " أَيْ بِمُشِيَّتِهِ وِإِرَادَتِهِ وِحِكْمَتِهِ ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الْآخِرَةِ : ' ٥٧ : ٢٢ ' مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُبَرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ " وَقَالَ : ' ٢ : ١٥٤ ' وَبَشَّرَ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتُ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةُ أُولَئِكَ هُمُ الْمَهْتَدُونَ " .

معنى قول الله " ومن يؤمن بالله يهد قلبه "

قوله : " وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : " إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ " إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ يَعْنِي عَنْ قَدْرِهِ وَمُشِيَّتِهِ " وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ " أَيْ مَنْ صَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعْلَمَ أَنَّهَا بِقَدْرِ اللَّهِ فَصَبَرَ

واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه بما فاته من الدنيا هدى في قلبه ، ويقيناً صادقاً .
وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه .

قوله : " والله بكل شيء علیم " تنبیه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته . وذلك
يوجب الصبر والرضا .

قوله : قال علقة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيفرض ويسلم .
هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .
وعلقة : هو قيس بن عبد الله النخعي الكوفي . ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمع
من أبي بكر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم . وهو من كبار التابعين
وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين .

قوله : هو الرجل تصيبه المصيبة إلخ . هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان . قال : كنا عند
علقة فقرئ عليه هذه الآية : " ومن يؤمن بالله يهد قلبه " قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها
من عند الله فيفرض ويسلم . هذا سياق ابن جرير . وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان .
قال سعيد بن جبیر : " ومن يؤمن بالله يهد قلبه " يعني يسترجع . يقول إنا لله وإنا إليه راجعون .
وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب وأنها من ثواب الصابرين .

قوله : وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
: " اثننتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت " .

أي هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية ، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منها إلا من
سلمه الله تعالى ورزقه علماً وإيماناً يسترضي به . لكن ليس من قام بشعبية من شعب الكفر يصير كافراً
كالكفر المطلق . كما أنه ليس من قام به شعبية من شعب الإيمان يصير مؤمناً بالإيمان المطلق . وفرق بين
الكفر المعرف باللام كما في قوله : " ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة " وبين كفر
منكر في الإثبات .

قوله : الطعن في النسب أي عيبه ، يدخل فيه أن يقال : هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبة .
قوله : والنياحة على الميت أي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت ، لما فيه من التسخط
على القدر المنافي للصبر ، كقول النائحة : واعضده ، وانصره ، ونحو ذلك . وفيه دليل على أن
الصبر واجب ، وأن الكفر ما لا ينقل عن الله .

براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من ضرب الخدود إلخ
قوله : ولهمما عن ابن مسعود مرفوعاً : " ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا
بدعوى الجاهلية " .

هذا من نصوص الوعيد ، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها ليكون أوقع في النفوس
، وأبلغ في الزجر ، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب .

قوله : من ضرب الخدود وقال الحافظ : خص الخد لكونه الغالب وإلا فضرب بقية الوجه مثله .
قوله : وشق الجيوب هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب ، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً
على الميت .

قوله : ودعا بدعوى الجاهلية قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : هو ندب الميت . وقال غيره :
هو الدعاء بالويل والثبور . وقال ابن القيم رحمه الله : الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل
والعصبية ، ومثله التعصب إلى المذهب والطائف والمشيخ ، وتفضيل بعضهم على بعض ، يدعوا إلى ذلك
ويوالي عليه ويعادي ، فكل هذا من دعوى الجاهلية .

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن
الخامسة وجهها ، والشاقة جبيها ، والداعية بالويل والثبور " .

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر ، وقد يعفى عنه الشئ اليسير من ذلك إذا كان صدقاً
وليس على وجه النوح والتسطخ نص عليه أحمد رحمه الله ، لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضي الله عنهمما
لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء ، لما في الصحيح أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم قال : " تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي رب ،
 وإنما بك يا إبراهيم لمحزونون " وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه : " أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت ، فرفع إليه نفسه تقعقع كأنها شن ،
ففاضت عيناه ، فقال سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ،
 وإنما يرحم الله من عبادة الرحماء " .

قوله : " وَعَنْ أَنْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ
الْخَيْرَ عَجَلَ لِهِ الْعَقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ بَعْدَهُ الشَّرَ أَمْسَكَ عَنْهُ بَذْنَبِهِ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ "

هذا الحديث رواه الترمذى والحاكم وحسنه الترمذى . وأخرجه الطبرانى والحاكم عن عبد الله بن مغفل ابن عدي عن أبي هريرة ، والطبرانى عن عمار بن ياسر .

قوله : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ الْخَيْرَ عَجَلَ لِهِ الْعَقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا أَيْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ الْبَلاءَ وَالْمَصَابِلَ لِمَا
فَرَطَ مِنَ الذَّنْوَبِ مِنْهُ ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا وَلَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قال شيخ الإسلام رحمة الله تعالى : المصائب نعمة ، لأنها مكفرات للذنب ، وتدعى إلى الصبر فيثاب عليها . وتقتضى الإنابة إلى الله والذل له ، والإعراض عن الخلق ، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة . فنفس البلاء يكفر الله به الذنب والخطايا . وهذا من أعظم النعم . فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شرًا عليه من جهة ما أصابه في دينه ، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه ، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة ، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة ، كانت في حقه نعمة دينية ، فهي بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق والله تعالى محمود عليها ، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه ، وحصل له بعد ما كفر من خطایاه رحمة ، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه ، قال تعالى : ٢ : ١٥٦ ' أَولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ' وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات . فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك انتهى ملخصاً .

قوله : إِذَا أَرَادَ بَعْدَهُ الشَّرَ أَمْسَكَ عَنْهُ أَيْ أَخْرَ عنْهُ الْعَقُوبَةَ بَذْنَبِهِ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً حتى مبنياً للفاعل . قال العزيزي : أي لا يخازيه بذنبه في الدنيا
حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنب وافيهما ، فيستوفى ما يستحقه من العقاب . وهذه الجملة هي
آخر الحديث . فأما قوله : وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءَ مَعَ عَظَمِ الْبَلاءِ " إِلَى
آخره فهو أول حديث آخر ، لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف
كالحديث الواحد .

وفيه التنبية على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك ، كما قال تعالى : ' 216 : 2 ' " عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون "

قوله : وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إن عظم الجزاء مع عظم البلاء . وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط " حسن الترمذى .

قال الترمذى : حدثنا قتيبة ثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس ، ذكر الحديث السابق ثم قال : وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن عظم الجزاء ... " الحديث . ثم قال حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن ماجه . وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه : " إذا أحب الله قوماً ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع " قال المنذري : رواته ثقات .

قوله : إن عظم الجزاء بكسر العين وفتح الظاء فيها . ويجوز ضمها مع سكون الطاء . أي من كان ابتلاوه أعظم كمية وكيفية .

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول : إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا ، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط ، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح ، كالصبر والرضا والتوبة والإستغفار . فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها ، وعلى هذا يقال في معنى الحديث : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب .

قوله : وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ولهذا ورد في حديث سعد : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ، ثم الأمثل فأمثال ، يبتلي الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، مما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة " رواه الدرامي وابن ماجه والترمذى وصححه .

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد ، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا الله ، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً ، فلأن لا يملكون لغيرهم أولى وأخرى ، فيحرم قصدتهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريح كربة ، وفي وقوع الإبتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى .

قوله : فمن رضى فله الرضا ، أي من الله تعالى ، والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه كقوله تعالى ' ٩٨ : ٨ ' جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه " ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة : إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وتزيهاً بلا تعطيل : فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير ، وسلم من كل شر ، والرضى هو أن يسلم العبد أمره إلى الله ، ويحسن الظن به ، ويرغب في ثوابه ، وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً محبة لله وثقة به ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل لهم والحزن في الشك والسخط .

قوله : ومن سخط وهو بكسر الخاء ، قال أبو السعادات : السخط الكراهة للشئ وعدم الرضا به . أي من سخط على الله فيما دبره فله السخط ، أي من الله ، وكفى بذلك عقوبة . وقد يستدل به على وجوب الرضا وهو اختيار ابن عقيل . واختار القاضي عدم الوجوب ، ورجحهشيخ الإسلام وابن القيم .

قال شيخ الإسلام : ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر . وإنما جاء الثناء على أصحابه .
قال : وأما ما يروى من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخد رباً سوائياً فهذا إسرائيلي لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قال شيخ الإسلام : وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها . اهـ والله أعلم .

باب ما جاء في الرياء

قوله : (باب : ما جاء في الرياء)

أي من النهي والتحذير . قال الحافظ : هو مشتق من الرؤية . والمراد بها إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها . والفرق بينه وبين السمعة : أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاه . والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر ، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله .

" قل إنما أنا بشر مثلكم " إلخ

قوله : وقول الله تعالى : ' 18 : 110 ' " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد " أي ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء ، بل ذلك كله وحده لا شريك له أوحد إلى " فمن كان يرجو لقاء ربه " أي يخافه " فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً " ، قوله أحداً نكرة في سياق النهي تعم ، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، وقالوا : لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيمة ، وذكر الأدلة على ذلك .

قال ابن القيم رحمه الله في الآية : أي كما أن الله واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له ، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح : هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة .

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرسلين قبله ، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة ، كما قال تعالى : ' 21 : 25 ' وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام : إما طاغوت ينافع الله في ربوبيته وإلهيته ، ويدعو الناس إلى عبادته ، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان ، أو مشرك يدعو غير الله ويقترب إليه بأنواع العبادة أو بعضها ، أو شاك في التوحيد : فهو حق أم يجوز أن يجعل الله شريك في عبادته ؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله ، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجلهم وتقليلهم من قبلهم ، لما اشتتدت غربة الدين ونسى العلم بدين المرسلين .

الله أغنى الشركاء عن الشرك

قوله : وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : " قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه " رواه مسلم .

قوله : من عمل عملاً أشرك فيه غيري أي من قصد بعمله غيري من المخلوقين تركته وشركه . ولابن ماجه فأنا بريء وهو الذي أشرك قال الطيببي : الضمير المنصب في قوله تركته يجوز أن يرجع إلى العمل .

أخوف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من الرياء

قال ابن رجب رحمة الله : واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رباء محضاً كحال المنافقين كما قال تعالى : '4: 142' 'إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يَرَأُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قليلاً' وهذا الرباء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة أو التي يتعدى نفعها ، فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة .

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرباء ، فإن شاركه من أضلاته فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه - وذكر أحاديث تدل على ذلك منها : هذا الحديث وحديث شداد بن أوس مرفوعاً " من صلى برائي فقد أشرك ، ومن صام برائي فقد أشرك ، ومن تصدق برائي فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول : أنا خير قسم من أشرك بي ، فمن أشرك بي شيئاً فإن جدة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به . أنا عنه غني " رواه أحمد ، وذكر أحاديث في المعنى ثم قال : فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرباء ، مثل أخذ أجرة الخدمة أو أخذ من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهاده ولم يبطل بالكلية .

قال ابن رجب : وقال الإمام أحمد رحمة الله : التاجر المستأجر والمكرى أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم ، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وما له لا يخلط به غيره .

وقال أيضاً فيمن يأخذ جعل الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدرارم فلا بأس كأنه خرج لدينه إن أعطي شيئاً أخذه . وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : " إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك ، وأما إن أحدكم أعطى درارم غزا وإن لم يعط لم يغز فلا خير في ذلك " . وروى عن مجاهد رحمة الله أنه قال في حج الجمال وحج الأجير ، وحج التاجر : هو تام لا ينقص من أجرهم شيء لأن قصدتهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب . قال : وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرباء ، فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فهل يحيط عمله أم لا فيجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حکاه الإمام أحمد وابن جرير ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازي بنيته الأولى ، وهو مروي عن الحسن وغيره . وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمد الناس عليه ، فقال : تلك عاجل بشرى المؤمن " رواه مسلم . انتهى ملخصاً .

قلت : وتمام هذا المقام يتبيّن في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى .

قوله : وعن أبي سعيد مرفوعاً " ألا أخبركم بما هو أخو福 عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الشرك الخفي : يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل " رواه أحمد .

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لبيد قال : " خرج عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس ، إياكم وشرك السرائر ، قالوا يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه . فذلك شرك السرائر " .

قوله : عن أبي سعيد الخدري وتقدم .

قوله : الشرك الخفي سماه خفيأ لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره ، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله . وعن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص ، وابن جرير في التهذيب ، والطبراني والحاكم وصححه .

قال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل ماشاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، وما لي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولو لا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شرك أكبر بحسب حال قائله ومقصده ، انتهى .

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله ، وكذلك المتابعة ، كما قال الفضيل بن عياض رحمة الله في قوله تعالى : ' 67 : 2 ' لبِلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً " قال : أَيُّكُمْ أَخْلَصَهُ وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبِلْ ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا لَمْ يَقْبِلْ ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالصًا لَمْ يَقْبِلْ حتَّى يَكُونَ خَالصًا صَوَابًا ، فَالخالص مَا كَانَ لِلَّهِ ، وَالصَّوَابُ مَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ .

وفي الحديث عن الفوائد : شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ونصحه لهم ، وأن الرياء أخو福 على الصالحين من فتنة الدجال . فإن كان النبي صلى الله عليه وسلم يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم من هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره

فإن قيل : فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله ؟

قلت : بينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان في مادة ، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتتصنع لهم والثناء ، فهذا رباء كما تقدم بيانه ، كحال المنافقين . وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس ، وطلب المدح منهن والإكرام . ويفارق الرياء بكونه عمل عملاً صالحًا ، أراد به عرضاً من الدنيا ، كمن يجاهد ليأخذ مالاً ، كما في الحديث " تعس عبد الدينار " أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى : ' 15 : 11 ' من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها " .

وأراد المصنف رحمة الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب ، ويحطط الأعمال ، وهو أعظم من الرياء ، لأن مرید الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله ، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل ، ولا يسترسل معه ، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا .

قال : وقوله تعالى : ' 15 : 11 ، 16 ' من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحطط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون " .

قال ابن عباس رضي الله عنه : " من كان يريد الحياة الدنيا " أي ثوابها . وزينتها ، أي مالها . نوف ، أي نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد : " وهم فيها لا يبخسون " لا ينقصون ، ثم نسختها : ' 17 : 18 ، 19 ' من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن يريد " الآيتين . رواه النحاس في ناسخه .

قوله : ثم نسختها أي قيدتها . فلم تبق الآية على إطلاقها .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسنته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطي بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسنته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ذكره ابن حجر بن سنه ، ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حبيبة بن شريح قال : حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفوي بن ماتع الأصبحي حدثه : (أنه دخل المدينة فإذا هو ب الرجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة . قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس . فما سكت وخلا قلت : أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته . قال : فقال أبو هريرة :

أ فعل ، لأحدثنك حديثاً حديثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة ، ثم أفاق فقال : لأحدثنك حديثاً حديثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما فيه غيري أحد وغيره . ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ، ثم مال خاراً على وجهه ، واشتد به طويلاً . ثم أفاق فقال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيمة نزل إلى القيمة ليقضي بينهم ، وكل أمة جاثية . فأول من يدعوه به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى يا رب . قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار . في يقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك . ويؤتي بصاحب المال في يقول الله له : ألم أسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فما عملت فيما آتتتك ؟ قال : كنت أصل الرحمة وأتصدق ، في يقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جواد ، فقد قيل ذلك . ويؤتي بالذي قتل في سبيل الله فيقال له : فبماذا قتلت ؟ في يقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلتك حتى قتلت ، في يقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك . ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيمة " .

وقد سُئل شيخنا المصنف رحمة الله عن هذه الآية فأجاب بما حاصله : ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناها .

فمن ذلك : العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتعاء وجه الله : من صدقة وصلاة ، وصلة وإحسان إلى الناس ، وترك ظلم ، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله ، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة ، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته ، أو حفظ أهله وعياله ، أو إدامة النعمة عليهم ، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار ، فهذا يعطي ثواب عمليه في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب . وهذا النوع ذكره ابن عباس .

النوع الثاني : وهو أكبر من الأول وأخوف ، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية : أنها نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونبيته رباء الناس ، لا طلب ثواب الآخرة .

النوع الثالث : أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً ، مثل أن يحج مال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيّبها ، أو امرأة يتزوجها ، أو يجاهد لأجل المغانم ، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية ،

كما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم ، أو يتعلم القرآن و بواسطه على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، كما هو واقع كثيراً .

النوع الرابع : أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له لكنه على عمل يكفره كفراً يخرجه عن الإسلام ، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله ، أو تصدقاً أو صاموا إبتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية ، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يربدون بها ثواب الله في الدار الآخرة ؟ لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم ، فهذا النوع أيضاً قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره ، وكان السلف يخافون منها ، قال بعضهم : لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول : ' 5 : 27 ' إنما يتقبل الله من المتقيين " .

ثم قال : بقي أن يقال : إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج إبتغاء وجه الله ، طالباً ثواب الآخرة ، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا ، مثل أن يحج فرضه لله ، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع ، فهو لما غالب عليه منهما . وقد قال بعضهم : القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص ، ويذكر عن صاحب الشائبتين ، وهو هذا وأمثاله ا هـ .

تعس عبد الدينار

قوله : (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شئت فلا انتقض . طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقية كان في الساقية . إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع له " .

قوله : في الصحيح أي صحيح البخاري .

قوله : تعس هو بكسر العين ويجوز الفتح أي سقط ، والمراد هنا هلك . قاله الحافظ ، وقال في موضع آخر : وهو ضد سعد . أي شقي . قال أبو السعادات : يقال تعس يتعرس إذا عشر وانكب لوجهه . وهو دعاء عليه بالهلاك .

قوله : عبد الدينار هو المعروف من الذهب كالثقال في الوزن .

قوله : تعس عبد الدرهم وهو من الفضة ، قدره الفقهاء بالشعيرو وزناً ، وعندنا منه درهم من ضرببني أمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخمساً حبة سماه عبداً له ، لكونه هو المقصود بعمله ، فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكأ له في عبوديته كما هو حال الأكثـر .

قوله : تعس عبد الخميصة قال أبو السعادات : هي ثوب خز أو صوف معلم ، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة ، وتجمع على خمائص . والخمبلة بفتح الخاء المعجمة وقال أبو السعادات : ذات الخمل ، ثياب لها خمل من أي شيء كان .

قوله : تعس وانتكس قال الحافظ : هو بالمهملة ، أي عاوده المرض . وقال أبو السعادات : أي انقلب على رأسه . وهو دعاء عليه بالخيبة . قال الطيبـي : فيه الترقـي بالدعاء عليه . لأنـه إذا تعـس انـكب على وجهـه . وإذا انتـكس انـقلب على رأسـه بعد أنـ سقط .

قوله : وإذا شـيك أي أصابـته شـوكـة فلا انتـقـش أي فلا يـقدر على إخـراجـها بالـمناقـش قالـه أبو السـعادـات .

والـمـراد أنـ منـ كانتـ هـذـهـ حـالـهـ فإـنـهـ يـسـتحقـ أنـ يـدـعـىـ عـلـيـهـ بـمـاـ يـسـوـهـ فـيـ الـعـاقـبـ ، وـمـنـ كـانـتـ هـذـهـ حـالـهـ فـلاـ بـدـ أـثـرـ هـذـهـ الدـعـوـاتـ فـيـ الـوـقـوـعـ فـيـمـاـ يـضـرـهـ فـيـ عـاجـلـ دـنـيـاهـ وـأـجـلـ أـخـرـاهـ .

قالـ شـيخـ الإـسـلامـ رـحـمـهـ اللهـ : فـسـمـاهـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ عـبـدـ الـدـيـنـارـ وـعـبـدـ الـقـطـيفـةـ وـعـبـدـ الـخـميـصـةـ . وـذـكـرـ فـيـهـ مـاـ هـوـ دـعـاءـ بـلـفـظـ الـخـبـرـ وـهـوـ قـوـلـهـ : تعـسـ وـانـتكـسـ وـإـذـ شـيكـ فـلاـ اـنـتقـشـ وـهـذـهـ حـالـهـ مـنـ إـذـ أـصـابـهـ شـرـ لـمـ يـخـرـجـ مـنـهـ وـلـمـ يـفـلـحـ ، لـكـونـهـ تعـسـ وـانـتكـسـ ، فـلاـ نـالـ مـلـطـلـوبـ ، وـلـاـ خـلـصـ مـنـ مـكـروـهـ ، وـهـذـاـ حـالـهـ مـنـ عـبـدـ الـمـالـ . وـقـدـ وـصـفـ ذـكـرـ بـأـنـهـ : إـنـ أـعـطـىـ رـضـىـ ، وـإـنـ مـنـ سـخـطـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ : ' 8 : 58 ' وـمـنـهـ مـنـ يـلـمـزـكـ فـيـ الصـدـقـاتـ فـإـنـ أـعـطـواـ مـنـهـ رـضـواـ وـإـنـ لـمـ يـعـطـواـ مـنـهـ إـذـ هـمـ يـسـخـطـونـ " فـرـضـأـهـمـ لـغـيرـ اللهـ ، وـسـخـطـهـمـ لـغـيرـ اللهـ ، وـهـكـذـاـ حـالـهـ مـنـ كـانـ مـتـعـلـقاـ مـنـهـ بـرـيـاسـةـ أـوـ صـورـةـ وـنـحـوـ ذـكـرـ مـنـ أـهـوـاءـ نـفـسـهـ ، إـنـ حـصـلـ لـهـ رـضـىـ ، وـإـنـ لـمـ يـحـصـلـ لـهـ سـخـطـ ، فـهـذـاـ عـبـدـ مـاـ يـهـوـاهـ مـنـ ذـكـرـ وـهـوـ رـقـيقـ لـهـ ، إـذـ الرـقـ وـالـعـبـودـيـةـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ هـوـ رـقـ الـقـلـبـ وـعـبـودـيـتـهـ ، فـمـاـ اـسـتـرـقـ الـقـلـبـ وـاسـتـعـبـدـهـ فـهـوـ عـبـدـهـ - إـلـىـ أـنـ قـالـ : -

وهـكـذـاـ أـيـضاـ طـالـبـ الـمـالـ ، فـإـنـ ذـكـرـ يـسـتـعـبـدـهـ وـيـسـتـرـقـهـ وـهـذـهـ الـأـمـورـ نـوعـانـ ، فـمـنـهـ مـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ العـبـدـ ، كـمـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ طـعـامـهـ وـشـرابـهـ وـمـنـكـحـهـ وـمـسـكـنـهـ وـنـحـوـ ذـكـرـ ، فـهـذـاـ يـطـلـبـ مـنـ اللهـ وـيـرـغـبـ إـلـيـهـ فـيـهـ . فـيـكـونـ الـمـالـ عـنـهـ يـسـتـعـمـلـهـ فـيـ حـاجـتـهـ بـمـنـزـلـةـ حـمـارـهـ الـذـيـ يـرـكـبـهـ ، وـبـسـاطـهـ الـذـيـ يـجـلـسـ عـلـيـهـ مـنـ غـيـرـ أـنـ يـسـتـعـبـدـهـ فـيـكـونـ هـلـوـعاـ .

ومنها : ما لا يحتاج إليه العبد ، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها ، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدًا لها ، وربما صار مستعبدًا متعتمدًا على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكيل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكيل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : " تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخبيصة ، تعس عبد الخميرة " وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله ، فإن الله إذا أعطاه إياه رضى ، وإن منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ويستخطه ما يستخط الله ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ، ويواли أولياء الله ويعادي أعداء الله فهذا الذي استكمل الإيمان ، انتهى ملخصاً .

قوله : طبوي عبد قال أبو السعادات : طبوي اسم الجنة ، وقيل : هي شجرة فيها ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال : " قال رجل : يا رسول الله وما طبوي ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها " ورواه الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن رجلاً قال : يا رسول الله ، طبوي لمن رأك وآمن بك ، قال طبوي لمن رأني وآمن بي ، وطبوي ثم طبوي لمن آمن بي ولم يرني . قال له رجل : وما طبوي ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها " وله شواهد في الصحيحين وغيرهما . وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ها هناً أثراً غريباً عجيباً . قال وهب رحمة الله : إن في الجنة شجرة يقال لها طبوي يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها : زهرها رياط ، وورقها برود وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووحلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل ، وهي مجلس لأهل الجنة ، بينما هم في مجلسهم إذا أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نجباً مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالصابيح من حسنها ، ووبرها كخز المزعزي من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس وإستبرق ، فينيخونها ويقولون : إن ربنا أرسل إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال : فيركبونها ، قال : فهي أسرع من الطائر ، وأوأطا من الفراش . خبا من غير مهنة ، يسير الراكب إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه ، لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها ، ولا برث راحلة برث صاحبتها ، حتى إن الشجرة لتنتحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه . قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام ، قال : فيقول

تبارك وتعالى عند ذلك ، أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحبتي ، مرحباً بعبادتي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري . قال فيقولون : ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم ندرك ، فائذن لنا بالسجود قدامك . قال : فيقول الله : إنها ليست بدار نصب ولا عبادة ، ولكنها دار ملك ونعم ، وإنني قد رفعت عنكم نصب العبادة ، فسلوني ما شئتم ، بأن لكل رجل منكم أمنيته . فيسألونه ، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : رببي ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوها فيها ، رب فاتني من كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قصرت بك اليوم أمنيتك . ولقد سألت دون منزلتك . هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي لأن ليس في عطائي نكدة ولا قصر يد . قال : ثم يقول : اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أماناتهم ولم يخطر على بال . قال : فيعرضون عليهم حتى تقصرون بهم أماناتهم التي في أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة . على كل سرير منها قبة من ذهب مفزعه . في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة . في كل قبة منها جاريتان من الحور العين . على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة . وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما . ولا ريح طيب إلا قد عبق بهما . ينفذ ضوء وجههما غلظ القبة . حتى يظن من يراهما أنهم من دون القبة يرى مخهما من فوق سوقيهما كالسلك الأبيض في ياقوته حمراء . يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل . ويرى لهم مثل ذلك . ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له : والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك . ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسرون بهم صفاً في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له .

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد : فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم ، فإذا بقباب في الرفيق الأعلى ، وغرف مبنية بالدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت ، وفرشها من سندس واستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من أبوابها وعراسها نور مثل شعاع الشمس ، عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء ، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها . فلو لا أنه مسخر إذاً لالتمع الأ بصار ، مما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض ، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر ، مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من الجوهر ، وشرفها من قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان . فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح ،

تحتها الولدان المخلدون ، بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت ، سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق ، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف فيننظرون رياض الجنة فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعدوا على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم وبهنيتهم كرامة ربهم ، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتاً أفنان وجنتان مدهامتان وفيهما عينان نضاختان ، وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحور مقصورات في الخيام ، فلما تبعوا منازلهم واستقرروا قرارهم قال لهم ربهم : " هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم وربنا . قال : هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربنا رضينا فارض عنا ، قال : فبرضائي عنكم أحللتكم داري ونظرتم إلى وجهي ، فعند ذلك قالوا : " الحمد لله الذي أذهب عننا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلا ندار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب " وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد في الصحيحين .

وقال خالد بن معدان : إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ، ضروع كلها ، ترضع صبيان أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيمة فيبعث ابن أربعين سنة رواه ابن أبي حاتم .

قوله : أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أي في جهاد المشركين .

قوله : أشعث مجرور بالفتحة لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل ، ورأسه مرفوع على الفاعلية ، وهو طائر الشعر ، شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالأدهان وتسريح الشعر .
قوله : مغيرة قدماء هو بالجر صفة ثانية لعبد .

قوله : إن كان في الحراسة كان في الحراسة هو بكسر الحاء أي حمى الجيش عن أن يهجم العدو عليهم .

قوله : كان في الحراسة أي غير مقصراً فيها ولا غافلاً ، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال .

قوله : وإن كان في الساقة كان في الساقة أي في مؤخرة الجيش ، يقلب نفسه في صالح الجهاد فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلاً أو نهاراً ، رغبة في ثواب الله وطلبًا لرضاته ومحبة لطاعته . قال ابن الجوزي رحمه الله : وهو خامل الذكر لا يقصد السمو .

وقال الخلالي : المعنى انتصاره بما أمر ، وإقامته حيث أقيم . لا يفقد من مقامه ، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مثنة . انتهى . وفيه فضل الحراسة في سبيل الله .
قوله : إن استأذن لم يؤذن له أي إن استأذن على الأماء ونحوهم لم يؤذن له لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة . لأنه ليس من طلابها . وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه .
قوله : وإن شفع بفتح أوله وثنية لم يشفع بفتح الفاء مشددة . يعني لو أجباته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الأماء ونحوهم .
وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : " رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره " .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان رضي الله - وهو يخطب على منبره : " إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا لظنكم . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلاً وبصام نهارها " .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك قال عبد الله بن محمد قاضي نصيبيين حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وواعده الخروج . وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة . قال :

يا عبد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخصب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتختضب

أو كان يتعب خيله في باطل فخيولهم يوم الصبيحة تتتعب

ريح العبير لكم ، ونحن عبيRNA رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أثانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب

لا يستوي غبار خيل الليل في أنف امرئ ودخان نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصبني ، ثم قال : أنت من يكتب الحديث ؟ قلت : نعم قال لي : اكتب هذا الحديث ، وأملأ على الفضيل بن عياض : حدثنا منصور بن العتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة : " أن رجلاً قال : يا رسول الله علمني عملاً أثال به ثواب المجاهدين في سبيل الله ، فقال : هل تستطيع أن

تصلي فلا تفتر ، وتصوم فلا تفتر ؟ فقال : يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : فو الذي نفسي بيده لو طوقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله ، أما علمت أن فرس المجاهد ليس تن في طوله فيكتب له بذلك حسنات ؟ .

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله

قوله : (باب : من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله)

قول الله تعالى : ' 31 ' اتخاذوا أighbors ورهبانهم أرباباً من دون الله وال المسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون " وتقديم تفسير هذا في أصل المصنف رحمة الله عند ذكر حديث عدي ابن حاتم رضي الله عنه .

قوله : وقال ابن عباس رضي الله عنهم : " يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء . أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ " .

قوله : يوشك بضم أوله وكسر الشين المعجمة أي يقرب ويensus .

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهم جواب لمن قال : إن أبو بكر وعمر رضي الله عنهم لا يريان التمتع بالعمرمة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل : أو ما هو معنى هذا ، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرمة إلى الحج واجب ويقول : إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبي" لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلوها عمرة ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ، فقال سراقة : يا رسول الله أعلمنا هذا أم للأبد ؟ فقال : بل للأبد " والحديث في الصحيحين ، وحينئذ فلا عذر لمن استفني أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك . كما قال تعالى : ' 4 : 59 ' فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا .

وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولو لا أن معي الهدى لأحللت " هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رضي الله عنها . ولفظه في حديث جابر : " افعلوا ما أمرتكم به فلو لا أني سقت الهدى لفعلت مثل الذي أمرتكم " في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس .

وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهم : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء الحديث .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى : ما منا إلا راد ومردود عليه ، إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم .

وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير .

وما زال العلماء رحمة الله يجتهدون في الواقع فمن أصاب منهم فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر ، كما في الحديث ، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم . وأما إذا لم يبلغهم الحديث أو لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم عندهم فيه حديث ، أو ثبت له معارض أو مخصوص ونحو ذلك فحينئذ يسوع ل الإمام أن يجتهد . وفي عصر الأئمة الأربع رحمة الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث من هي عنده باللقي والسماع ، ويصافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين . ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها ، وبينوا صحيحةها من حسنها من ضعيفها . والفقهاء صنفوا في كل مذهب ، وذكروا حجج المجتهدين . فسهل الأمر على طالب العلم وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده ، وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهم ما يدل على أن من يبلغه الدليل فلم يأخذ به - تقليداً لإمامه - فإنه يجب الإنكار عليه بالتلطيف لمخالفته الدليل .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عمر البزار ، حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة ابن عباس قال : ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذا فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائناً من كان ، ونصوص الأئمة على هذا ، وأنه لا يسوع التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة ، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله : لا إنكار في مسائل الإجتهاد . وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد ، وذلك مجمع عليه ، كما تقدم في كلام الشافعي رحمه الله تعالى .

قول الإمام أحمد : عجبت لقوم عرروا الإسناد ويدهبون إلى رأي سفيان الخ

قوله : وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرّفوا الإسناد وصحته ، ويذهبون إلى رأي سفيان . والله تعالى يقول : ' 24 : 63 ' فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنـة أو يصيبهم عذاب أليم " أتدرون ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شئ من الزيف فيهلك . هذا الكلام من الإمام أحمد رحمـه الله رواه عنه الفضل بن زيـاد وأبو طالب . قال الفضل عن أـحمد : نظرت في المصحف فوجـدت طاعة الرسـول صـلى الله عـلـيه وسلم في ثـلـاث وـثـلـاثـين مـوـضـعاً ، ثم جـعـلـ يـتـلـو : " فـلـيـحـذـرـ الـذـيـنـ يـخـالـفـونـ عـنـ أـمـرـهـ أـنـ تـصـيـبـهـمـ فـتـنـةـ " الآية ، ذـكرـ منـ قولـهـ : الفتـنـةـ الشـرـكـ - إـلـىـ قولـهـ - فيهـلكـ . ثم جـعـلـ يـتـلـوـ هـذـهـ الآـيـةـ : ' 4 : 65 ' فـلـاـ وـرـبـكـ لـاـ يـؤـمـنـونـ حـتـىـ يـحـكـمـوكـ فـيـماـ شـجـرـ بـيـنـهـمـ ثـمـ لـاـ يـجـدـواـ فـيـ أـنـفـسـهـمـ حـرـجاـ مـاـ قـضـيـتـ وـيـسـلـمـواـ تـسـلـيـماـ " .

وقـالـ أبوـ طـالـبـ عنـ أـحـمـدـ وـقـيـلـ لـهـ : إنـ قـوـمـاـ يـدـعـونـ الـحـدـيـثـ وـيـذـهـبـونـ إـلـىـ رـأـيـ سـفـيـانـ وـغـيـرـهـ ، فـقـالـ : أـعـجـبـ لـقـوـمـ سـمـعـواـ الـحـدـيـثـ وـعـرـفـواـ إـلـسـنـادـ وـصـحـتـهـ يـدـعـونـهـ وـيـذـهـبـونـ إـلـىـ رـأـيـ سـفـيـانـ وـغـيـرـهـ ، قـالـ اللهـ تـعـالـىـ : " فـلـيـحـذـرـ الـذـيـنـ يـخـالـفـونـ عـنـ أـمـرـهـ أـنـ تـصـيـبـهـمـ فـتـنـةـ أوـ يـصـيـبـهـمـ عـذـابـ أـلـيمـ " أـتـدـرـيـ ماـ الفتـنـةـ ؟ـ الفتـنـةـ :ـ الـكـفـرـ .ـ قـالـ اللهـ تـعـالـىـ : ' 2 : 217 'ـ وـالـفـتـنـةـ أـكـبـرـ مـنـ القـتـلـ "ـ فـيـدـعـونـ الـحـدـيـثـ عـنـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـتـغـلـبـهـمـ أـهـوـأـهـمـ إـلـىـ الرـأـيـ ذـكـرـ ذـلـكـ عـنـ شـيـخـ إـلـاسـلامـ رـحـمـهـ اللهـ تـعـالـىـ .ـ

قوله : عـرـفـواـ إـلـسـنـادـ أـيـ إـسـنـادـ الـحـدـيـثـ وـصـحـتـهـ ،ـ إـنـ صـحـ إـسـنـادـ الـحـدـيـثـ فـهـوـ صـحـيـحـ عـنـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ وـغـيـرـهـ مـنـ الـعـلـمـاءـ .ـ

وسـفـيـانـ :ـ هوـ الثـورـيـ إـلـامـ الزـاهـدـ العـابـدـ الثـقـةـ الـفـقـيـهـ ،ـ وـكـانـ لـهـ أـصـحـابـ يـأـخـذـونـ عـنـهـ ،ـ وـمـذـهـبـهـ مشـهـورـ يـذـكـرـهـ الـعـلـمـاءـ رـحـمـهـمـ اللهـ فـيـ الـكـتـبـ الـتـيـ يـذـكـرـ فـيـهاـ مـذاـهـبـ الـأـثـمـةـ ،ـ كـالـتـمـهـيدـ لـابـنـ عـبـدـ الـبـرـ ،ـ وـالـاستـذـكارـ لـهـ ،ـ وـكـتـابـ الـإـشـرافـ عـلـىـ مـذاـهـبـ الـأـشـرـافـ لـابـنـ الـمـنـذـرـ ،ـ وـالـمـحـلـيـ لـابـنـ حـزـمـ ،ـ وـالـمـغـنـيـ لـأـبـيـ مـحـمـدـ عـبـدـ اللهـ بـنـ أـحـمـدـ بـنـ قـدـامـةـ الـحـنـبـلـيـ .ـ وـغـيـرـ هـؤـلـاءـ .ـ

فـقـولـ الـإـلـامـ أـحـمـدـ رـحـمـهـ اللهـ :ـ عـجـبـتـ لـقـوـمـ عـرـفـواـ إـلـسـنـادـ وـصـحـتـهـ ...ـ إـلـخـ إـنـكـارـ مـنـهـ لـذـكـ .ـ وـأـنـهـ يـؤـولـ إـلـىـ زـيـعـ الـقـلـوبـ الـذـيـ يـكـونـ بـهـ الـمـرـءـ كـافـراـ .ـ وـقـدـ عـمـتـ الـبـلـوـيـ بـهـذـاـ الـمـنـكـرـ خـصـوصـاـ مـنـ يـنـتـسـبـ إـلـىـ الـعـلـمـ ،ـ نـصـبـواـ الـحـبـائـلـ فـيـ الصـدـ عـنـ الـأـخـذـ بـالـكـتـابـ وـالـسـنـةـ ،ـ وـصـدـواـ عـنـ مـتـابـعـةـ الرـسـوـلـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـتـعـظـيمـ أـمـرـهـ وـنـهـيـهـ ،ـ فـمـنـ ذـكـرـ قـوـلـهـ :ـ لـاـ يـسـتـدـلـ بـالـكـتـابـ وـالـسـنـةـ إـلـاـ الـمـجـتـهدـ .ـ وـالـاجـتـهـادـ قـدـ اـنـقـطـعـ وـيـقـولـ :ـ هـذـاـ الـذـيـ قـلـدـتـهـ أـعـلـمـ مـنـكـ بـالـحـدـيـثـ وـبـنـاسـخـهـ وـمـنـسـوـخـهـ ،ـ وـنـحـوـ ذـلـكـ مـنـ الـأـقـوـالـ الـتـيـ غـايـتـهـاـ تـرـكـ مـتـابـعـةـ الرـسـوـلـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ الـذـيـ لـاـ يـنـطـقـ عـنـ الـهـوـيـ ،ـ وـالـاعـتـمـادـ عـلـىـ قـوـلـ مـنـ

يجوز عليه الخطأ ، وغيره من الأئمة يخالفه ، ويمنع قوله بدليل ، فما من إمام إلا والذى معه بعض
العلم لا كله . فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك :
أن ينتهي إليه ويعمل به ، وإن خالفه من خالقه ، كما قال تعالى : ' 7 : 3 ' اتبعوا ما أنزل إليكم
من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون " وقال تعالى ' 29 : 51 ' أولم يكفهم أنا أنزلنا
عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون " وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك
، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم ، وقد حكى أيضاً أبو عمر ابن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك .
قلت : ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة ، لجهلهم بالكتاب والسنة ، ورغبتهم عنها ، وهؤلاء
وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم ، واتبعوا غير سبيلهم . كما قدمنا من قول
مالك والشافعي وأحمد ، ولكن في كلام أحمد رحمة الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم
 وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفوهم لقول إمام من الأئمة ، وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر
كتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخرها والإستعناء بها عن الوحيين ، وهذا يشبه ما وقع
من أهل الكتاب الذي قال الله فيه : ' 9 : 3 ' اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله " كما
سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم ، فيجب على من نصح نفسه إذاقرأ كتب العلماء ونظر
فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة ، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه
وانتب إلى مذهبة لا بد أن يذكر دليله ، والحق في المسألة واحد ، والأئمة مثابون على اجتهادهم ،
فالملصن يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً وتمييزاً للصواب من
الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون ، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه ، والأدلة
على هذا الأصل في كتاب الله أكثر وفي السنة كذلك ، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب
معاذ : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال : كيف تقضي إذا
عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله تعالى ، قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسبعة
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في كتاب الله
؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : الحمد لله
الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله" وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من
 أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن - بمعناه

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان ، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانة السنة ، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلمه ، وقد يبلغ غيرهم ، وذلك كثير كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء .
قال أبو حنيفة رحمه الله : إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال .

وقال : إذا قلت قولًا وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولي لكتاب الله . قيل : إذا كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لصحابة .

وقال الربيع : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذلوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت .

وقال : إذا صح الحديث بما يخالف قولي فاضربوا بقولي الحائط .

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتقدم له مثل ذلك ، فلا عذر لقلد بعد هذا . ولو استقضينا كلام العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار ، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى .

قوله : لعله إذا رد بعض قوله أي قول الرسول صلى الله عليه وسلم أي يقع في قلبه شئ من الزيف فيهلك نبه رحمه الله أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيف القلب ، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ' 61 : 5 ' فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين " .

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معنى قول الله تعالى : ' 24 : 63 ' فليحذر الذين يخالفون عن أمره " فإن كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك ، أو من العذاب الأليم ، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم ، ومعلوم أن إفشاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية ، فإفشاءه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الأمر ، كما فعل إبليس لعن الله تعالى ا

هـ .

وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك : " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة " قال : يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه .

قال أبو جعفر بن جرير : أدخلت عن لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين .

قوله : أو يصيّبهم في الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله

قوله : عن عدي بن حاتم رضي الله عنه : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية : ' 9 : 31 ' اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم " الآية . فقلت : " إنا لسنا نعبدكم . قال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ فقلت : بل ، قال : فتلك عبادتهم " رواه أحمد والترمذى وحسنه .

هذا الحديث قد روى من طرق ، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، وأبو الشيخ وابن مردوه والبيهقي .

قوله : عن عدي بن حاتم أي الطائي المشهور . وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج - بفتح الحاء - المشهور بالسخاء والكرم . قدم عدي على النبي صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة تسع من الهجرة . فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة .

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله ، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لقوله تعالى في آخر الآية : " وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون " ونظير ذلك في قوله تعالى : ' 6 : 121 ' ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعمتهم إنكم لشركون " وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم ، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد ، وهو من هذا الشرك . ومنهم من يغلو في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره ، أو يحرم ، فعظمت الفتنة . ويقول : هم أعلم منا بالأدلة . ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد ، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل ، ولا ريب أن هذا من غرابة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل :

فتغيرت الأحوال ، وآلت إلى هذه الغاية فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ، ويسموها ولایة ، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه . ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين .

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله فقد عمت بها البلوى قديماً وحديثاً في أكثر الولاية بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرا . وقد قال تعالى : ' 28 : 50 ' " فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل من اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين "

وعن زياد بن حذير قال : قال لي عمر رضي الله عنه : " هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، وحكم الأئمة المضللين " رواه الدارمي .
جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون .

باب " ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا " إلخ

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 4 : 60 ' " ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك " الآيات .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : والآية ذاتها لمن عدل عن الكتاب والسنّة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هنا .

وتقدم ما ذكره ابن القيم رحمه الله في حده للطاغوت ، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبد أو متبوع أو مطاع ، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به ، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن كان يحكم بهما ، فمن تحاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حده ، وخرج عما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأنزله منزلة لا يستحقها . وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت ، فإن كان العبود صالحًا صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها ، كما قال تعالى : ' 10 - 28 - 30 ' " يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانتكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون " وكقوله : ' 34 - 40 - 41 ' " ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون " وإن كان من يدعون إلى عبادة نفسه أو كان شجراً أو حبراً وغير ذلك مما يتتخذه المشركون أصناماً على

صور الصالحين والملائكة وغير ذلك ، فهمي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته ، ويتبرأوا منه ، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائناً من كان ، وهذا كله من عمل الشيطان وتسوبله ، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزينة لمن فعل ، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله . فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله ، كما قال تعالى : ' 60 : 4 ' قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفربنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده " وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه .

قال الإمام مالك رحمه الله الطاغوت ما عبد من دون الله .

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ورغم عنه ، وجعل لله شريكاً في الطاعة وخالف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمره الله تعالى به في قوله : " وأن احکم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنتوك عن بعض ما أنزل الله إليك " قوله تعالى : ' 4 : 65 ' فلا وربك لا يؤمّنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً " فمن خالف ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله ، أو طلب ذلك أتباعاً لما يهواه ويريده فقد خلع رقبة الإسلام والإيمان في عنقه . وإن زعم أنه مؤمن ، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك ، وأكذبهم في زعمهم بالإيمان لما في ضمن قوله : " يزعمون " من نفي إيمانهم ، فإن " يزعمون " إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لوجبهما وعمله بما ينافيها ، يتحقق هذا قوله : " وقد أمروا أن يكفروا به " لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد ، كما في آية البقرة فإن لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتقدس بعده . كما أن ذلك بين في قوله تعالى : ' 2 : 256 ' فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى " الآية .

وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به .

وقوله : " ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً " يبين تعالى في هذه الآية أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه : ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضلهم ، وأكده بالمصدر ، ووصفه بالبعد . فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى .

ففي هذه الآية أربعة أمور . الأول : أنه إرادة الشيطان : الثاني : إنه ضلال . الثالث : تأكيده بال المصدر . الرابع : وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى .

فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه ، وما أدلّه على أنه كلام رب العالمين ، أواه إلى رسوله الكريم ، وبلغه عبده الصادق الأمين . صلوات الله وسلامه عليه .

قوله : " وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً " بين تعالى أن هذه صفة المنافقين ، وأن من فعل ذلك أو طلبه ، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البعد عن الإيمان .

قال العالمة ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا دليل على أن من دعى إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين .

قوله : " ويصدون " لازم وهو بمعنى يعرضون ، لأن مصدره صدوداً فما أكثر من اتصف بهذا الوصف ، خصوصاً من يدعى العلم ، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أقوال من يخطئ كثيراً من ينتسب إلى الأئمة الأربع في تقليدهم من لا يجوز تقليده ، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله ، و يجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به . فصار المتبع للرسول صلى الله عليه وسلم بين أولئك غريباً ، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا .

فتذذر هذه الآيات وما بعدها يتتبّع لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الواقع . والله المستعان .

" وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض " إلخ

قوله : ' 2 : 11 ' " وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون " قال أبو العالية في الآية : يعني لا تعصوا في الأرض . لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله . وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى : ' 12 : 70 - 72 ' " ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون" - إلى قوله - " قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين " فذلك الآية على أن كل معصية فساد في الأرض .

ومناسبة الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين وهو الفساد في الأرض

وفي الآية : التنبيه على عدم الإغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى . وفيها التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحة دليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فما أكثر من يصدق بالكذب ويكتذب بالصدق إذا جاءه ، وهذا من الفساد في الأرض ويتربت عليه من الفساد أمور كثيرة ، تخرج صاحبها عن الحق وتدخله في الباطل . نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

فتذذر تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله ومن عليه بقوة داعي الإيمان ، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات ، وبصرًا نافذاً عند ورود الشبهات ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قوله : ' 7 : 56 ' " ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها " قال أبو بكر بن عياش في الآية : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأرض وهم فساد ، فأصلحهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو من المفسدين في الأرض .

وقال ابن القيم رحمه الله : قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله ، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبد غيره ، ومطاع متبع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو أعظم فساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . فإذا أمر بمعصية وخالف شريعته فلا سمع ولا طاعة . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسيبهه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقطيعة وتسليط عدو وغير ذلك فسيبهه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله . اهـ .

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي ، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو سبيل المؤمنين ، كما قال تعالى : ' 4 : 15 ' " ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساعته مصيراً " .

قوله : (وقول الله تعالى : ' 50 : 5 ' أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون " .

قال ابن كثير رحمه الله : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيل خان الذي وضع لهم اليأسق وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظرة وهواد . فصارت في بنية شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير .

قوله : " ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون " استفهام إنكار أي لا حكم أحسن من حكمه تعالى . وهذا من باب استعمال أ فعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك ، أي ومن أعدل من الله حكماً لن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده القادر على كل شئ ، الحكم في أقواله وأفعاله وشره وقدره ؟ . وفي الآية ، التحذير من حكم الجاهلية وإختياره على حكم الله ورسوله ، فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن ، وهو الحق ، إلى ضده من الباطل .

لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به

قوله : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " قال النووي : حديث صحيح رويانا في كتاب الحجة بإسناد صحيح .

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب : الحجة على تارك الحجة بإسناد صحيح كما قاله المصنف رحمه الله عن النووي . ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم ، والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون في صحيح الأخبار ، وشاهده في القرآن قوله تعالى : ' 4 : 65 ' فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم " الآية . وقوله : ' 33 : 36 ' وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم " وقوله : ' 28 : 50 ' فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم " ونحو هذه الآيات .

قوله : لا يؤمن أحدكم أى لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار . وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام .

قوله : حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به . الهوى بالقصر ، أى ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه ، فإن كان الذي تحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرج عنه إلى ما يخالفه . فهذه صفة أهل الإيمان المطلق ، وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفي عنه من الإيمان كماله الواجب ، كما في حديث أبي هريرة : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن " يعني أنه بالعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب وينزل عنه في درجة الإسلام وينقص إيمانه ، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية ، أو الفسوق ، فيقال : مؤمن عاص ، أو يقال : مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته ، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به . كما قال تعالى : ' 5 : 92 ' فتحرير رقبة مؤمنة " والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها : أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية : من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تمحى ، فمن ذلك قوله تعالى : ' 2 : 143 ' وما كان الله ليضيع إيمانكم " أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس : " أمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله " الحديث ، وهو في الصحيحين والسنن . والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى : ' 31 : 74 ' ويزداد الذين آمنوا إيماناً " الآية . وقوله : ' 9 : 124 ' فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً " الآية . خلافاً لمن قال : إن الإيمان هو القول ، وهم المرجئة ، ومن قال : إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة . ومن المعلوم عقلاً وشرعاً أن نية الحق تصدق ، والعمل به تصدق وقول الحق تصدق وليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة والله الحمد والمنة . قال الله تعالى : ' 2 : 177 ' ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر" - إلى قوله - "أولئك الذين صدقوا " أى فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة . وشاهد في كلام العرب قولهم : حملة صادقة . وقد سمي الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إلهًا ، فقال تعالى: ' 25 : 43 ' أفرأيت من اتخذ إلهه هواه " قال بعض المفسرين : لا يهوى شيئاً إلا ركبه .

قال ابن رجب رحمه الله : أما معنى الحديث : فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كاملاً بالإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهي وغيرها .

فيجب ما أمر به ويكره ما نهى عنه ، وقد ورد القرآن مثل هذا المعنى في غير موضع ، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله أو أحب ما كرهه الله كما قال تعالى : ' 47 : 28 ' ذلك بأنهم اتبعوا ما أ Sextet الله وكراهوا رضوانه فأحبط أعمالهم " فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً ، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كراهه تزيهاً كان ذلك فضلاً . فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله ، فيفرضي ما يرضي الله ورسوله ، ويحط ما يحط الله ورسوله ، ويعمل بجواره بمقتضى هذا الحب والبغض ، فإن عمل بجواره شيئاً يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله وترك ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت فجميع المعاصي تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله . وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه ، فقال تعالى : ' 50 : 28 ' فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل من اتبع هواه بغير هدى من الله " وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء ، وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه ، وكذلك حب الأشخاص : الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً ، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً ، وبهذا يكون الدين كله لله . ومن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان ، ومن كان حبه وبغضه وعطاوه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب . فتجب التوبة من ذلك : انتهي ملخصاً . ومناسبة الحديث للترجمة : بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم .

قوله : وقال الشعبي هو عامر بن شراحيل الكوفي ، عالم أهل زمانه ، وكان حافظاً علامه ذا فنون . كان يقول : ما كتبت سوداء في بيضاء ، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة وعاش بضعاً وثمانين سنة . قال الذهبي .

وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى . ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان . كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين . وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان : ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً ، وقد حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من طاعتهم والقرب منهم ، وحضره على جهادهم في مواضع من كتابه ، قال تعالى : ' ٦٦ : ٩ ' يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم " الآية . وفي قصة عمر رضي الله عنه وقتل المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق ، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والأذى له والإظهار لعداوه فانتقض به عهده . وحل به قتله . وروى مسلم في صحيحه عن عمر : سمعت جابرًا يقول : : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لکعب ابن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، قال محمد بن سلمة : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : اثذن لي فلأقل ، قال : قل ، فأتاهم فقال له ، وذكر ما بينهما وقال : إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عناها . فما سمعه قال : وأنا أيضًا والله لتملنه ، قال : إننا قد اتبعناه الآن ، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره ، قال : وقد أردت أن تسلفني سلفاً ، قال : فما ترهنني ؟ قال : ما تريده . قال : ترهنني نسائكم ؟ قالت : أنت أجمل العرب ، أترهنك نسائنا ؟ قال : ترهنوني أولادكم ؟ قال : يسب ابن أحدنا فيقال : رهن في وسقين من تمر . ولكن نرهنك اللامة - يعني السلاح - قال : فنعم : وواعده أن يأتيه بالحارث وأبى عبس بن جبر وعبد بن بشر . قال : فجاءوا فدعوه ليلاً فنزل إليهم - قال سفيان قال غير عمرو : قالت له أم رأته : إني أسمع صوتاً كأنه صوت دم ، قال : إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة إن الكريم لو دعى إلى طعنة ليلاً لأجاب ، قال محمد إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه ، فإذا استمكنت منه فدونكم قال : فلما نزل وهو متتوشح . فقالوا : نجد منك ريح الطيب ، قال : نعم ، تحتى فلانة أعطر نساء العرب ، قال : فتأذن لي أن أشتقم منه ؟ قال : نعم فشم ، فتناول فشم ، ثم قال : أتأذن لي أن أعود ؟ قال : فاستمكنت من رأسه . ثم قال : دونكم . قال : فقتلوه " .

وفي قصة عمر : بيان أن المنافق المغموس بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل ، كما في الصحيحين وغيرهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس ، فإنه قال : " لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " فصلوات الله وسلامه عليه .

باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

باب

من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى : ' 30 ' وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت
وإليه متاب " .

سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور في كتب التفسير وغيرها . وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم
الرحمن عناداً ، وقال تعالى: ' 17 ' 110 ' قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيماً ما تدعوا فله
الأسماء الحسنى " و الرحمن اسم وصفته ، دل هذا الإسم على أن الرحمة وصفه سبحانه ، وهي من
صفات الكمال ، فإن كان المشركون جحدوا إسماً من أسمائه تعالى ، وهو من الأسماء التي دلت على
كماله سبحانه وبحمده فجمود معنى هذا الإسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك ، فإن جهم بن صفوان
ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى . وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة
والأشاعرة وغيرهم . فلهذا كفراهم كثيرون من أهل السنة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولقد تقلد كفراهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

الكائي الإمام حكاہ عنـ هم بل حکاہ قبله الطبراني

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من
صفات كماله ونحوت جلاله ، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصوله من عند أنفسهم ، فقالوا :
هذه هي صفات الأجسام . فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً ، هذا منشأ ضلال عقولهم ، لم يفهموا
من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين ، فشبهوا الله في إبتداء آرائهم الفاسدة
بخلقه ثم عطلوه من صفات كماله ، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات ، فشبهوا أولاً وعطلوه
ثانياً . وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم ، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله
به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته . وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها ،
فإنهم أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا
تعطيل ، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون
للله ذاتاً لا تشبه لذوات ، فأهل السنة يقولون بذلك ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من
صفات كماله ونحوت جلاله لا تشبه صفاته صفات خلقه ، فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى
الله عليه وسلم ولم يتناقضوا ، وأولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك ، وتناقضوا . فبطل

قول المعطلين بالعقل والنقل ولله الحمد والمنة ، وإجماع أهل السنن من الصحابة والتابعين وتابعهم وأئمة المسلمين .

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعطلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت : كالأمام أحمد رحمة الله تعالى في رده المشهور ، وكتاب السنة لابنه عبد الله ، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكتاني في رده على بشر المريسي ، وكتاب السنة لأبي عبد الله المروزي ، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد . وهو بشر المريسي ، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي ، وكتاب السنة لأبي بكر الخلال ، وأبي عثمان الصابوني الشافعي ، وشيخ الإسلام الأنصاري ، وأبي عمر بن عبد البر التمري ، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربع وأتباعهم ، وأهل الحديث ومن متأخرتهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى . فللهم الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء . والله أعلم .

قوله : وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله .

على هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب ، وأحد الخلفاء الراشدين . وسبب هذا القول - والله أعلم - ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث ، وكثرة القصاص وأهل الوعظ . فيتلون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل ، فربما استنكروا بعض الناس وردها وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح ، فيقع بعض المفاسد لذلك ، فأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه ، من بيان الحال من الحرام الذي كلفوا به علمًا وعملاً ، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلى التكذيب ، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته ، وكثرة خوضهم وجدلهم .

وقد كان شيخنا المصنف رحمة الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته ، وبينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي : كالنعش ، والمرعش ، والتبصرة لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع ، وفيها ما الله به وأعلم مما لا ينبغي اعتقاده . والمعصوم من عصمه الله .

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القصاص عن القصاص ، لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك ، ويقول : لا يقص إلا أمير أو مأمور وكل هذا محافظة على

لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصدًا ، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها ، والله الموفق للصواب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قوله : وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس : أنه رأى رجلاً انتقض لما سمع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات - استنكاراً لذلك - فقال : ما فرق هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه .

قوله : وروى عبد الرزاق هو ابن همام الصناعي المحدث محدث اليمن صاحب التصانيف ، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهرى . وهو شيخ عبد الرزاق يروى عنه كثيراً .

ومعمر - بفتح الميمين وسكون العين - أبو عروة بن أبي عمرو راشد الأزدي الحراني ثم اليماني ، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهرى يروى عنه كثيراً .

قوله : عن ابن طاوس هو عبد الله بن طاوس اليماني . قال معمر : كان من أعلم الناس بالعربية . وقال ابن عبيدة : مات سنة اثننتين وثلاثين ومائة .

قوله : عن أبيه هو طاوس بن كيسان الجندي بفتح الجيم والنون - الإمام العلم ، قيل اسمه ذكوان ، قاله ابن الجوزي .

قلت : وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم ، قال في تهذيب الكمال : عن الوليد الموقري عن الزهرى قال : قدمت على عبد الملك بن مروان فقال : من أين قدمت يا زهري ؟ قال : قلت : من مكة ، قال : ومن خلفت يسودها وأهلها ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، قال : فبم سادهم ؟ قال : قلت : بالديانة والرواية . قال : إن الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا . قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت : من الموالى ، قال : فبم سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء ، قال : إنه لينبغي ذلك . قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت يزيد بن حبيب ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت : من الموالى ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى ، عبد نبوي اعتقته امرأة من هذيل . قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهروان ، قال : فمن العرب أم من الموالى ، قال : قلت : من الموالى . قال فمن يسود أهل خراسان ؟ قال : قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت : من الموالى ، قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قال : قلت : الحسن البصري ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . قال : ويلك ، ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال : قلت : إبراهيم

النخعي ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : من العرب . قال : ويلك يا زهري فرجت عني ، والله لتسودن الموالى على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، إنما هو دين : من حفظه ساد ومن ضيشه سقط .

قوله : عن ابن عباس قد تقدم ، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن ، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " وروى عنه أصحابه أئمة التفسير : كمجاهد ، وسعید بن جبیر ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاوس وغيرهم .

قوله : ما فرق هؤلاء يستفهم من أصحابه ، يشير إلى أناس من يحضر مجلسه من عامة الناس ، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فرق أي خوف ، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له ، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين قال الذهبي : حديث وكيع عن إسرائيل بحديث : إذا جلس الرب على الكرسي فاقشعر رجل عند وكيع . فغضب وكيع . وقال : أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب الرد على الجهمية . وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان به ، فشبه حالهم حال من قال الله فيهم : ' 2 : 85 ' أفتؤمنون ببعض الكتاب وتکفرون ببعض " فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك من الإيمان بكتاب الله كله واليقين كما قال تعالى : ' 3 : 7 ' هو الذيأنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أمه الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيف فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب " فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس رضي الله عنهم تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن ، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله فيحمله على غير معناه ، كما جرى لأهل البدع ، كالخوارج والرافضة والقدرية ، ونحوهم من يتأول بعض آيات القرآن على بدعته . وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم ، فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس .

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم ، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها ، وتلقيها من أهلها العارفين لعنها الذين وفدهم الله تعالى لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص ، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً ، ورد المتشابه إلى المحكم . وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان ، فللهم الحمد لا نحصي ثناء عليه .

ما ورد عن علماء السلف في المشتبه

(ذكر ما ورد عن علماء السلف في المشتبه)

قال في الدر المنثور : أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، فنزل القرآن من سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال . فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتكم عنه ، واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمته ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا " .

قال : وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى : ' 3 : 7 ' " فأما الذين في قلوبهم زيف فيتبعون ما تشبه منه " الآية . قال : طلب القوم التأويل ، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة ، وطلبو ما تشبه منه فهلعوا بين ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : " آيات محكمات " قال : منه قوله تعالى : ' 6 : 151 - 153 ' " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " إلى ثلاث آيات ، ومنهن : ' 17 : 23 - 39 ' " وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه " إلى آخر الآيات .

وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم : المحكمات الناسخات التي يعمل بهن ، والمتشابهات المنسوخات .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إسحق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية " هن أُم الكتاب " فقال أبو فاختة : هن فواتح السور . منها يستخرج القرآن : " إِنَّمَا ذَلِكَ الْكِتَابُ مِنْهَا اسْتَخْرَجَتِ الْبَقْرَةُ وَ إِنَّمَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ " منها استخرجت آل عمران . وقال يحيى : هن اللاتي فيهن الفرائض ، والأمر والنهي والحال والحرام . والحدود وعماد الدين .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبيير قال : المحكمات فيهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ، ليس فيها تصريف ولا تحريف مما وضع عليه وأخر متتشابهات في الصدق ، لهن تصريف وتأويل ، ابتلى الله بهن العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم مقاتل بن حيان إنما قال : " هن أم الكتاب " لأنه ليس من أهل دين لا يرضي بهن : " وأخر متشابهات " يعني فيما بلغنا ألم و المص و المر .
قلت : وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه ، وما قال المنفأة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان .

قوله : ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم : ' 30 : 30 ' وهم يكفرون بالرحمن " روى ابن جرير عن قتادة : " وهم يكفرون بالرحمن " روى ابن جرير عن قتادة : " وهم يكفرون بالرحمن " ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال مشركون قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمتنا ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله دعنا نقاتلهم . فقال : لا . اكتبوا كما يريدون : إني محمد بن عبد الله فلما كتب الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم قالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه . وكان أهل الجاهلية يكتبون : باسمك اللهم . فقال أصحابه : دعنا نقاتلهم . قال : لا . ولكن اكتبوا كما يريدون وروى أيضاً عن مجاهد قال : قوله : ' 30 : 30 ' كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لقتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب " قال : هذا ما كاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً في الحديبية ، كتب بسم الله الرحمن الرحيم قالوا : لا تكتب الرحمن ، لا ندرى ما الرحمن ؟ لا نكتب إلا باسمك اللهم . قال تعالى : " وهم يكفرون بالرحمن " الآية .

وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ساجداً : يا رحمن يا رحيم . فقال المشركون : هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى . فأنزل الله : ' 17 : 110 ' قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى " الآية .

يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 16 : 83 ' يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون " .
ذكر المصنف رحمة الله ما ذكر بعض العلماء في معناها . وقال ابن جرير : فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة . فذكر عن سفيان عن السدى : " يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها " قال :

محمد صلى الله عليه وسلم وقال آخرون بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله ، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك ، ولكنهم ينكرون ذلك ، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم .

وأخرج عن مجاهد : " يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها " ، قال : هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها والسرابيل من الحديد والثياب ، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره ، بأن يقول : هذا كان لآبائنا فورثونا إياه وقال آخرون : معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم من : رزقكم ؟ أقرروا بأن الله هو الذي يرزقهم ثم ينكرون بقولهم : رزقنا ذلك شفاعة آهتنا .

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضي مصر النحوي اللغوي ، صاحب المصنفات البديعة الفيدة المحتوية على علوم جمة ، اشتغل ببغداد وسمع الحديث على إسحاق بن راهوية وطبقته . توفي سنة ست وسبعين ومائتين .

وقال آخرون : ما ذكره المصنف عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبو عبد الله الكوفي الزاهد عن أبيه وعائشة وابن عباس عنه قتادة وأبو الزبيير والزهري ، وثقة أحمد وابن معين قال البخاري : مات بعد العشرين ومائة " يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها " قال : إنكارهم إياها أن يقول الرجل : لو لا فلان ما كان كذا وكذا ، ولو لا فلان ما أصبت كذا وكذا وإنختار ابن جرير القول الأول ، وإنختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها . وهو الصواب والله أعلم .

قوله : قال مجاهد هو شيخ التفسير : الإمام الرباني ، مجاهد بن جبر المكي مولىبني محرزوم . قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول عرضت المصحف على ابن عباس مرات ، أقهه عند كل آية وأسئلته : فيم نزلت ؟ وكيف نزلت ؟ وكيف معناها ؟ توفي سنة اثننتين ومائة . وله ثلات وثمانون سنة رحمة الله .

قوله : قال أبو العباس هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الإمام الجليل رحمة الله - بعد حديث زيد بن خالد - وقد تقدم في باب ما جاء في الإستسقاء بالأنواء . قال : وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيّف إِنْعَامَه إلى غيره ويشرك به . قال بعض السلف هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً . نحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير . اهـ .

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها ، وأسند أسبابها إلى غيره ، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا .

قال شيخنا رحمة الله : وفيه اجتماع الضدين في القلب ، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمـة .

قول الله " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون "

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 22 ' " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " .

الند : المثل والنظير . وجعل الند لله : هو صرف أنواع العبادة أو شئ منها لغير الله ، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ، ويُشفع لهم . وهذه الآية في سياق قوله تعالى : " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " قال العمامي ابن كثير رحمه الله في تفسيره : قال أبو العالية : لا تجعلوا لله أنداداً أي عدلاء شركاء . وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبو مالك واسماعيل بن أبي خالد

وقال ابن عباس : " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " أي لا تشركون بالله شيئاً من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه . وكذلك قال قتادة ومجاهد : " فلا تجعلوا لله أنداداً " قال أكفاء من الرجال تطعونهم في معصية الله . وقال ابن زيد : الأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له . وعن ابن عباس : " فلا تجعلوا لله أنداداً " أشباهها . وقال مجاهد : " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " قال تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل . وذكر حديثاً في معنى هذه الآية الكريمة وهو ما في مسنن أحمد عن الحارث الأشعري أن النبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمربني إسرائيل أن يعملوا بهن ، وأنه كاد أن يبطيء بها . فقال له عيسى عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمربني إسرائيل أن يعملوا بهن فلما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن ، فقال : يا أخي ، إني أخشى إن سبقتني أن أُعذب أو يخسف بي . قال : فجمع يحيى بن زكريابني إسرائيل في بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وامركم أن تعملوا بهن : أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً : فإن مثل ذلك مثل رجل اشتري عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ، فجعل يعمل وبؤدي غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به

شيئاً . وآمركم بالصلاحة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت . فإذا صليتم فلا تلتقطوا . وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك . وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك . وآمركم بالصدقة . فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال لهم : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ؟ فجعل يفتدى بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وآمركم بذكر الله كثيراً : فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سرعاً في أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : الجماعة ، والسمع والطاعة ، والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم . قالوا يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ فقال : وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سماهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين عباد الله ” .

وهذا حديث حسن ، والشاهد منه في هذه الآية قوله : ” واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ” وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له . وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع ، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى . والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جداً . وسئل أبو نواس عن ذلك فأنسد :

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع الملوك
عيون من لجين ناظرات بأحداق هي الذهب السبيك
على قصب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك
وقال ابن المعتز :

فيما عجبأً ، كيف يعصى الإلـ هـ أـمـ كـيفـ يـجـحـدـهـ الـجـاحـدـ ؟
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قوله : وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل . وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلانة . وحياتي ، وتقول : لولا كليبة هذا لأنانا للصوص . ولو لا الله وفلان . لا تجعل فيها فلاناً . هذا كله به شرك رواه ابن أبي حاتم . بين ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا كله من الشرك ، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير من لا يعرف التوحيد ولا الشرك : فتنبه لهذه الأمور . فإنها من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه والتغليظ

فيه لكونه من أكبر الكبائر . وهذا من ابن عباس رضي الله عنهمما تنبئه بالأدنى من الشرك على الأعلى

من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر

قوله : وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك " رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم .

قوله : فقد كفر أو أشرك يحتمل لي أن يكون شكًا من الراوى ويحتمل أن تكون أو بمعنى الواو فيكون قد كفر وأشرك . ويكون الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر . كما هو من الشرك الأصغر . وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ .

قوله : وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً .

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر لكن الشرك أكبر من الكبائر . وإن كان أصغر كما تقدم بيان ذلك ، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار ؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به ، والرغبة إليه ، وإنزال حوانجه به ، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها : من تعظيم القبور ، واتخاذها أوثاناً ، والبناء عليها ، واتخاذها مساجد ، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بنىت باسمه وتعظيمه ، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال .

وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه . قال الله تعالى : ' 7 : 37 ' فمن أظلم من افترى على الله كذبًا أو

كذب بيآياته أولئك ينالهم نصيبيهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسالنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين " كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه في دار الدنيا . وقد قال تعالى : ' 72 : 18 ' وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا " وقال تعالى : ' 72 - 20 - 21 ' قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا * قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا " وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه صلى الله عليه وسلم ، فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتغلق على غير الله حتى قال قائلهم :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي فضلاً ، وإلا فقل : يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر إلى هذا الجهل العظيم حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياده ولبياده بغير الله ، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء الذي نهي عنه صلى الله عليه وسلم بقوله : " لا تطروني كما أطربت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله " رواه مالك وغيره ، وقد قال تعالى : ' 6 : 50 ' قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنني ملك "

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة لكتاب والسنة والمحادة لله ورسوله . وهذا الذي يقوله هذا الشاعر هو الذي في نفوس كثير خصوصاً من يدعون العلم والمعرفة . ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القراءات فإن الله وإن إليه راجعون .

قوله : وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ، ثم شاء فلان " رواه أبو داود بسند صحيح .
وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه ، لكونها إنما وضعت لطلق الجمع . فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً . وتسوية المخلوق بالخالق شرك ، إن كان في الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر ، وإن كان في الأكبر فهو أكبر . كما قال تعالى عنهم في الدار الآخرة : ' 21 : 97 ، 98 ' تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين " بخلاف المعطوف بثم . فإن المعطوف بها يكون متراخيأً عن المعطوف عليه بمهملة . فلا محذور لكونه صار تابعاً .

قوله : وعن إبراهيم النخعي : أنه يكره أن يقول الرجل أعود بالله وبك . ويجوز أن يقول : بالله ثم بك . قال ويقول : لولا الله ثم فلان . لا تقولوا : لولا الله وفلان .

وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك . هذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشئ . وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك . وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهם ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر . فلا يقال في حقهم شئ من ذلك . فلا يجوز التعلق عليه بشئ ما بوجهه من الوجوه ، والقرآن يبين ذلك وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئاً من ذلك ، أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر ، فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه وبالله التوفيق .

والعلم لا يؤخذ قسراً وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله :

أخي ، لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرص ، واجتهاد وبلغة وإرشاد أستاذ ، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ ، وأتعب نفسه في تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده . كما قال تعالى : ' 4 : 113 ' وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمة الله تعالى من حيث قال :
والجهل داء قاتل وشفاؤه أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن ، أو من سنة وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاثة ، ما لها من رابع ، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله وكذلك الأسماء للرحمـن
والأمر والنهي الذي هو دينه وجراوئه يوم المـعاد الثاني
والكل في القرآن والسـنن التي جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق بسواهما إلا من الهـذيان

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله والنبي عن الحلف بالأباء
قوله : باب

(ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحلفوا بآبائكم . من حلف بالله فليصدق . ومن حلف له بالله فليرض . ومن لم يرض فليس من الله " رواه ابن ماجه بسنده حسن .
قوله : لا تحلفوا بآبائكم تقدم النهي عن الحلف بغير الله عموماً .

قوله : من حلف بالله فليصدق هذا مما أوجبه الله على عباده وحضهم عليه في كتابه . قال تعالى : ' 9 : 119 ' يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " وقال : ' 33 : 35 ' والصادقين والصادقات " وقال : ' 47 : 21 ' فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم " وهو حال أهل البر ، كما قال تعالى : ' 2 : 177 ' ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين " . إلى قوله - " أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقوون " .

وقوله : من حلف فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله أبداً إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه فلا ريب أنه يجب عليه الرضا . وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم البعض ونحو ذلك . فهذا من حق المسلم على المسلم : أن يقبل منه إذا

حلف له معتبراً أو متبرئاً من تهمة ومن حقه عليه : أن يحسن به الظن إذا لم يتبيّن خلافه ، كما في الأثر عن عمر رضي الله عنه : ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شرّاً وأنت تجد لها في الخير محملاً .

وفيه : من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم . وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله ، ثم إنه يدخل في حسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد ، كما في الحديث وهو من مكارم الأخلاق .

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى : من القيام بحقوقه وحقوق عباده ، وإدخال السرور على المسلمين ، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم . فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال . وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها . فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغي العمل به من ترك ما يجب تركه من ذلك ، دل على وفور دينه ، وكمال عقله . والله الموفق لعبد الضعيف المسكين . والله أعلم .

باب : قول ما شاء الله وشئت

باب

قول : (ما شاء الله وشئت)

عن قتيلة : " أَن يهوديًا أَتى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ . تَقُولُونَ : مَا شاءَ اللَّهُ وَشَاءَتْ ، وَتَقُولُونَ ، وَتَقُولُونَ : وَالكَّعْبَةُ . فَأَمْرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا : وَرَبُّ الْكَعْبَةِ . وَأَنْ يَقُولُوا : مَا شاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَتْ " رواه النسائي وصححه .

قوله : عن قتيلة بمثناة مصغرة بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة ، لها حديث في سنن النسائي ، وهو المذكور في الباب . ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي .

وفيه : قبول الحق مما جاء به كائناً من كان . وفيه : بيان النهي عن الحلف بالكعبة ، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدتها بالحج والعمرة فريضة . وهذا يبيّن أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء ، لا ملك مقرب ولانبي مرسل . ولا للküبَة التي هي بيت الله في أرضه . وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالküبَة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله . ومن المعلوم أن küبَة لا تضر ولا تنفع . وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة : فالطواف بها مشروع

والحف بها ودعاؤها منوع . فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع ، وإن خالفك من خالفك من جهة الناس الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً .

قوله : إنكم تشركون . تقولون : ما شاء الله وشئت والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله ، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه ، كما قال تعالى : ' 81 : 28 ، 29 ' " مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمْ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ " وقوله : ' 76 : 30 ' " إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهِ حَكِيمًا " .

وفي هذه الآيات والأحاديث : الرد على القدرية والمعتزلة ، نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه ، وسيأتي ما يبطل قولهم في : باب ما جاء في منكري القدر إن شاء الله تعالى ، وأنهم مجوس هذه الأمة .

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتابة والسنة في هذا الباب وغيره . واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شيء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه ، من أفعال العباد وأقوالهم . فالكل بمشيئة الله وإرادته . فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه . وما خالفه كرهه من العبد ، كما قال تعالى : ' 39 : 7 ' " إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضِي لِعْبَادَهُ الْكُفَّارُ " الآية . وفيه : بيان أن الحلف بالکعبۃ شرک . فإن النبي صلی الله عليه وسلم أقر اليهودي على قوله : إنكم تشركون .

قوله : وله أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما " أَنْ رجلاً قال للنبي صلی الله عليه وسلم ما شاء الله وشئت ، قال : أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نَدًا ؟ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ " .

هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك ، لوجود التسوية في العطف بالواو .

وقوله : أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نَدًا فيه بيان أن من سوى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله شاء أم أبي ، خلافاً لما يقوله الجاهلون ، مما يختص بالله تعالى من عباده ، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه . ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين .

قوله : ولابن ماجه : عن الطفيلي أخي عائشة لأمها قال : رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود ، فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم ، لو لا أنكم تقولون عزير ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم ، لو لا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : من أنتم ؟ قالوا نحن النصارى . قلت إنكم لأنتم القوم لو لا أنكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لو لا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، فلما

أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم. قال : فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهما عندها . فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده .

قوله : عن الطفيلي أخي عائشة لأمها هو الطفيلي بن عبد الله بن سخيرة أخو عائشة لأمها ، صحابي له حديث عند ابن ماجه ، وهو ما ذكره المصنف في الباب .

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بمقتضها . فنهاهم أن يقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، وأمرهم أن يقولوا : ما شاء الله وحده .

وهذا الحديث والذي قبله فيه أن يقولوا : ما شاء الله وحده ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا : ثم شاء فلان لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد في كل وجه . فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص .

قوله : كان يمنعني كذا وكذا أن أنهما عندها ورد في بعض الطرق : أنه كان يمنعه الحياة منهم وبعد هذا الحديث الذي حدثه به الطفيلي عن رؤياه خطبهم صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك نهياً بليناً ، فما زال صلى الله عليه وسلم يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة ، وبلغ البلاغ المبين ، صلوات الله وسلم عليهم عليه وعلى آله وصبه أجمعين .

وفيه معنى قوله صلى الله عليه وسلم : "الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة "

قلت : وإن كان رؤيا منام فهي وحي يثبت بها ما يثبت بالوحي أمراً ونهياً . والله أعلم .

باب من سب الدهر فقد آذى الله

قوله : باب

(من سب الدهر فقد آذى الله)

وقول الله تعالى : ' 45: 24 ' وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر "

قال العماد ابن كثير في تفسيره : يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد : " وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر " ما ثم إلا هذه الدار

يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة . وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، ويقوله فلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداية والرجعة . وتقول فلاسفة الدهرية الدورية ، المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شئ إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا العقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا : " وما يهلكنا إلا الدهر " قال الله تعالى : " وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون " أي يتوهمن ويتخيّلون .

فأما الحديث الذي أخرجه صاحب الصحيح وأبو داود والنسائي من روایة سفيان ابن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار " وفي روایة : " لا تسبيوا الدهر فإني أنا الدهر " وفي روایة : " لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر ، فإنني أنا الدهر ، أرسل الليل والنهار ، فإذا شئت قبضتهما " اهـ .

قال في شرح السنة : حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق عمر من أوجه عن أبي هريرة
قال : ومعنىه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي سبه عند النوازل ، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما
يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون : أصابتهم قواعر الدهر وأبادهم الدهر ، فإذا أضافوا إلى الدهر ما
نالهم من الشدائـد التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر . اهـ باختصار .

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريح بن النعمان عن ابن عبيña مثله . ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يقول الله تعالى : يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدِي الليل والنَّهار " وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به .

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عز وجل : استقرضت عبدي فلم يعطني ، ويسبني عبدي ، يقول : وادهراه ، وأنا الدهر " .

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله : ألا تسربوا الدهر فإن الله هو الدهر كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى . فكأنما إنما سبوا الله سبحانه ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الإعتبار لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال . هذا أحسن ما قيل في تفسيره - وهو المراد - والله أعلم .

وقد غلط ابن حزم ومن نحوه من الظاهرة في عدم الدهر من الأسماء الحسنة أخذًا من هذا الحديث . ا هـ .

وقد بين معناه في الحديث بقوله : أقلب الليل والنهار وتقليله تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه .

وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى ، وهي قوله : بيدي الأمر .
قوله : وفي رواية : لا تسربوا الدهر فإن الله هو الدهر .
معنى هذه الرواية : هو ما صرحت به في الحديث من قوله : وأننا الدهر ، أقلب الليل والنهار يعني ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره ، بعلم منه تعالى وحكمة ، لا يشاركه في ذلك غيره . ما شاء كان وما لم يكن ، فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده ، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة . كما قال الله تعالى : ' 7 : 168 ' وبلغواهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون " وقال تعالى : ' 21 : 35 ' ونبلوكم بالشر والخدر فتنة وإلينا ترجعون " ونسبة الفعل إلى الدهر ونسبته كثيرة ، كما في أشعار المولدين ، كابن المعز والمتنبي وغيرهما . وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك كقوله تعالى : ' 12 : 48 ' ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد الآية . وقال بعض الشعراء :

إن الليالي من الزمان مهولة تطوى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار
وقال أبو تمام :

أعوام وصل كاد ينسى طيبها ذكر النوى ، فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت نحو أسى ، فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

باب التسمى بقاضي القضاة

قوله : باب

(التسمى بقاضي القضاة ونحوه)

ذكر المصنف رحمة الله هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمى بقاضي القضاة قياساً على ما في حديث الباب . لكونه شبهه في المعنى فينهى عنه .

قوله : في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملأك ، لا مالك إلا الله " .

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى . فهو ملك الأملأك لا ملك أعظم ولا أكبر منه . مالك الملك ذو الجلال والإكرام . وكل ملك يؤتى به الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المغير . وهو الله تعالى ، ينزع الملك من ملكه تارة وينزع الملك منه تارة فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه . وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له ببيده القسط يخفيه ويرفعه ، ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى ، وما تكتبه الحفظة عليهم . فيجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر . كما ورد في الحديث : " اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله . وإليك يرجع الأمر كله . أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله " .

قوله : قال سفيان يعني ابن عيينة مثل شاهنشاه عند العجم عبارة عن ملك الأملأك . ولهذا مثل به سفيان لأنه عبارة عنه بلغة العجم .

قوله : وفي رواية : أغيبط رجل على الله وأحبته .

قوله : أغيبط من الغريب وهو مثل الغضب والبغض . فيكون بغياضا إلى الله مغضوباً عليه . والله أعلم .

قوله : وأحبته وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم ، فتعظم في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل ، وضعه عند الله يوم القيمة . فصار أحبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحرقهم ، لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيمة أحقر الخلق وأحبثهم ، لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله .

قوله : أخنع : يعني أوضع هذا هو معنى أخنع فيفيد ما ذكرنا في معنى أغيبط أنه يكون حانياً بغياضاً عند الله .

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم . كما أخرج أبو داود عن أبي مجلذ قال : خرج معاوية رضي الله عنه على ابن الزبير وابن عامر . فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير . فقال معاوية لابن عامر : اجلس ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبأ مقعده من النار" وأخرجه الترمذى أيضاً ، وقال حسن . وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متكتناً على عصا ، فقمنا إليه . فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً" رواه أبو داود .

قوله : أغrieve رجل هذا من الصفات التي تمر كما جاءت ، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى ، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم ، والباب كله واحد . وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة . وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم ، والله المستعان .

باب إحترام أسماء الله

باب

(احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك)

عن أبي شريح : أنه كان يكنى أبا الحكم . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله هو الحكم . وإليه الحكم ، فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتونني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا . فما لك من الولد ؟ قل : شريح ومسلم وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح" رواه أبو داود وغيره .

قوله : عن أبي شريح قال في خلاصة التهذيب : هو أبو شريح الخزاعي اسمه خوبلد بن عمرو أسلم يوم الفتح ، له عشرون حديثاً ، اتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث ، وروى عنه أبو سعيد المقبرى ونافع بن جيير وطائفة . قال ابن سعد : مات بالدينة سنة ثمان وستين . وقال الشارح اسمه هانيء بن يزيد الكندي قاله الحافظ ، وقيل : الحارت الضبابي . قاله المزي .

قوله : يكنى الكنية ما صدر بأب أو أم ونحو ذلك ولقب ما ليس كذلك كزبن العابدين ونحوه .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله هو الحكم وإليه الحكم فهو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة ، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزل على أنبيائه ورسله ، وما من قضية إلا ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة ، وقد يسر الله معرفة ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة ، فإنها لا تجتمع على ضلاله ، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحداً ، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم وأعطاه ملكرة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء يسر له ذلك بفضله ومنه عليه وإحسانه إليه ، فما أجلها من عطية ، فنسأله الله من فضله .

قوله : وإليه الحكم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ' 42 : 10 ' وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله " وقال : ' 4 : 59 ' فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً " فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه ، والحكم إلى رسوله هو الحكم إلىه في حياته وإلى سنته بعد وفاته .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمين : " بم تحكم؟ قال : بكتاب الله : قال : فإن لم تجد؟ قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فإن لم تجد؟ قال أجتهدرأيي . فقال الحمد لله الذي وفق رسول الله إلى ما يرضي رسول الله " فمعاذ من أجل علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام ، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة . ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يوجد للقضية حكماً في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام من يجهل حكم الله في كتابه وسنة رسوله ، فيظن أنه الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيئات .

وأما يوم القيمة فلا يحکم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد ، فيحکم بين خلقه بعلمه . وهو الذي لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه : ' 40 : 4 ' إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تک حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيماً " والحكم يوم القيمة إنما هو بالحسنات والسيئات ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم ، فطرح على سيئات الظالم لا يزيد على هذا مثقال ذرة ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة .

قوله : فإن قومي إذا اختلفوا في شيء أتونني فحكمت بينهم فرضي كلا الغريقين فقال : ما أحسن هذا فالمعنى - والله أعلم - أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحر للعدل بينهم ومعرفة ما يرضيهم من الجانبيين صار عندهم مرضياً وهذا هو الصلح : لأن مدارؤ على الرضى لا على

الإلزام . ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي تخالف حكم الكتاب والسنة . كما قد يقع اليوم كثيراً ، حال الطواغيت الذين لا يلتقطون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله . وإنما المعتمد عندهم ما حكمو به بأموائهم وآرائهم .

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسع تقليده فيعتمد على قول من قلده ويترك ما هو الصواب المواقف لأصول الكتاب والسنة . والله المستعان .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فما لك من الولد ؟ قال شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : فمن أكبّرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح " فيه تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالباً . وجاء هذا المعنى في غير ما حديث والله أعلم .

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله والرسول

قوله : باب

(من هزل بشيء فيه الله أو القرآن أو الرسول) أي فقد كفر قوله : وقول الله تعالى : ' 9 : 65 ' ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون " .

قال العمامي بن كثير رحمه الله في تفسيره : قال أبو معشر المديني عن محمد بن كعب القرظي وغيره : قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى مثل قرائنا هؤلاء ؟ أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا ألسناً ، وأجبينا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته . فقال يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق . فقال : " أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين " وإن رجليه ليسفعان الحجارة ، وما يلتقط إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متعلق بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عبد الله بن وهب : أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء . فقال رجل في المجلس : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن . قال عبد الله بن عمر : وأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم

تنكبه الحجارة ، وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم " وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو هذا .

وقال ابن إسحاق : وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخوبني أمية ابن زيد بن عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له : مخشي بن حمير ، يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جlad بنـي الأصفر قـتـالـالـعـرـبـ بـعـضـهـمـ بـعـضاـ ؟ وـالـلـهـ لـكـأـنـاـ بـكـمـ غـدـاـ مـقـرـنـيـنـ فـيـ الـجـبـالـ ،ـ إـرـجـافـاـ وـتـرـهـيـبـاـ لـلـمـؤـمـنـيـنـ .ـ فـقـالـ مـخـشـيـ بـنـ حـمـيرـ :ـ وـالـلـهـ لـوـدـدـتـ أـنـيـ أـقـاضـيـ عـلـىـ أـنـ يـضـرـبـ كـلـ رـجـلـ مـنـاـ مـائـةـ جـلـدـةـ ،ـ وـأـنـاـ نـتـلـفـتـ أـنـ يـنـزـلـ فـيـنـاـ قـرـآنـ لـقـالـتـكـمـ هـذـهـ ،ـ وـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـيـمـاـ بـلـغـنـيـ لـعـمـارـ بـنـ يـاسـرـ :ـ أـدـرـكـ عـمـارـ ،ـ فـقـالـ ذـلـكـ لـهـمـ ،ـ فـأـتـوـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـعـتـذـرـونـ إـلـيـهـ .ـ فـقـالـ وـدـيـعـةـ بـنـ ثـابـتـ عـمـارـ ،ـ فـقـالـ ذـلـكـ لـهـمـ ،ـ فـأـتـوـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـعـتـذـرـونـ إـلـيـهـ .ـ فـقـالـ وـدـيـعـةـ بـنـ ثـابـتـ وـرـسـوـلـ اللـهـ وـاقـفـ عـلـىـ رـاحـلـتـهـ -ـ فـجـعـلـ يـقـولـ وـهـ آخـذـ بـحـقـهـ :ـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ إـنـمـاـ كـنـاـ نـخـوـضـ وـنـلـعـبـ ،ـ فـقـالـ مـخـشـيـ بـنـ حـمـيرـ :ـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ قـدـ بـعـدـ بـيـ اـسـمـيـ وـاسـمـ أـبـيـ ،ـ فـكـانـ الـذـيـ عـنـاهـ أـيـ بـقـولـهـ تـعـالـىـ :ـ إـنـ نـعـفـ عـنـ طـائـفـةـ مـنـكـمـ نـعـذـبـ طـائـفـةـ "ـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ :ـ مـخـشـيـ بـنـ حـمـيرـ فـسـمـيـ عـبـدـ الرـحـمـنـ ،ـ وـسـأـلـ اللـهـ أـنـ يـقـتـلـ شـهـيـدـاـ لـاـ يـعـلـمـ بـمـكـانـهـ ،ـ فـقـتـلـ يـوـمـ الـيـمـاـمـةـ فـلـمـ يـوـجـدـ لـهـ أـثـرـ .ـ

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية : كان رجل من إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها تتشعر منها الجلود ، وتتجلى منها القلوب . اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك ، لا يقول أحد أنا غسلت ، أنا كفنت ، أنا دفنت . قال : فأصيّب يوم اليمامة ، مما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره .

وقوله : " لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم " أي بهذه المقالة التي استهزأتم بها " إن نعف عن طائفة منكم " أي مخشي بن حمير " نعذب طائفة " أي لا يعفي عن جميعكم ، ولا بد من عذاب بعضكم " إنهم كانوا مجرمين " أي بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة . انتهى .

قال شيخ الإسلام : وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم : " قد كفرتم بعد إيمانكم " وقول من يقول : إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم : لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد إيمانكم ، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر ، وإن أريد

أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان ، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم ، وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك . ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين .

وقال رحمة الله في موضع آخر : فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قوله : إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ، بل إنما كنا نخوض ولعب . وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر . ولا يكون هذا إلا من من شرح صدراً بهذا الكلام ، ولو كان الإيمان في قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام ، والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه . كقوله تعالى : ' 24 : 47 - 52 ' ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك " - إلى قوله - " إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون " فنفي الإيمان عنمن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا ، فبين أن هذا من لوازم الإيمان ، انتهى .

وفيه : بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعملا به . وأشدتها خطراً إرادات القلوب . فهي كالبحر الذي لا ساحل له . ويفيد الخوف من النفاق الأكبر . فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه ، كما قال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه . نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة .

باب قول الله " ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته " الآية

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 41 : 50 ' ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته " الآية .

ذكر المصنف رحمة الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفي في المعنى ويشفي .

قوله : قال مجاهد : هذا بعملي وأنا محقوق به . وقال ابن عباس : يزيد من عندي . قوله : " قال إنما أوتتيه على علم عندي " قال قتادة : على علم مني بوجوه المكاسب : وقال آخرون : على علم من الله أني له أهل وهذا معنى قول مجاهد: أوتتيه على شرف . وليس فيما ذكروه اختلاف وإنما هي افراد المعنى .

قال العماد ابن كثير رحمة الله في معنى قوله تعالى : ' 39 : 49 ' إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتتيه على علم بل هي فتنة " يخبر أن الإنسان في حالة الضر يضرع إلى الله تعالى وينبئ إليه

ويدعوه ، ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى و " قال إنما أوتيته على علم " أي لما يعلم الله من استحقاق له ، ولو لا أني عند الله حظيظ لما خولني هذا . قال تعالى: " بل هي فتنة" أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لختبره فيما أنعمنا عليه أطييع أم يعصى ؟ مع علمنا المتقدم بذلك " بل هي فتنة " أي إختبار ولكن أكثرهم لا يعلمون " فلهذا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون : " قد قالها الذين من قبلهم " أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم " فما أغنی عنهم ما كانوا يكسبون " أي فما صح قولهم ولا نفعهم جمعهم ، وما كانوا يكسبون . كما قال تعالى مخبراً عن قارون : ' 28 - 76 ' إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون " وقال تعالى : ' 26 - 138 ' وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين " ا هـ .

حديث أبرص وأعمى

قوله : وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة .. الحديث .

قوله : أخرجاه أبي البخاري ومسلم . والناقة العشاء - بضم العين وفتح الشين وبالد - هي الحامل .

قوله : أنتج وفي رواية فنتاج معناه تولي نتاجها ، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة .

قوله : ولد هذا هو بتشدد اللام ، أي تولي ولادتها ، وهو بمعنى أنتج في الناقة ، فالملود والناتج والقابلة بمعنى واحد ، لكن هذا للحيوان ، وذلك لغيره .

وقوله : انقطعت بي الحال هو بالحاء المهملة والباء الموحدة : هي الأسباب .

قوله : لا أجهدك معناه : لا أشق عليك في رد شئ تأخذ ، أو تطلب من مالي ذكره النwoي .

وهذا حديث عظيم ، وفيه معتبر : فإن الأولين جداً نعمة الله ، فما أقرأ الله بنعمة ، ولا نسباً النعمة إلى المنعم بها ، ولا أدياً حق الله فيها ، فحل عليهما السخط . وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله ، ونسبها إلى من أنعم عليه بها ، وأدى حق الله فيها ، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما

أتنى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها . وهي الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم ، وبذلها فيما يجب .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : أصل الشكر هو الاعتراف بإنعم المنعم على وجه الخصوص له ، والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكراها ، ومن عرفها ولم يعرف بها لم يشكراها أيضاً ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يحتجد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم بها ، وأقر بها ولم يجحدها ، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنده ، لم يشكراه أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها ، وخضع للمنعم بها ، وأحبه ورضي به عنه ، واستعملها في محابه وطاعته ، فهذا هو الشاكر لها ، فلا بد في الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم ، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخصوص له .

قوله : قذرني الناس بكرابهه رؤيتها وقربه منهم .

باب قول الله " فلما آتاهما صالحًا " الآية

قول الله ' 7 : 190 ' " فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالي الله عما يشركون "

قال الإمام أحمد رحمه الله في معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال : سمييه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش . وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره " وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بن دار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . ورواه الترمذى في تفسير هذه الآية عن محمد ابن المثنى عن عبد الصمد به ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن " جعلا له شركاء فيما آتاهما " قال : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن آدم . وحدثنا بشر بن معاذ قال :

حدثني يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاً فهودوا ونصروا وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله .

قال العماد ابن كثير في تفسيره : وأما الآثار : فقال : محمد بن إسحاق عن داود ابن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاً فتعبدتهم لله وتسميهم عبد الله وعبيده الله ونحو ذلك ، فيصيّبهم الموت ، فأتاهم إبليس فقال : أما إنكم لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش ، فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث ، وفيه أنزل الله : " هو الذي خلقكم من نفس واحدة " الآية وقال العوфи عن ابن عباس : فأتاهم الشيطان فقال : هل تدریان ما يولد لكم ؟ أم هل تدریان ما يكون ، أبهيمة أم لا ؟ وزين لهم الباطل ، إنه لغوي مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا ، فقال لهم الشيطان : إنكم إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ، ومات كما مات الأول . فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى : " فلما آتاهم صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهم فتعلّى الله عما يشركون " .

وذكر مثله عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس . ورواه ابن أبي حاتم . وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاحد وعكرمة وسعيد بن جبیر ، ومن الطبقة الثانية : قتادة والسدی وجماعة من الخلف ، ومن المفسرين والمؤخرين جماعات لا يحصون كثرة . قال العماد ابن كثير : وكأن أصله - والله أعلم - مأخوذ من أهل الكتاب .
قلت : وهذا بعيد جداً .

قوله : قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشى عبد المطلب .

ابن حزم : هو عالم الأندلس ، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري .
صاحب التصانيف ، توفي سنة ست وخمسين وأربعين . وله اثنتان وسبعون سنة .

وعبد المطلب هذا هو جد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معن بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف فيه . ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام .

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبد لغير الله ، لأنه شرك في الربوبية والإلهية .
لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيده له ، استعبدتهم لعبادته وحده ، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته ، فمنهم

من عبد الله ووحده في ربوبيته وإلهيته ، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأحكامه القدりة جارية عليهم ولا بد ، كما قال تعالى : ' ١٩ ' إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا " فهذه هي العبودية العامة .
وأما العبودية الخاصة فإنها تخص بأهل الإخلاص والطاعة ، كما قال تعالى : " أليس الله بكاف عبده " ونحوها .

قوله : حاشى عبد المطلب هذا استثناء من العموم المستفاد من كل وذلك أن تسميته بهذا الإسم لا محذور فيها ، لأن أصله من عبودية الرق ، وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة ، وكان ابن أخيه شيبة هذا قد نشأ في أحواله بنى النجار من الخزرج ، لأن هاشماً تزوج فيهم امرأة ، فجاءت منه بهذا الابن ، فلما شب في أحواله ، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته فقدم به مكة وهو رديفه ، فرأه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر ، فحسبوه عبداً للمطلب ، فقالوا : هذا عبد المطلب ، فعلق به هذا الإسم وركبه ، فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به ، فلم يبق للأصل معنى مقصود . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا ابن عبد المطلب " وقد صار معظماً في قريش والعرب ، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته ، وهو الذي حفر زمزم وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده . وعبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد بنى عبد المطلب ، وتوفي في حياة أبيه .
قال الحافظ صلاح الدين العلائي في كتاب الدرة السننية في مولد خير البرية : كان سن أبيه عبد الله حين حملت منه آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ثمانية عشر عاماً ، ثم ذهب إلى المدينة ليختار منها تمراً لأهله فمات بها عند أحواله بنى عدي بن النجار ، والنبي صلى الله عليه حمل على الصحيح . انتهى .

قلت : وصار النبي صلى الله عليه وسلم لما أوضعته أمه في كفالة جده عبد المطلب . قال الحافظ الذهبي : وتوفي أبوه عبد الله وللنبي ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل أقل من ذلك ، وقيل : وهو حمل . توفى بالمدينة ، وكان قد قدمها ليختار تمراً ، وقيل : بل من بها راجعاً من الشام ، وعاش خمسة وعشرين سنة . قال الواقدي : وذلك أثبت الأقاويل في سنه ووفاته . وتوفيت أمه آمنة بالأبواء وهي راجعة به صلى الله عليه وسلم إلى مكة من زيارة أحوال أبيه بنى عدي بن النجار ، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم ، وقيل : ابن أربع سنين . فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده ، فكان في كفالتها إلى أن توفي جده ، وللنبي صلى الله عليه وسلم ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبو طالب

قوله : وعن ابن عباس رضي الله عنهم في الآية قد قدمنا نظيره عن ابن عباس في المعنى .
 قوله : وله بسند صحيح عن قتادة قال : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته قال شيخنا رحمة الله : إن هذا الشرك في مجرد تسمية ، لم يقصد حقيقته التي يريدها إبليس ، وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الآباء من تسميتهم ابنيهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصد تعبيده لغير الله وهذا معنى قول قتادة : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته .

قول الله " ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها "

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 7 : 180 ' " ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذرروا الذين يلحدون في أسمائه " الآية .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن لله تسعه وتسعين اسمًا ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر " أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان ابن عيينة . ورواه البخاري عن أبي اليمان عن أبي الزناد عن الأعرج عنه . وأخرجه الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنته مثله . وزار بعد قوله : " يحب الوتر - : هو الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، الباريء ، المصور ، القهار ، الغفار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القاپض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السمیع ، البصیر ، الحكم ، العدل ، اللطیف ، الخبیر ، الحلیم ، العظیم ، الغفور ، الشکور ، العلي ، الكبير ، الحفیظ ، المقتیت ، الحسیب ، الجلیل ، الکریم ، الرقیب ، المجبی ، الواسع ، الحکیم ، الودود ، المجبید ، الباعث ، الشهید ، الحق ، الوکیل ، القوی ، المتبین ، الولي ، الحمید ، المحسی ، المبدی ، المعید ، المحبی ، الممیت ، الحی ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالی ، المتعالی ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالک الملک ، ذو الجلال والإکرام ، المقطسط ، الجامع ، الغنی ، المغنى ، المعطی ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الہادی ، البدیع ، الباقي ، الوارث ، الرشید ، الصبور " . ثم قال الترمذی : هذا حديث غریب . وقد روی من غير وجه عن أبي هريرة ، ولا نعلم في كثير من الروایات ذکر الأسماء إلا في هذا الحديث . الذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن

سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه . وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أي أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان وأبي زيد اللغوي والله أعلم .

هذا ما ذكره العmad ابن كثير في تفسيره . ثم قال : ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في تسعه وتسعين . بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مزروق عن أبي سلمة الجهنمي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبده بن عبده ، بن أمتك ، ناصيتك بيده . ماض في حكمك . عدل في قضاؤك . أسألك اللهم بكل اسم هو لك . سميت به نفسك . أو أنزلته في كتابك . أو علمته أحداً من خلقك . أو استأثرت به في علم الغيب عنك . أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري . وجلاء حزني . وذهاب همي وغمي . إلا أذهب الله همه وحزنه . وأبدل مكانه فرحاً فقيلاً : يا رسول الله : ألا نتعلّمها ؟ فقال : بل . ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها " وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه .

معنى يلحدون في أسمائه

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : " وذروا الذين يلحدون في أسمائه " قال : إلحاد المحدثين : أن دعوا اللات في أسماء الله وقال ابن جريج عن مجاهد : " وذروا الذين يلحدون في أسمائه " قال : اشتقو اللات من الله . واشتقو العزى من العزيز .

وقال قتادة : يلحدون : يشركون وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الإلحاد التكذيب . وأصل الإلحاد في كلام العرب : العدول عن القصد . والميل والجور والإنحراف . ومنه اللحد في القبر . لأنحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشراك والتعطيل والنكران

وقال رحمه الله تعالى : فإلحاد إما بجحدها وإنكارها . وإما بجحد معانيها وتعطيلها وإنما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات . وإنما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها . حتى قال زعيمهم : هو المسمى

معنى كل اسم ممدوح عقلاً وشرعأً وعرفاً . وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعأً وعرفاً . تعالى عما يقولون علواً كبيراً ، انتهى .

قتل : والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة . متقدمهم ومتأخرهم : إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يليق بجلال الله وعظمته . إثباتاً بلا تمثيل . وتنزيهاً بلا تعطيل . كما قال تعالى : ' 42 : 11 ' ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتمى حذوه ومثاله . فكما أنه يجب العلم بأن الله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذاتات المخلوقين ، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين . كما قال تعالى : ' 4 : 115 ' ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً " .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضاً :

(فائدة جليلة)

ما يجري صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام :
 أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات ، كقولك : ذات و موجود .
 الثاني : ما يرجع صفاته ونعته ، كالعليم والقدير ، والسميع والبصير .
 الثالث : ما يرجع إلى أفعاله . كالخالق والرازق .
 الرابع : التنزيه المحس . ولا بد من تضمنه ثبوتاً ، إذا لا كمال في العدم المحس ، كالقدوس والسلام .

الخامس : - ولم يذكره أكثر الناس - وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة ، بل دال على معان ، نحو المجيد العظيم الصمد . فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة ، من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا . فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة ، فمنه استمجد المرخ والعفار وأمجد الناقة ، علفها . ومنه رب العرش المجيد صفة العرش لسعته وعظمته وشرفه . وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترباً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه صلى الله عليه وسلم لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء ، وكثرته ودوانه . فأنت في هذا المطلوب باسم يقتضيه ، كما تقول : اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته . وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه . ومنه الحديث الذي في الترمذى : " ألطوا بيادى الجلال والإكرام "

ومنه : " اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام " فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المnan . فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته . وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسؤول . وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الأسمين والوصفين بالآخر . وذكى قدر زائد على مفردיהם نحو الغني الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد ، وهكذا عامة الصفات المترنة والأسماء المزدوجة في القرآن . فإن الغني صفة كمال و الحمد كذلك ، واجتماع الغني مع الحمد كمال آخر ، فله ثناء من غناه من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك الغفور القدير ، والحمد المجيد ، والعزيز الحكيم ، فتأمله فإنه أشرف المعارف .

باب : لا يقال السلام على الله

قوله : (باب لا يقال : السلام على الله) .

قوله : في الصحيح عن ابن مسعود - إلخ هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " كنا إذا جلسنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان وفلان - الحديث " وفي آخره ذكر التشهد الأخير . رواه الترمذى من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود . وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك بقوله : " فإن الله هو السلام ومنه السلام " وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثاً ويقول : " اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تبارك يا ذا الجلال والإكرام " . وفي الحديث : " إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى " وفي التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم في الجنة . كما قال تعالى : ٣٦ : ٥٨ ' سلام قولاً من رب رحيم " .

ومعنى قوله : إن الله هو السلام إن الله سالم من كل نقص ومن كل تمثيل . فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص .

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد : السلام اسم مصدر . وهو من ألفاظ الدعاء . يتضمن الإنشاء والإخبار ، فجهة الخبر فيه لا تناقض جهة الإنسانية . وهو معنى السلام المطلوب عند التحية . وفيه قوله مشهوران :

الأول : أن السلام هنا هو الله عز وجل . ومعنى الكلام : نزلت بركته عليكم ونحو ذلك . فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء .

الثاني : أن السلام مصدر بمعنى السلامة . وهو المطلوب المدعو به عند التحية ومن حجة أصحاب القول : أنه يأتي منكراً ، فيقول المسلم : سلام عليكم ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك . ومن حجتهم : أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً وداعاء .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وفصل الخطاب أن يقال : الحق في مجموع القولين . فكل منهما بعض الحق ، والصواب في مجموعهما . وإنما يتبيّن ذلك بقاعدة . وهي : أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب ، المناسب لحصوله ، حتى إن الداعي متّشفع إلى الله تعالى متّوسل به إليه . فإذا قال : رب اغفر لي وتب على إني أنت التواب الغفور . فقد سأله أمررين وتتوسل إليه بأسمين من أسمائه ، مقتضيين لحصول مطلوبه . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه وقد سأله ما يدعو به " قل : اللهم أني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم " فالمقام لما كان مقام طلب السلام التي هي أهم عند الرجل ، أتي في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو السلام الذي تطلب منه السلام . فتضمن لفظ السلام معنين : أحدهما : ذكر الله ، والثاني : طلب السلام . وهو مقصود المسلم . فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله وطلب السلام منه . فتأمل هذه الفائدة . وحقيقة : البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعياوب . وعلى هذا المعنى تدور تصارييفه ، فمن ذاك قوله : سلمك الله ، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط رب سلم سلم ومنه سلم الشئ لفلان ، أي خلص له وحده . قال تعالى : ' 39 : 29 ' ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاركون ورجلاً سلماً لرجل " أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره . ومنه السلم ضد الحرب : لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ، ولهذا بنى فيه على المفاعة ، فقيل : المسالمة مثل المشاركة . ومنه القلب السليم وهو النفي من الدغل والعيب . وحقيقة : الذي قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودخل الذنب والمخالفات ، فهو مستقيم على صدق حبه وحسن معاملته . وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته . ومنه أخذ الإسلام ، فإنه من هذه المادة ، لأنه الاستسلام والانقياد لله ، والتخليص من شوائب الشرك ، فسلم لربه

وخلص له ، كالعبد الذي سلم لولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون . ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين
للMuslim الخالص لربه وللمشرك به .

قول : اللهم اغفر لي إن شئت

قوله : باب

قول : اللهم اغفر لي إن شئت

يعني أن ذلك لا يجوز لورود النهي عنه في حديث الباب .

قوله : في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا
يقل أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعنم المسألة فإن الله لا مكره له "
بخلاف العبد ، فإنه قد يعطي السائل مسألته . ل حاجته إليه ، أو لخوفه أو رجائه ، فيعطيه مسألته
وهو كاره . فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسؤول ، مخافة أن يعطيه
وهو كاره ، بخلاف رب العالمين ، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه ، وكمال
جوده وكرمه ، وكلهم فقير إليه ، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين وعطاؤه كلام . وفي الحديث :
" يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سخاء الليل والنهر . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟
فإنه لم يغض ما في يمينه ، وفي يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه " يعطي تعالى لحكمة ويمتنع لحكمة
وهو الحكيم الخبير . فاللائق بمن سأله أن يعنم المسألة ، فإنه لا يعطي عبده شيئاً عن كراهة ولا
عن عظم مسألة . وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه :

ويعظم في عين الصغير صغارها ويصغر في عين العظيم العظام

وهذا بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا ، وإن العبد يعطي تارة وينمّع أكثر ، ويعطي كرهًا
، والبخل عليه أغلب . وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاوه بعظيم ، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده
 فهو دائم مستمر ، يوجد بالنوال قبل السؤال من حين وضعت النطفة في الرحم . فنعمه على الجنين في
بطن أمّه دارة ، يربّيه أحسن تربية ، فإذا وضعته أمّه عطف عليه والديه ورباه بنعمة حتى يبلغ أشد ،
يتقلب في نعم الله مدة حياته ، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا
توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله ، مما أعده الله تعالى
لعباده المؤمنين المتقيين . وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو
بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده ، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها ، فهو الذي شاءها

وقد رأها وأجرها عن كرمه وجوده وفضله . فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن . قال تعالى : ' 16 : 53 ' وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون " وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع ، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر ، أو ليعطيه أكثر . فتبارك الله رب العالمين .

وقوله : ولمسلم : وليعظم الرغبة أي في سؤاله ربه حاجته ، فإنه يعطي العظام كرماً وجوداً وإحساناً . فالله تعالى لا يتعاظمه شئ أعطاء ، أي ليس شئ عنده بعظيم ، وإن عظم في نفس المخلوق . لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذلك بخلاف رب العالمين ، فإن عطاءه كلام ' 36 : 82 ' إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون " فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ، لا إله غيره ولا رب سواه .

لا يقول : عبدي وأمتني

قوله : باب

(لا يقول : عبدي وأمتني)

ذكر الحديث الذي في الصحيح : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقولن أحدكم : أطعم ربك . وضيء ربك . وليرقل : سيدى ومولاي . ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتى ، وليرقل : فتاي وفتاتي وغلامي " .

هذه الألفاظ المنهي عنها . وإن كانت تطلق لغة . فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى عنها تحقيقاً للتوحيد وسدًا لذرائع الشرك لما فيها من التشريك في اللفظ . لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم . فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم . فينهى عنه لذلك . وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى . وإنما المعنى أن هذا مالك له . فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الإعتبار . فالنبي عنه حسماً لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق . وتحقيقاً للتوحيد . وبعدًا عن الشرك حتى في اللفظ . وهذا أحسن مقاصد الشريعة . لما فيه من تعظيم الرب تعالى ، وبعده عن مشابهة المخلوقين ، فأرشدهم صلى الله عليه وسلم إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ . وهو قوله سيدى ومولاي وكذا قوله : ولا يقل أحدكم عبدي وأمتى لأن العبيد عبيد الله . والإماء إماء الله . قال الله تعالى : ' 19 : 93 ' إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً " ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله تعالى وأدبًا وبعدًا عن الشرك وتحقيقاً للتوحيد ، وأرشدهم إلى أن يقولوا :

فتاي وفتاتي وغلامي وهذا من باب حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد ، فقد بلغ صلى الله عليه وسلم أمته كل ما فيه لهم نفع ، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين . فلا خير إلا دلهم عليه ، خصوصاً في تحقيق التوحيد ، ولا شر إلا حذرهم منه ، خصوصاً ما يقرب من الشرك لفظاً وإن لم يقصد به . وبالله التوفيق .

لا يرد من سأل الله

قوله : باب

(لا يرد من سأل بالله)

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأله . لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد في الكتاب والسنة ، فيجب إذا سأله السائل ما له فيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطي منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوباً ، وكذلك إذا سأله المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته ، خصوصاً إذا سأله من لا فضل عنده ، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول ما لا يضر به ولا يضر عائلته ، وإن كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته .

ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين ، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبوا عليه من الكرم وضدema من البخل والشح . فال الأول : محمود في الكتاب والسنة . والثاني : مذموم فيهما . وقد حد الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه . قال الله تعالى : ' 267 ، 268 ' يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم " وقال تعالى : ' 55 : 7 ' وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه " وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة في قوله تعالى : ' 2 : 177 ' ليس البر أن تولوا وجهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين " الآية فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة . ذلك - والله أعلم - لتعدي نفعه . وذكره تعالى في الأعمال التي أمر الله بها عباده . وتعيدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم . قال تعالى : ' 33 : 35 ' إن المسلمين والسلمات المؤمنين والمؤمنات والقانتين والقادتات الصادقين والصادقات الصابرين والصابرات

والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والصادقين والصادئين والصادمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكريات أعد الله لهم مغفرة وأجرها عظيمـاً .

وكان النبي صلـى الله عليه وسلم يحيـث أصحابه على الصدقة حتى النساء . نصـحاً للأمة وحـثـاً لهم على ما ينفعـهم عاجـلاً وآجـلاً . وقد أثـنى الله سبحانه على الأنـصار رضـي الله عنـهم بالإـيثـار ، فقال تعالى : ' ٩ : ٥٩ ' ويـؤثـرون على أنـفسـهم ولو كانـ بهـم خـاصـة ، ومنـ يـوقـ شـحـ نـفـسـهـ فأـولـذـكـ هـمـ المـفلـحـونـ " والإـيثـارـ منـ أـفـضـلـ خـصـالـ المؤـمـنـ كـمـ تـفـيـدـهـ هـذـهـ الآـيـةـ الـكـرـيمـةـ ، وقدـ قـالـ تعالىـ : ' ٨ : ٧٦ ' ٩ : ٩ ' ويـطـعـمـونـ الطـعـامـ عـلـىـ حـبـهـ مـسـكـيـنـاـ وـيـتـيـمـاـ وـأـسـيـراـ * إنـماـ نـطـعـمـكـمـ لـوـجـهـ اللهـ لاـ زـرـيدـ مـنـكـ جـزـاءـ وـلـاـ شـكـورـاـ .

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جداً ، ومن كان سعيـهـ لـلـآخرـةـ رـغـبـ فيـ هـذـاـ وـرـغـبـ ، باللهـ التـوفـيقـ .

قولـهـ : منـ دـعـاـكـمـ فـأـجـيـبـوهـ هـذـاـ مـنـ حـقـوقـ الـمـسـلـمـينـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ : إـجـابـةـ دـعـوـةـ الـمـسـلـمـ ، وـتـلـكـ مـنـ أـسـبـابـ الـأـلـفـةـ وـالـمـحـبـةـ بـيـنـ الـمـسـلـمـينـ .

من صنع لكم معروفاً فكافئون

قولـهـ : ومنـ صـنـعـ إـلـيـكـمـ مـعـرـوفـاـ فـكـافـيـتـهـ نـدـبـهـمـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ عـلـىـ الـمـكـافـأـةـ عـلـىـ الـمـعـرـوفـ ، فإنـ الـمـكـافـأـةـ عـلـىـ الـمـعـرـوفـ مـنـ الـمـرـوـءـةـ التـيـ يـحـبـهـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ ، كـمـ دـلـ عـلـيـهـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ وـلـاـ يـهـمـ الـمـكـافـأـةـ عـلـىـ الـمـعـرـوفـ إـلـاـ اللـئـامـ مـنـ النـاسـ ، وـبـعـضـ اللـئـامـ يـكـافـيـءـ عـلـىـ الـإـحـسـانـ بـالـإـسـاءـةـ ، كـمـ يـقـعـ كـثـيرـاـ مـنـ بـعـضـهـمـ . نـسـأـلـ اللهـ العـفـوـ وـالـعـافـيـةـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ ، بـخـالـفـ حـالـ أـهـلـ التـقـوـيـ وـالـإـيمـانـ فـإـنـهـمـ يـدـفـعـونـ السـيـئـةـ بـالـحـسـنـةـ طـاعـةـ للـهـ وـمـحـبـةـ لـمـاـ يـحـبـهـ لـهـمـ وـيـرـضـاهـ ، كـمـ قـالـ تعالىـ : ' ٢٣ : ٩٦ ' ٩٨ : ٣٥ ' اـدـفـعـ بـالـتـيـ هـيـ أـحـسـنـ السـيـئـةـ نـحـنـ أـعـلـمـ بـمـاـ يـصـفـونـ * وـقـلـ رـبـ أـعـوذـ بـكـ مـنـ هـمـزـاتـ الشـيـاطـينـ * وـأـعـوذـ بـكـ رـبـ أـنـ يـحـضـرـونـ " وـقـالـ تعالىـ : ' ٤١ : ٣٤ ، ٣٥ ' اـدـفـعـ بـالـتـيـ هـيـ أـحـسـنـ فـإـذـاـ الـذـيـ بـيـنـكـ وـبـيـنـهـ عـدـاـوـةـ كـأـنـهـ وـلـيـ حـمـيـمـ * وـمـاـ يـلـقـاـهـ إـلـاـ الـذـيـنـ صـبـرـواـ وـمـاـ يـلـقـاـهـ إـلـاـ ذـوـ حـظـ عـظـيمـ " وـهـمـ الـذـيـ سـبـقـتـ لـهـمـ مـنـ اللهـ تـعـالـىـ السـعـادـةـ .

قولـهـ : فإنـ لمـ تـجـدـواـ مـاـ تـكـافـيـنـهـ فـادـعـواـ لـهـ أـرـشـدـهـمـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ إـلـىـ أـنـ الدـعـاءـ فـيـ حـقـ منـ لـمـ يـجـدـ الـمـكـافـأـةـ مـكـافـأـةـ لـلـمـعـرـوفـ : فـيـدـعـوـ لـهـ عـلـىـ حـسـبـ مـعـرـوفـهـ .

قوله : تروا - بضم التاء تظنوا - أنكم قد كافأتموه ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى تعلموا . وبؤيه ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر : حتى تعلموا فتعين الثاني للتصريح به . وفيه : من سألكم بالله فأجيبوه أي إلى ما سأله . فيكون بمعنى : أعطوه ، وعند أبي داود في رواية أبي نهيك عن ابن عباس : من سألكم بوجه الله فأعطيه وفي رواية عبيد الله القواريري لهذا الحديث ومن سألكم بالله كما في حديث ابن عمر .

لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

قوله : باب

(لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)

ذكر فيه حديث جابر - رواه أبو داود عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يسأل بوجه الله إلا الجنة " .

وهنا سؤال : وهو أنه قد ورد في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء المأثور : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وহوانني على الناس . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يك بكل غضب علي فلا أبالى ، غير أن عافيتك هي أوسع لي " وفي آخره : " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . أن يحل على غضبك ، أو ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله " . والحديث المروي في الأذكار : " اللهم أنت أحق من ذكر وأحق من عبد - وفي آخره - أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض " وفي حديث آخر : " أعوذ بوجه الله الكريم ، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة من شر السامة واللامة ، ومن شر ما خلقت ، أي رب ، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ، ومن شر الدنيا والآخرة " . وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان .

فالجواب : أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يقرب إلى الجنة أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة ، فيكون قد سأله بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما في الحديث الصحيح : " اللهم إن أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل " بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعفة في المعيشة رغبة في الدنيا ، مع قطع

النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة . فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوايج دنياه بوجه الله . وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث . كما لا يخفى . والله أعلم .
وحيث أن الباب من جملة الأدلة المتوترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى . فإنه صفة كمال : وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات . كسلبهم جميع الصفات أو بعضها . فوقعوا في أعظم مما فروا منه . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً . الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته ، فيثبتون له ما أثبتته لنفسه في كتابه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وينفون عنه مشابهة المخلوق . فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات فصفاته كذلك لا تشبه الصفات ، فمن نفها فقد سلب الكمال .

ما جاء في اللهو

قوله : باب

(ما جاء في اللهو)

أي من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكرورة ، كالصائب إذا جرى بها القدر لما فيه من الإشعار بعد الصبر والأسى على ما فات ، مما لا يمكن استدراكه ، فالواجب التسليم للقدر ، والقيام بالعبودية الواجبة وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره . والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة . وأدخل المصنف رحمة الله أدلة التعريف على لو وهذه في هذا المقام لا تفيid تعريفاً كنظائرها ، لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر :

رأيت الوليد بن الزيهد مباركاً شديداً بأعباء الخلافة كأهله

وقوله : وقول الله عز وجل : ' 154 : 3 ' يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا "

قال بعض المنافقين يوم أحد ، لخوفهم وجزعهم وخورهم .

قال بن إسحاق : فحدثني يحيى بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله ابن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم . فما منا رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فوالله إنني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا . فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل :

" يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلتنا هاهنا " لقول معتبر رواه ابن أبي حاتم . قال الله تعالى : " قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم " أي هذا قدر مقدر من الله عز وجل وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه .

وقوله : ' 96 ' الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا " الآية .

قال العmad ابن كثير : الذين قالوا لإخوانهم ، وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا أي لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل . قال الله تعالى : " قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين " أي إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ، في ينبغي لكم أن لا تموتوا ، والموت لا بد آت إليكم ، ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادرعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه يعني أنه هو الذي قال ذلك . وأخرج البيهقي عن أنس أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فجعل يسقط سيفي وآخذه ويسقط وآخذه . قال : والطائف الأخرى - المنافقون - ليس لها هم إلا أنفسهم ، أجبن قوم ، وأرعبه ، وأخذله للحق " يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية " إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل .

قوله : قد أهتمتهم أنفسهم يعني لا يغشهم النعاس عن القلق والحزن والخوف : " يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية " .

ابن تيمية : كلامه على القدر

قال شيخ الإسلام رحمه الله : لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبي في غزوة أحد قال : فلما انخذل يوم أحد وقال : يدع رأيه ويأخذ برأي الصبيان ؟ أو كما قال ... انخذل معه خلق كثير ، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك . فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان ، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل . فلو ماتوا قبل المحنـة والنـافقـاتـ لـاتـوا عـلـى إـسـلاـمـ، ولـمـ يـكـوـنـواـ مـنـ المؤـمـنـينـ حقـاـ الذين امتحـنـواـ فـتـبـتوـ عـلـىـ المـحـنـةـ ، ولـاـ مـنـ الـنـافـقـينـ حقـاـ الـذـينـ اـرـتـدـواـ عـنـ الإـيمـانـ بـالـمـحـنـةـ . وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً وينافق كثيراً منهم . ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة . وإذا كانت العافية ، أو كان المسلمين ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين ، وهم مؤمنون بالرسل باطنـاـ وظاهرـاـ ، لكنه إيمان لا يثبت على المـحـنـةـ ، ولـهـذاـ يـكـثـرـ فيـ هـؤـلـاءـ تركـ الفـرـائـضـ وـانتـهـاكـ

المحارم وهؤلاء من الذين قالوا : آمنا ، فقيل لهم : " لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم " أي الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً ، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب ، انتهى .

قوله : وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا ما فيه عبرة .

قلت : ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو ، من إعانتهم العدو على المسلمين ، والطعن في الدين ، وإظهار العداوة والشماتة ، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام ، وذهاب أهله ، وغير ذلك مما يطول ذكره . والله المستعان .

قوله : في الصحيح أي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : احرص - الحديث .

اختصر المصنف رحمة الله هذا الحديث ، وتمامه : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك " أي في معاشك ومعادك . والمراد الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخره مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده دون كل ما سواه ليتم له سببه وينفعه . ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك ، لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والسبب ، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به ، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى . ففعل السبب سنة ، والتوكيل على الله توحيد . فإذا جمع بينهما تم له مراده بإذن الله .

قوله : ولا تعجزن النون نون التأكيد الخفيفة . نهاده صلى الله عليه وسلم عن العجز وذمه ، والعجز مذموم شرعاً وعقلاً ، وفي الحديث : " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني " فأرشده صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا . ولكن يقول : قدر الله وما شاء فعل ، أي هذا قدر الله والواجب التسليم للقدر ، والرضي به ، واحتساب الثواب عليه .

قوله : فإن لو تفتح عمل الشيطان أي ما فيه من التأسف على ما فات والتحسر ولو المقدر ، وذلك ينافي الصبر والرضى ، والصبر واجب ، والإيمان بالقدر فرض ، قال تعالى : ' 57 : 22 ' 23 ' ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكם والله لا يحب كل مختال فخور ' .

قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد
وقال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن .

قال شيخ الإسلام رحمه الله - وذكر حديث الباب بتمامه - ثم قال في معناه : لا تعجز عن مأمور ،
ولا تجزع عن مقدر ، ومن الناس من يجمع كلا الشررين ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالحرص
على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضي الوجوب ، وإلا فالاستحباب ، ونهى عن العجز وقال :
إن الله يلزم على العجز والعاجز ضد الذين هم ينتصرون فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في
مواضع كثيرة ، وذلك لأن الإنسان بين أمرتين : أمر أمر بفعله ، فعليه أن يفعله ويحرص عليه
ويستعين الله ولا يعجز ، وأمر أصيب به من غير فعله . فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ، ولهذا
قال بعض العقلاء - ابن المفع أو غيره - الأمور أمران : أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة
فيه فلا تجزع منه . وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن : الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به ،
وأحبه له . فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقد أمره بكل
خير له فيه حيلة . وما لا حيلة له فيه ما أصيب به من غير فعله . واسم الحسنات والسيئات يتناول
قسمين : فالأفعال مثل قوله تعالى : ' 6 : 160 ' من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء
بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها " ومثل قوله تعالى : ' 7 : 17 ' إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن
أسأتم فلها " ومثل قوله تعالى : ' 40 : 42 ' وجاء سيئة سيئة مثلها " ومثل قوله تعالى : ' 2 : 81 '
" بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيبته " إلى آيات كثيرة من هذا الجنس والله أعلم .
والقسم الثاني : ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب . كما قال تعالى : ' 4 : 79 '
' ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك " والآية قبلها ، فالحسنة في هاتين
الآيتين : النعم ، والسيئة : المصائب ، هذا هو الثاني من القسمين .

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره في هذا الموضوع ولعل الناسخ أسقطه والله أعلم .
ثم قال رحمه الله : فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ولكن
عندما يجري عليه المصائب التي لا حيلة له في دفعها ، مما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر
عليه وارض وسلم . قال تعالى : ' 64 : 11 ' ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله
يهد قلبه " ولهذا قال آدم لموسى : أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ فحج
آدم موسى لأن موسى قال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فلامه على المصيبة التي حصلت
بسبب فعله ، لا لأجل كونها ذنباً . وأما كونها لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس - فليس

مراداً بالحديث ، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب . والتأيب من الذنب كمن لا ذنب له .
ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس ، انتهى .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : فتضمن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان . أحدها :
أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة . الثاني : أنه يحب مقتضى اسمائه وصفاته وما
يوافقها ، فهو القوي ويجب المؤمن القوي ، وهو وتر ويحب الوتر ، وجميل يحب الجمال ، وعلیم
يحب العلماء ، ونظيف يحب النظافة ، ومؤمن يحب المؤمنين ، ومحسن يحب المحسنين ، وصابر
يحب الصابرين ، وشاكراً يحب الشاكرين .

ومنها أن محبته للمؤمنين تتفاصل ، فيحب بعضهم أكثر من بعض .

ومنها : أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده ، والحرص هو بذل الجهد
 واستفراغ الوسع . فإذا صادف ما ينفع به الحريص كان حرصه محموداً وكماله كله في مجموع هذين
الأمرتين: أن يكون حريضاً وأن يكون حرصه على ما ينفع به ، فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما
ينفعه من غير حرص فإنه من الكمال بقدر ما فاته من ذلك ، فالخير كله في الحرص على ما ينفع .

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئة و توفيقه أمره أن يستعين بالله ليجتمع
له مقام : "إياك نعبد وإياك نستعين" فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى . ولا يتم إلا بمعونته
فأمره أن يعبده وأن يستعين به . فالحرير على ما ينفعه ، المستعين بالله ضد العاجز ، فهذا إرشاد
له قبل وقوع المقدور إلى ما هو أعظم أسباب حصوله ، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور
ببيده ومصدرها منه ومدرها إليه .

فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان : عجز . وهو مفتاح عمل الشيطان ، فيليقيه العجز إلى لو ولا
فائدة من لو ههنا بل هي مفتاح اللوم والعجز والسلخ والأسف والحزن ، وذلك كله من عمل الشيطان
فنهاه صلى الله عليه وسلم عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح ، وأمره بالحالة الثانية . وهي النظر إلى القدر
وملحوظته وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغبه عليه أحد ، فلم يبق له هنا أنسع من شهود القدر
ومشيئة رب النافذة التي توجب وجوب المقدور ، وإن انتفت امتنع وجوده ، ولهذا قال : فإن غلبك
أمر فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فأرشده إلى ما ينفعه في
الحالتين : حال حصول المطلوب ، وحالة فواته ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد
أبداً ، بل هو أشد إليه ضرورة ، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهراً
وباطناً في حالي المطلوب وعدمه ، وبالله التوفيق .

النهي عن سب الريح وما يقول عند هياج الريح

قوله : باب

(النهي عن سب الريح)

قوله : عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسبو الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونوعذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به " . صححه الترمذى .

لأنها - أي الريح - إنما تهرب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمرها ، فمسببتها مسبة للفاعل ، وهو الله سبحانه . كما تقدم في النهي عن سب الدهر وهذا يشبهه ، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه وبما شرعه لعباده ، فنهى صلى الله عليه وسلم أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال : إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به يعني إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا " اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به . ونوعذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به " ففي هذا عبودية الله وطاعة له ولرسوله ، واستدفاع للشرور به ، وتعرض لفضله ونعمته وهذه حال أهل التوحيد والإيمان ، خلافاً لحال أهل الفسق والعصيان الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان .

ما يقول عند هياج الريح

قول الله " يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية "

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 3 : 154 ' يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله " الآية .

وهذه الآية ذكرها الله في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أحد " ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعasaً يغشى طائفة منكم " يعني أهل الإيمان والثبات والتوكيل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم وينجز له مأموله ، ولهذا قال : " وطائفة قد أهتمتهم أنفسهم " يعني لا يغشون العنا من الجزع والقلق والخوف " يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية " كما قال تعالى : ' 48 : 12 ' بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول المؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً " وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله . وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة ، عن ابن جريج قال : قيل لعبد الله بن أبي : قتل بنو الخزرج اليوم ؟ قال : وهل لنا من الأمور من شئ ؟ .

قول بن القيم : في ظن السوء بالله والذين يظنونه

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ما تضمنته وقعة أحد : وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل ، وفسر بظنهما أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه . ففسر بإنكار الحكمة . وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح حيث يقول : ' 48 : 6 ' ويعدب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشرفات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً " وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية - وهو المنسوب إلى أهل الجهل - وظن غير الحق ، لأن ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء ، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية ، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه ، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم . ولجنده بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنه لا ينصر رسليه ولا يتم أمره ولا يؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يدلي الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق إدلة مستقرة ، يضمحل معها التوحيد والحق أضمحلاً لا يقوم بعده أبداً . فقد ظن بالله ظن السوء ، ونسبة إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونوعته ، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك وتأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين . فمن ظن به ذلك

فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله . وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضاءه وقدره . فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته . وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمته وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها . وأن تلك الأسباب الم Kroوهه له المفضية إليها ، لا يخرج تقديرها عن الحكمة ، لإفضائهما إلى ما يحب وإن كانت مكرهة له ، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلاً : ٤٨ : ٢٧ " ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار " .

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله غيره ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسمائه وصفاته ، وعرف موجب حكمته وحمده . فمن قنط من رحمته وأليس من روحه فقد ظن به ظن السوء . ومن جوز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوى بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي ، لا يرسل إليهم رسلاه ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هملاً كالأنعام فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعذاب في دار يجازى المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءاته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسلاه ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره ، ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقب بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له في حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداء الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسلاه ويجرئها على أيديهم ليضلوا بها عباده ، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في الجحيم في أسفل السافلين ، وينعم من استنفذ عمره في عداوته وعداؤه رسلاه ودينه فيرفعه إلى أعلى علبيين ، وكلا الأمرين في الحسن عنده سواء ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإن فالعقل لا يقتضي بقبح أحدهما وحسن الآخر . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رمزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارة ملغزة ولم يصرح به وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتبعوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن موضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحجاجي أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحوالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على

كتابه . بل أراد منهم ألا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ، ويربّحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان . فقد ظن به ظن السوء ، فإنه إن قال : إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه فقد ظن بقدرتة العجز ، وإن قال إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم ، بل يقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد . فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء .

ومن ظن أنه هو وسلفه عدوا عن الحق بصريحة دون الله ورسوله . وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتلميذ والضلال وظاهر كلام المتهوكيين والحيارى هو الهدى والحق فهو أسوأ الظن بالله .

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه ، فقد ظن بالله ظن السوء . ومن ظن أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل ، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً ، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات ، ولا عدد السموات ولا النجوم ، ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم ، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان ، فقد ظن بهم ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر ولا علم ولا إرادة ، ولا كلام يقوم به ، وأنه لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً ، ولا قال ، ولا يقول ، ولا له أمر ولا نهي يقوم به ، فقد ظن بهم ظن السوء .

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين ، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، وأنه من قال : سبحان ربى الأسفل كان كمن قال : سبحان ربى الأعلى . فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسق والعصيان ، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح ز فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى ، ولا يغضب ولا يسخط ، ولا يوالى ولا يعادى ، ولا يقرب من أحد من خلقه ، ولا يقرب منه أحد . وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يسوى بين المتضادين ، أو يفرق بين المتساوين من كل وجه ، أو يحيط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها ، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أبد الآدين بتلك الكبيرة ، ويحيط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين ، واستنفذ ساعات عمره في مساقطة ومعاداة رسله ودينه ، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أن له ولداً أو شريكاً ، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائل يرفعون حواجزهم إليه ، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ، ويتوصلون بهم إليه ، و يجعلونهم وسائل بينه وبينهم ، فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته ، كما يناله بطاعته والتقرب إليه ، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته وهو من ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيراً منه ، أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه ، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والريبة وتضرع إليه وسأله واستعنان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله ، فقد ظن به ظن السوء . وظن به خلاف ما هو أهله .

ومن ظن أنه يثببه إذا عصاه كما يثببه إذا أطاعه ، وسأله ذلك في دعائه ، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده ، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله .

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع في معاصيه ثم اتخذ من دونه أولياء ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ويخلصه من عذابه ، فقد ظن به ظن السوء .

فأكثر الخلق بل كلهم - إلا من شاء الله - يظنون بالله غيره الحق وظن السوء ، فإن خالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما شاء الله وأعطاه . ولسان حاله يقول : ظلمني ربى ومنعني ما أستحقه ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ولا يتجراس على التصرير به . ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة طواياهارأي ذلك فيها كامناً كمون النار في الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبعئك شراره بما في زناده ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً وتعتاباً على القدر

، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك ؟

فإن تنجد منها تنجد من ذي عظيمة وإن لا فإنني لا إخالك ناجياً

فليعن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ، وليتب إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بربه .
ظن السوء ، ولبيظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم .
فهي أولى بظن السوء من أحكام الحكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين الغني الحميد ، الذي
له الغني التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه ،
فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه وصفاته كذلك وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل ،
وأسماؤه كلها حسنة .

فلا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيراً فكيف بظالم جان جهول
وقل : يا نفس مأوى كل سوء أترجو الخير من ميت بخيل
وظن بنفسك السوأى تجدها كالمستحيل
وما بك من تقي فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ولكن من الرحمن فأشكر للدليل

قوله : " الظانين بالله ظن السوء " قال ابن جرير في تفسيره " ويعذب المنافقين والمنافقات والمرتكبات الظانين بالله ظن السوء " الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به . وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع . يقول تعالى ذكره : على المنافقين والمنافقات والمرتكبات والمرتكبات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء . يعني دائرة العذاب تدور عليهم به . واختلف القراء في قراءة ذلك : فقرأته عامة قراء الكوفة دائرة السوء بفتح السين . وقرأ بعض قراء البصرة دائرة السوء بالضم . وكان الفراء يقول : الفتح أفضى في السين . وقل ما تقول العرب دائرة السوء بضم السين .

وقوله : " وغضب الله عليهم ولعنهم " يعني ونالهم الله بغضبه منه ولعنه . يقول : وأبعدهم فأقصاهم من رحمته " وأعد لهم جهنم " يقول : وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيمة " وساعت المصيرأ " يقول : وساعت جهنم متولاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمركون والمرకات .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : " ويعبد المنافقين والمنافقات والشركين والشركات
الظانين بالله ظن السوء " أي يتهمون الله في حكمه ويظنون بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن
يقتلوا ويذهبوا بالكلية . ولهذا قال تعالى : " عليهم دائرةسوء " وذكر في معنى الآية الأخرى نحواً
ما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى :

قوله : قال ابن القيم رحمه الله تعالى الذي ذكره المصنف في المتن قدمته لاندراجه في كلامه الذي
سقته من أوله إلى آخره .

ما جاء في منكري القدر

قوله : باب

(ما جاء في منكري القدر)

أي من الوعيد الشديد ونحو ذلك .

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : " القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم . وإن ماتوا فلا تشهدوهم " .

وعن عمر مولى غفرة عن رجال من الأنصار عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضي الله عنهما قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر
، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلا تعودوه ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله
أن يلحقهم بالدجال " .

قوله : وقول ابن عمر : والذي نفسي بيده ... إلخ حديث ابن عمر أخرجه مسلم وأبو داود
والترمذى والنمسائى وابن ماجه عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد
الجهننى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين ، أو معترين . فقلنا : لو لقينا أحداً
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ؟ فوق الله تعالى لنا عبد
الله بن عمر داخلاً في المسجد ، فاكتتفته أنا وصاحبى ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى ، فقلت
: أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن ، ويتقرون العلم يزعمون أن لا قدر ، وأن
الأمر أنف ، فقال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء ، وأنهم مني براء . والذي يحلف به
عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر

. ثم قال حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسنده ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتوتّي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتومن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها . قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال فانطلق . فلبت ثالثاً ، وفي رواية مليأاً ، ثم قال يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلّم دينكم " .

ففي هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة ، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده ، فيشبه من قال الله فيهم : ' 2 : 85 ' أفتؤمنون بعض الكتاب وتکفرون ببعض " الآية .

قوله : وعن عبادة قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد ، وحديثه هذا رواه أبو داود ورواه الإمام أحمد بكماله قال حدثنا الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب بن زياد ، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة ثني أبي قال : دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبا ته أوصني واجتهد لي ، فقال : أجلسوني . قال : يا بنى إنك لن تجد طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : يا أبا ته فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيمة . يا بنى ، إن مت ولم تُؤت على ذلك دخلت النار ". ورواه الترمذى بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه ، وقال : حسن صحيح وغريب .

وفي هذا الحديث ونحوه : بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان ويكون في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى: ' 65 : 12 ' الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قادر وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ' .

وقد قال الإمام أحمد رحمة الله لما سئل عن القدر قال : القدر قدرة الرحمن واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمة الله .

والمعنى : أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء . ونفأة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى فضلوا سوء السبيل . وقد قال بعض السلف : ناظرهم بالعلم ، فإن أقروا به خصمو وإن جحدوه كفروا .

قوله : وفي المسند وسنن أبي داود عن ابن الديلمي وهو أبو بسر - بالسين المهملة ، وبالباء المضمومة . ويقال أبو بشر - بالشين المعجمة وكسر الباء - وبعدهم صبح الأول . وإن اسمه عبد الله بن فiroز . ولفظ أبي داود قال : لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه ، عذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم وكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم . ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت زيد بن ثابت ، قال : فحدثني عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك وأخرجه ابن ماجه .

وقال العمامي ابن كثير رحمة الله : عن سفيان عن منصور عن ربعي بن حراش عن رجل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره " وكذا رواه الترمذى عن النضر بن شميل عن شعبة عن منصور به . ورواه من حديث أبي داود الطيالىسى عن شعبة عن ربعي عن علي فذكره .

وقد ثبت في صحيح مسلم من روایة عبد الله بن وهب وغيره عن أبي هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجبلى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله كتب مقادير الخلاائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - زاد ابن وهب - : وكان عرشه على الماء " رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

وكل هذه الأحاديث وما في معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم . ومن مذهبهم : تخليد أهل العاصي في النار . وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم العاصي .

وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا . وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا ، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر ، وعدم تخليد أهل الكبائر من الوحدين في النار .

ما جاء في المصورين

قوله : باب

(ما جاء في المصورين)

أي من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه .

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم العلة : وهي المضاهاة بخلق الله ، لأن الله تعالى له الخلق والأمر ، فهو رب كل شئ ومليكه ، وهو خالق كل شئ وهو الذي صور جميع الخلوقات ، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة ، كما قال تعالى : ' 32 : 7 ' الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين * ثم سواه ونفع فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون " فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهاً لخلق الله . فصار ما صوره عذاباً له يوم القيمة ، وكلف أن ينفع فيها الروح وليس بنافخ . فكان أشد الناس عذاباً ، لأن ذنبه من أكبر الذنوب .

فإن كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان ، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين وشبيهه بخلقه ، وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه . فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه ، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس ، وهو أعظم ذنب عصى الله تعالى به . ولهذا أرسل رسالته وأنزل كتبه لبيان هذا الشرك والنهي عنه ، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى . فنجى الله تعالى رسالته ومن أطاعهم . وأهلك من جهل التوحيد ، واستمر على الشرك والتنديد ، مما أعظمه من ذنب : ' 48 : 116 ' إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون

ذلك من يشاء " ٤١ : ٢٢ " ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتختطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق " .

بعث على إلى اليمن لهدم القباب وطمس التماشيل والصور

قوله : ولمسلم عن أبي الهياج الأسي - حيان بن حصين - قال : قال لي علي رضي الله عنه هو أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه .

قوله : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تدع صورة إلا طمسها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته .

فيه تصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث علياً لذلك . أما الصور فلمضاهاتها لخلق الله . وأما تسوية القبور فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهو من ذرائع الشرك ووسائله . فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من صالح الدين ومقاصده وواجباته . ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور ، وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، وصارت محطاً لرحال العابدين العظامين لها . فصرفوا لها جل العبادة : من الدعاء والاستغاثة ، والتضرع لها ، والذبح لها ، والنذور ، وغير ذلك من كل شرك محظوظ .

قول ابن القيم فيما ابتدعه الضالون من بدع القبور محاولة الله ولرسوله

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم . رأى أحدهما مضاداً للآخر ، منافقاً له بحيث لا يجتمعان أبداً . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها وإليها .

ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله . ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى عن أن تتخذ عياداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعاتهم للعيد أو أكثر . وامر بتسويتها ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسي - فذكر حديث الباب - وحديث تمامة بن شفي وهو عند مسلم أيضاً قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم بدردرس ، فتوفى صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها وهؤلاء يبالغون

في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه . كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبر وأن يعقد عليه ، وأن يبني عليه ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود في سنته . عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نهى عن تجصيص القبور ، وأن يكتب عليها " قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيره ، ونهى أن يزad عليها غير ترابها . كما روى أبو داود عن جابر أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يجسس القبر ، أو يكتب عليه ، أو يزad عليه وهؤلاء يزيدون عليه الأجر والجص والأحجار . قال إبراهيم النخعي : كانوا يكرهون الأجر على قبورهم .

والمقصود : أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً ، المقددين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم محاذون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها . وهو من الكبائر . وقد صرخ الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمها .

قال أبو محمد المقطسي : ولو أتيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله . ولأن فيه تضييغاً للمال في غير فائدة وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم بالأصنام . قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذر ما صنعوا " متفقاً عليه . ولأن تجصيص القبور بالصلة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلة عندها . انتهى .

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً . ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه مناسك حج المشاهد مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول في دين عباد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباهي العظيم بين ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصده ، من النهي عما تقدم ذكره في القبور ، وبين ما شرعه وقصدوه ، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره .

فمنها : تعظيمها الموقع في الافتتان بها . ومنها : اتخاذها أعياداً . ومنها السفر إليها . ومنها : مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها ، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، ويرون سدانتها

أفضل من خدمة المساجد ، والويل عندهم لقيمهما ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها . ومنها : النذر لها ولسدتها . ومنها : اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء ، ويستنزل غيث السماء ، وتفرج الكروب ، وتقضي الحوائج ، وينصر المظلوم ، ويجار الخائف إلى غير ذلك . ومنها : الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها . ومنها : الشرك الأكبر الذي يفعل عندها .

ومنها : إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم . فإنهم يؤذين ما يفعل عند قبورهم ، ويكرهونه غاية الكراهة ، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره ، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذين ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم . ويوم القيمة يتبرأون منهم ، كما قال تعالى : ' 25 : 17 ، 18 ' ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أنتم أضللتם عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً " قال الله تعالى للمشركين : " فقد كذبتم بما تقولون " وقال تعالى : ' 5 : 116 ' وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخاذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق " الآية وقال تعالى : ' 34 : 40 ، 41 ' ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة هؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون " .

ومنها : إماتة السنن وإحياء البدع .

ومنها تفصيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله ، فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والإحترام والخشوع ورقة القلب ، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه .

ومنها : أن الذي شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة ، والإحسان إلى المزور بالدعاء له ، والترحم عليه ، والإستغفار له . وسؤال العافية له ، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت . فقلب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين ، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميته ، ودعاه والدعاء به ، وسؤالهم حوائجهم ، واستنزال البركة منه ، ونصره لهم على الأعداء . ونحو ذلك . فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى الرجال عن زيادة القبور سداً للذرية فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه ، ونهىهم أن يقولوا هجراً ، ومن أعظم الهجر : الشرك عندها قولًا وفعلاً .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " زوروا القبور ، فإنها تذكر الموت " وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه فقال : " السلام عليكم يأهل القبور ، يغفر الله لنا ولهم أنتم سلفنا ونحن بالأثر " رواه أحمد والترمذى وحسنه .

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته ، وعلمهم إياها ، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمد أهل الشرك والبدع ؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله : لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود الأنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك .

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحملوا جانبه ، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أراد الدعاء استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا ونص على ذلك الأئمة الأربع : أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعوا عند القبر ، فإن الدعاء عبادة . وفي الترمذى وغيره : الدعاء هو العبادة فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الدعاء لاصحابها والإستغفار لهم والترحم عليهم . وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عياداً ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم " وإنساده جيد ورواته ثقات مشير . قوله : لا تجعلوا بيوتكم قبوراً أي لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور فأمر بتحري النافلة في البيوت ونهي عن تحريم النافلة عند القبور ، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم .

ثم إن في تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب الله لأجله كل من في قلبه وقار الله وغيرها على التوحيد وتهجين وتقبیح للشرك ، ولكن ما لجرح بميت إيلام .

فمن المفاسد : اتخاذها أعياداً والصلاحة إليها والطواف بها وتقبيتها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية ، وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهجات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم . فلورأيت غلاة المتخذين لها عياداً ، وقد نزلوا عن الأكوار والدوااب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجبار ، وقبلوا الأرض ، وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم ، بالضجيج ، وتاباكوا حتى تسمع لهم

النشيج ، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج ، فاستغاثوا بمن لا يبديء ولا يعيده ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنو منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلٍ إلى القبلتين !! فترأهُم حول القبر ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً ، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخساناً .

فَلَغَيْرُ اللَّهِ - بَلِ الشَّيْطَانَ - مَا يَرَقُ هُنَاكَ مِنَ الْعِبَرَاتِ ، وَيَرْتَفِعُ مِنَ الْأَصْوَاتِ ، وَيَطْلُبُ مِنَ الْمَيِّتِ
مِنَ الْحَاجَاتِ ، وَيَسْأَلُ مِنْ تَفْرِيجِ الْكَرِبَاتِ ، وَإِغاثَةِ الْلَّهَفَاتِ ، وَإِغْنَاءِ ذُويِ الْفَاقَاتِ ، وَمَعَافَةِ ذُويِ
الْعَاهَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ ، ثُمَّ انتَنُوا بَعْدَ ذَلِكَ حَوْلَ الْقَبْرِ طَائِفِينَ ، تَشَبِّهُمَا لَهُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ
مَبَارِكًاً وَهُدِيًّا لِلْعَالَمِينَ . ثُمَّ أَخْذُنَا فِي التَّقْبِيلِ وَالْاسْتِلَامِ . أَرَيْتَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَمَا يَفْعُلُ بِهِ وَفَدُ الْبَيْتِ
الْحَرَامِ . ثُمَّ عَفَرُوا لِدِيهِ تَلَكَ الْجِبَاهُ وَالْخُدُودُ ، الَّتِي يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَمْ تَعْفَرْ كَذَلِكَ بَيْنَ يَدِيهِ فِي السُّجُودِ ،
ثُمَّ كَمْلُوا مَنَاسِكَ حَجَّ الْقَبْرِ بِالتَّقْصِيرِ هُنَاكَ وَالْحَلَاقِ وَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُاقِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْوَثْنِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَقٍ ، وَقَدْ قَرْبُوا لَذَلِكَ الْوَثْنِ الْقَرَابِينَ وَكَانَتْ صَلَاتُهُمْ وَنِسْكُهُمْ وَقَرْبَانُهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ، فَلَوْ رَأَيْتُهُمْ يَهْنِئُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَيَقُولُ : أَجْزَلَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ أَجْرًا وَافْرًا وَحَظًّا ، فَإِنْ رَجَعُوا
سَأَلَهُمْ غَلَةُ الْمُتَخَلِّفِينَ أَنْ يَبْيَعُ أَحَدُهُمْ ثَوَابَ حَجَّةِ الْقَبْرِ بِحَجَّةِ الْمُتَخَلِّفِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، فَيَقُولُ : لَا
وَلَا بِحَجْكِ كُلِّ عَامِ .

هذا - ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ، إذ هي فوق ما يخطر بالبال ، ويدور في الخيار ، وهذا مبدأ الأصنام في قوم نوح كما تقدم . وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور ، سد الذريعة إلى هذا المحظور . وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه ، وأحکم في نهيء عنه وتوعده عليه ، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته ، والشر والضلال في معصيته ومخالفته . اهـ كلامه رحمة الله تعالى .

ما جاء في كثرة الحلف

قوله : باب

(ما جاء في كثرة الحلف)

أي من النهي عنه والوعيد .

وقول الله تعالى : ' 5 : 98 ' واحفظوا أيمانكم " .

قال ابن جرير لا تتركوها بغير تكثير . وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد لا تحلفوا .
وقال آخرون : احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا . والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس ، فإن القولين متلازمان ، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الإستخفاف ، وعدم التعظيم لله ، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الحلف منفة للسلعة ممحقة للكسب " أخر جاه .

أي البخاري ومسلم . وأخرجه أبو داود والنسائي . والمعنى : أنه إذا حلف على سلطته أنه أعطى فيها كذا وكذا ، أو أنه اشتراها بكذا وكذا ، وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها ، والبائع كذاب وحلف طمعاً في الزيادة ، فيكون قد عصى الله تعالى ، فيعاقب بمحق البركة ، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسب حلفه ، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً . وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها أضمحلال وذهب وعقاب .

ثلاث لا يكلهم الله

قوله : وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة لا يكلهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أشيمط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ، لا يشتري إلا بيديه ، ولا يبيع إلا بيديه " رواه الطبراني بسند صحيح .

وسلمان لعله سلمان الفارسي أبو عبد الله ، أسلم مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وشهد الخندق ، روى عنه أبو عثمان النهدي وشرحبيل بن السمط وغيرهما . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " سلمان من أهل البيت ، إن الله يحب من أصحابي أربعة : علياً ، وأبا ذر ، وسلامان ، والمقداد " أخرجه الترمذى وابن ماجه . قال الحسن : كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم في عبادة يفترش نصفها ويلبس نصفها . توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه . قال أبو عبيده سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة . ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي .

قوله : ثلاثة لا يكلهم الله نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أن يكلم من أطاعه . وأن الكلام صفة كماله . والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شئ وأبينه . وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه ، وأن الفعل يقع بمشيئة

تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به . فهو حادث الآحاد قديم النوع ، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعی وأحمد وسائر الطوائف ، كما قال تعالى : ' 36 : 82 ' إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون " فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضاً . وذلك في القرآن كثير .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فإذا قالوا لنا يعني النفاة : فهذا يلزمك أن تكون الحوادث قائمة به . قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . ولفظ الحوادث مجمل ، فقد يراد به الإعراض والنقائص ، والله تعالى منزه عن ذلك - ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك : مما دل عليه الكتاب والسنة . والقول الصحيح : هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون : لم ينزل الله متكلماً إذا شاء ، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة ، ا هـ .

قلت : ومعنى قيام الحوادث به تعالى : قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره . والله أعلم . قوله : ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم لما عظم ذنبهم عظمت عقوبهم ، فعواقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات .

قوله : أشيمط زان صغره تحقيراً له وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا : محبة المعصية والفحور ، وعدم خوفه من الله . وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تعليط العقوبة عليه ، بخلاف الشاب ، فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله ، وقد يرجع على نفسه بالندم ، ولو أنها على المعصية فينتهي ويراجع .

وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر ، لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة . والعائل الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيع له ، كامن في قلبه ، فعظمت عقوبته لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر العاصي .

قوله : ورجل جعل الله بضاعته بمنصب الإسم الشريف ، أي الحلف به ، جعله بضاعته ملازمته له وغلوته عليه . وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك العاصي العظيمة على قلة الداعي إليها . نسأل الله السلامة والعافية ، نعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه .

قوله : وفي الصحيح أي صحيح مسلم . وأخرجه أبو داود والترمذى ، ورواه البخارى بلفظ خيركم

قوله : عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير أمتى قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم - قال عمران : فلا أدرى أذكر بعد قرنيه مرتين أو ثلاثة ؟ - ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن " .

قوله : خير أمتى قرني لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويتفاضل فيها العاملون ، فغلب الخير فيها وكثير أهله ، وقل الشر فيها وأهله واعتز فيها بالإسلام والإيمان ، وكثير فيها العلم والعلماء ثم الذين يلونهم فضلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيه وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به . وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأذيل ، كبدعة الخارج والقدرة والرافضة ، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتبع .

قوله : فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين رضي الله عنه . والمشهور في الروايات : أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين في الفضل ، لكثرة البدع فيه ، لكن العلماء متواترون بالإسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم ، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين ، وكثرة الأهواء .

فقال : ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريمهم الصدق ، وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم .

قوله : ويخونون ولا يؤتمنون يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم وينذرون ولا يوفون أي لا يؤدون ما وجب عليهم ، ظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم .

قوله : ويظهر فيهم السمن لرغبتهم في الدنيا ، ونيل شهواتهم والتنعم بها ، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها . وفي حديث أنس : " لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم " قال أنس : سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم ، مما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف .

قلت : بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع ، وصنفو في ذلك نظماً ونشرأً فنعود بالله من موجبات غضبه .

قوله : وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه وييمينه شهادته " .

قلت : وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسى المعاد ، فخفف أمر الشهادة واليمين عنده تحملأً وأداء ، لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك ، وهذا هو الغالب على الأكثر . والله المستعان . فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف . فكان الناس على حذر .

قوله : وقال إبراهيم - هو النخعي - كانوا يضربوننا على الشهادة والوعد ونحن صغار وذلك لكثره علم التابعين ، وقوه إيمانهم ومعرفتهم بربهم ، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنه من أفضل الجهاد ولا يقوم الدين إلا به . وفي هذا رغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم مما يضرهم . وذلك فضل الله يؤتى به من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

قوله : باب

(ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه)

وقول الله تعالى : ' 16 : 91 ' " وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً " الآية .

قال العماد بن كثير : وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعقود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة . ولهذا قال : " ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها " ولا تعارض بين هذا قوله : " ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم " وبين قوله : " ذلك كفارة أيمانكم إذا حلقتم واحفظوا أيمانكم " أي لا تتركوها بلا تكثير . وبين قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : " إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللتها - وفي رواية - وكفرت عن يميني " لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهي : " ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها " لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العقود والمواثيق ، لا الأيمان الواردة على حد أو منع ، ولهذا قال مجاهد في هذه الآية : يعني الحلف أي حلف الجاهلية . وبيه ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن

مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حلف في الإسلام ، وإنما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة " وكذا رواه مسلم ، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه .

وقوله تعالى : " إن الله يعلم ما تفعلون " تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها . قوله : عن بريدة هو ابن الحصيب الأسالمي . وهذا الحديث من روایة ابن سليمان عنه . قال في المفہم .

وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لقادات جيشه بأن لا يغلوا ولا يغدروا ولا يقتلوا وليدياً إلخ قوله : " قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى " فيه من الفقه تأمير النساء ووصيتها .

قال الحربي : السرية : الخيل تبلغ أربعين ألفاً ونحوها . والجيش ما كان أكثر من ذلك . وتقوى الله : التحرز بطاعته من عقوبته .

قلت : وذلك بالعمل بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى عنه .
قوله : ومن معه من المسلمين خيراً أي ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً : من الرفق بهم ، والإحسان إليهم ، وخفض الجناح لهم ، وترك التعاظم عليهم .

قوله : اغزوا باسم الله هذا أي اشرعا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له . قلت : فتكون الباء في باسم الله هنا للاستعانة والتوكيل على الله .

قوله : قاتلوا من كفر بالله هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم . وقد خصص منهم من له عهد والرهبان والنسوان ، ومن لم يبلغ الحلم ، وقد قال متصلًا به : ولا تقتلوا وليدياً وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان لأنه لا يكون منهم قتال غالباً . وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا .

قلت : وكذلك الذراري والأولاد .
قوله : ولا تغلو ولا تغدر ولا تمثلوا الغلو : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها . الغدر نقض العهد . والتمثيل هنا التشويه بالقتيل ، كقطع أنفه وأذنه والعبث به . ولا خلاف في تحريم الغلو والغدر . وفي كراهيته المثلة .

قوله : وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلات خلال أو خصال الرواية بالشك وهو من بعض الرواة . ومعنى الخلال والخصال واحد .

قوله : فأيتهان ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم قيدها عمن يوثق بعلمه وتقييده بنصب أيتهان على أن يعمل فيها أجابوك لا على إسقاط حرف الجر . وما زائدة . ويكون تقدير الكلام : فإلي أيتهان أجابوك فاقبل منهم . كما تقول : جئتك إلى كذا وفي كذا . فيعود إلى الثاني بحرف جر .

قلت : فيكون في ناصب أيتهان وجهان : ذكرهما الشارح . الأول : منصوب على الاشتغال . والثاني : على نزع الخافض .

قوله : ثم ادعهم إلى الإسلام كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم ثم ادعهم بزيادة ثم والصواب إسقاطها . كما روى في غير كتاب مسلم . كمحصن أبي داود ، وكتاب الأموال لأبي عبيد . لأن ذلك هو إبتداء تفسير الثلاث خصال .

وقوله : ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين يعني المدينة . وكان في أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام . وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم .

قوله : فإن أبوا أن يتحولوا يعني أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يعطي من الخمس ولا من الفيء شيئاً . وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحديث في الأعراب ، فلم ير لهم من الفيء شيئاً . إنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترت على فقرائهم . كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده ، ومصرف كل مال في أهله . وسوى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين ، وجوزاً صرفهما للضعيف .

قوله : فإن هم أبوا فاسألهما الجزية فيه حجة لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر : عربياً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره . وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركي العرب ومجوسهم . وقال الشافعي لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عربياً كانوا أو عجماً . وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه ، وتؤخذ من المجوس .

قلت : لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها منهم . وقال : " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " . وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية : فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهماً على أهل الورق . وهل ينقص منها الضعيف أو لا ؟ قوله . قال الشافعي : فيه دينار على

الغني والفقير . وقال أبو حنيفة رحمه الله ، والковيون : على الغني ثمانية وأربعون درهماً والوسط أربعة وعشرون درهماً . والفقير اثنا عشر درهماً .

وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله .

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنفي رحمه الله :

وقاتل يهودا والنصارى وعصبة المجوس ، فإنهم سلموا الجزية أصدق على الأدون اثنى عشر درهماً افرضن وأربعة من بعد عشرين زد لأوسطهم حالاً ومن كان موسراً ثمانية مع أربعين لتنقد وتسقط عن صبيانهم ونسائهم وشيخ لهم فان وأعمى ومقعد وذى الفقر والمجنون أو عبد مسلم ومن وجبت منهم عليه فيه تهدي وعند مالك وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم ، وإنما تؤخذ من كان تحت قهر المسلمين لا من نأى بداره ، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم .

قوله : وإذا حاصرت أهل حصن الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : إن المصيب في مسائل الإجتهاد واحد . وهو المعروف من مذهب مالك وغيره ووجه الاستدلال به أنه صلى الله عليه وسلم قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكماً معيناً في المجتهدات . فمن وافقه فهو المصيب ومن لم يوافقه فهو المخطئ .

قوله : وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه : الحديث الذمة العهد ، وتخفر تنقض يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرته : أجرته ، ومعناه أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد ، كجملة الأعراب : فكأنه يقول : إن وقع نقض من متعد معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى . والله أعلم .

قوله : وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال ، ذكر فيه أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال ، قال وهو أن مالكاً قال : لا يقاتل الكفار قبل أن يدعوا ولا تلتزم غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة . فيجوز أن تلتزم غرتهم وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية وإنما يقاتلون للدين فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً ممياً لهم إلى الإنقياد إلى الحق ، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين . فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزدادون عتواً وبغضناً . والله أعلم .

ما جاء في الأقسام على الله

قوله : باب

(ما جاء في الإقسام على الله)

ذكر المصنف في حديث : عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان . قال الله عز وجل : من ذا الذي يتأنى على أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له وأحببت عملك " رواه مسلم .

قوله : يتأنى أي يحلف . والأليلة بالتشديد الحلف . وصح من حديث أبي هريرة قال البغوي في شرح السنة - وساق بالسند إلى عكرمة بن عمارة - قال : دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال : يا يمامي ، تعال ، وما أعرفه ، قال : لا تقولن لرجل : والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة . قلت : ومن أنت يرحمك الله . قال : أبو هريرة ، فقلت : إن هذه كلمة يقولها أحدهنا لبعض أهله إذا غضب ، أو لزوجته أو لخادمه ، قال ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن رجلين كانوا في بني إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد في العبادة ، والآخر ، كأنه يقول مذنب ، يجعل يقول : أقصر عما أنت فيه . قال فيقول : خلني ورببي ، قال : فوجده يوماً على ذنب استعظمه فقال : أقصر ، فقال : خلني ورببي ، أبعثت علي رقيباً ، فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً . قال : فبعث الله إليهما ملكاً ، فقبض أرواحهما ، فاجتمعوا عندـه ، فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : أستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي ؟ قال : لا يا رب ، قال : اذهبوا به إلى النار . قال أبو هريرة : والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وأخرته " . رواه أبو داود في سننه ، وهذا لفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول : " كان رجالان في بني إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد في العبادة . فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلني ورببي أبعثت علي رقيباً ؟ قال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة ، فقبضت أرواحهما ، فاجتمعوا عندـ رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بي عالماً ، أو كنت على ما في يدي قادرًا ؟ فقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار " .

قوله : وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد يشير إلى قوله في هذا الحديث : أحدهما مجتهد في العبادة وفي هذه الأحاديث بيان خطر اللسان وذلك يفيد التحريز من الكلام ، كما في حديث

معاذ " قلت يا رسول الله ، وإنما لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكتب الناس في النار على وجوهم - أو قال على مناخيرهم - إلا حصائد ألسنتهم " . الله أعلم .

لا يستشفع بالله على خلقه

قوله : باب

(لا يستشفع بالله على خلقه)

وذكر الحديث وسياق أبي داود في سننه أتم مما ذكره المصنف رحمه الله ولفظه : عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الأموال ، وهلكت الأئماع ، فاستسق الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك ، أتدري ما تقول ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك أتدري ما الله . إن عرشه على سمواته لهكذا - وقال بأصابعه مثل القبة عليه - وإنه ليئط به أطيط الرجل بالراكب " قال ابن بشار في حديثه : " إن الله فوق عرشه فوق سمواته " .

قال الحافظ الذهبي : رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار .

قوله : ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه ، والخير كله بيده ، لا مانع لما أعطي ولا معطي لما منع ، ولا راد لما قضى ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيه كيف يشاء وهو الذي يشفع الشافع إليه ، ولهذا أنكر على الأعرابي

قوله : وسبح لله كثيراً وعظمته لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده إن شأن الله أعظم من ذلك .

وفي هذا الحديث : إثبات علو الله على خلقه ، وأن عرشه فوق سمواته . وفيه تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة ، خلافاً للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم ، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألد في اسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذي وضع لها ودللت عليه من

إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا ، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة ، فإنهم أثبتو ما أثبتته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل ، وتزييهاً بلا تعطيل .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة - بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وببره من عجائب مخلوقاته . قال بعد ذلك :

والثاني : أن يتتجاوز هذا إلى النظر بال بصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء ، فيجول في أقطارها وملكتها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومده ورفعته ، ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاء بأرض فلأة ، ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه بتذليل المالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها وملكها ، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم إذلال آخرين ، وإنشاء ملك وسلبه ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبينها وكثرتها : من جبر كسيير ، وإغناه فقير ، وشفاء مريض ، وتغريق كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، ورد آبق ، وأمان خائف ، وإجارة مستجير ، ومدد لضعيف ، وإغاثة للهوف ، وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف لعدوان ، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل ، والحكمة والرحمة ، تنفذ في أقطار العالم ، لا يشغلها سمع شئ منها عن سمع غيره ، ولا تغلطه كثرة المسائل والحواجج على اختلاف لغاتها وتبينها واتحاد قوتها ، ولا يتبرم بالحاج الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . فحيثما يقوع القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيئته خاشعاً لعظمته عانياً لعزته ، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين ، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد ، فهذا سفر القلب ، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه ، فياليه من سفر ما أدركه وأروحه ، وأعظم ثمرته وريحه ، وأجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة الأرواح ، ومفتاح السعادة ، وغنية العقول والأباب ، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب . اهـ كلامه رحمه الله .

وأما الاستشفاع بالرسول صلى الله عليه وسلم في حياته فليراد به استجلاب دعائه ، وليس خاصاً به صلى الله عليه وسلم بل كل حي يرجى أن يستجاب له فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالطالب الخاصة والعامة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك وأما الميت فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته على قبره وفي

غير ذلك . وهذا هو الذي يشرع في حق الميت ، وأما دعاؤه فلم يشرع ، بل قد دل الكتاب والسنّة على النهي والوعيد عليه ، كما قال تعالى : ' 13 ، 14 ' والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم " فبین الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيمة أي ينكره ويعادي من فعله ، كما في آية الأحقاف : ' 46 : 6 ' وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين " فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر . والصحابة رضي الله عنهم ، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين ، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيره أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، حتى في أوقات الجدب ، كما وقع لعم رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يستسقي لأنه حي حاضر يدعوه ربه فلو جاز أن يستسقي بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضي الله عنه والسابقون الأولون بالنبي صلى الله عليه وسلم . وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت ، لأن المقصود من الحي دعاه إذا كان حاضراً . فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه وي恃ضون إليه ، وهم يدعون ربهم ، فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل . ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص ، وبهم أليق ، وبحقه أعلم وأقوم . فمن تمسك بكتاب الله نجا ، ومن تركه واعتمد على عقله هلك . وبالله التوفيق .

ما جاء في حماية النبي حمى التوحيد

باب

(ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد ، وسد طرق الشرك)

حمايةه صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يض محل معها التوحيد أو ينقص وكذا كثير في السنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم قوله : " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله " وتقديم . قوله : " إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل " ونحو ذلك . ونهى عن التمادح وشدد القول فيه ، كقوله لمن مدح إنساناً : ويلك قطعت عنق صاحبك ... الحديث أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه : أن رجلاً أثني عشر على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : " قطعت عنق صاحبك ... ثلاثة " وقال

: "إذا لقيتم المداهين فاحثوا في وجوههم التراب " أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه عن المقداد بن الأسود .

وفي هذا الحديث : نهى عن أن يقولوا : أنت سيدنا وقال : السيد الله تبارك وتعالى ونهام أن يقولوا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً وقال : لا يستجرينكم الشيطان .

وكذلك قوله في حديث أنس : "أَنْ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا" ... إلخ .
 كره صلى الله عليه وسلم أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو . وأخبر صلى الله عليه وسلم أن مواجهة المادح للمدوح ب مدحه - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان لما تفضي محبة المدح إليه من تعاظم المدوح في نفسه وذلك ينافي كمال التوحيد فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحابها الذي لا تدور إلا عليه ، وذلك غاية الذل في غاية المحبة ، وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى ، وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها والمعاتبة لها في حق ربها ، وكذلك الحب لا تحصل غايتها إلا إذا كا يحب ما يحبه الله ، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات ، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه والمادح يغره من نفسه فيكون آثماً ، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأساً ، والنهي عنه صيانة لهذا المقام ، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له خلصت أعماله وصحت ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد ، وإذا أداه المدح إلى التعاظم في نفسه والإعجاب بها وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة كما في الحديث : "الكبيراء درائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئاً منها عذبته" : وفي الحديث : "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" : وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلاماً إليها ، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينزل المدوح منزلة لا يستحقها ، كما يوجد كثيراً في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وحذر أمنته أن يقع منهم ، فقد وقع الكثير منه حتى صرحاً فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك ، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك . والنبي صلى الله عليه وسلم لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح ، صيانة لهذا المقام ، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصاً لهم ، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده ، أو يضعفه من الشرك ووسائله : ٢ : ٥٩ " فبدل الذين ظلموا قوله قولاً غير الذي قيل لهم " ورأوا أن فعل ما نهاهم صلى الله عليه وسلم عن فعله قربة من أفضل القربات وحسن من أعظم الحسنات !

وأما تسمية العبد بالسيد فاختلاف العلماء في ذلك .

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد : اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر . فمنه قوله ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له : يا سيدنا قال : السيد الله تبارك وتعالى وجوزه قوله ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار : قوموا إلى سيدكم وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال للتميمي سيد كندة ، ولا يقال الملك سيد البشر . قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفي هذا نظر ، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك ، والموالي والرب . لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق . انتهى .

قلت : فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى : ' 6 : 164 ' " قل أَغَيْرُ اللَّهِ أَبْغِيْ رِبَا " أي إلهًا وسيداً وقال في قول الله تعالى : " الله الصمد " أنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السُّوَدَّ : وقال أبو وائل : هو السيد الذي انتهى سُوَدَّه . وأما استدلالهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار قوموا إلى سيدكم فالظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يواجه سعاداً به ، فيكون في هذا المقام تفضيل والله أعلم .

ما جاء في قول الله " وما قدروا الله حق قدره "

قوله : باب

قول الله تعالى : ' 39 : 67 ' " وما قدروا الله حق قدره والأرض جميـعاً قبضته يوم القيمة والسماءـات مطويـات بيـmine سـبحـانـه وـتعـالـي عـما يـشـكـونـ " أي من الأحادـيث والـآثـار في معـنى هـذـه الآية الكـريـمة .

قال العماد ابن كثير رحمـه الله تعالى : يقول تعالى : ما قدر المـشرـكونـ اللهـ حقـ قـدرـهـ حتـىـ عـبـدواـ معـهـ غـيرـهـ ، وـهـوـ الـعـظـيمـ الـذـيـ لـاـ أـعـظـمـ مـنـهـ ، الـقـادـرـ عـلـىـ كـلـ شـئـ الـمـالـكـ لـكـلـ شـئـ ، وـكـلـ شـئـ تـحـتـ قـهـرـهـ وـقـدـرـتـهـ . قال مجـاهـدـ : نـزـلتـ فـيـ قـرـيـشـ . وـقـالـ السـدـىـ : مـاـ عـظـمـوهـ حـقـ عـظـمـتـهـ . وـقـالـ محمدـ بنـ كـعبـ : لـوـ قـدـرـوـهـ حـقـ قـدـرـهـ مـاـ كـذـبـوـهـ . وـقـالـ عـلـيـ بـنـ أـبـيـ طـلـحةـ عـنـ بـنـ عـبـاسـ : هـمـ الـكـفـارـ الـذـينـ لـمـ يـؤـمـنـواـ بـقـدـرـةـ الـلـهـ عـلـىـ آمـنـ أـنـ اللـهـ عـلـىـ كـلـ شـئـ قـدـيرـ ، فـقـدـ قـدـرـ اللـهـ حـقـ قـدـرـهـ ، وـمـنـ لـمـ يـؤـمـنـ بـذـلـكـ فـلـمـ يـقـدـرـ اللـهـ حـقـ قـدـرـهـ .

وقد وردت أحادـيثـ كـثـيرـةـ مـتـعـلـقـةـ بـهـذـهـ الآـيـةـ ، الطـرـيقـ فـيـهاـ وـفـيـ أـمـالـهـاـ مـذـهـبـ السـلـفـ ، وـهـوـ إـمـارـهـاـ كـمـاـ جـاءـتـ مـنـ غـيرـ تـكـيـيفـ وـلـاـ تـحـرـيفـ - وـذـكـرـ حـدـيـثـ اـبـنـ مـسـعـودـ كـمـاـ ذـكـرـهـ الـمـصـنـفـ رـحـمـهـ اللهـ

في هذا الباب قال : ورواه البخاري في غير موضع من صحيحه . والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنمسائى كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه

حديث الحبر الذي جاء يصف كيف يقبض الله السموات والأرض

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم عن علقة عن عبد الله قال : جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر . قال : وأنزل الله : " وما قدروا الله حق قدره " الآية . وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسين بن حسن الأشقر ، حدثنا أبو كدينة عن عطاء .
عن أبي الضحى عن ابن عباس قال : " مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس ،
قال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه ،
والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ؟ كل ذلك يشير بأصابعه ، فأنزل الله : " وما قدروا الله حق
قدره " وكذا رواه الترمذى في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به . وقال : حسن
صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ثم قال البخارى : حدثنا سعيد بن عفیر حدثنا الليث
حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة
رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يقبض الله الأرض ويطوي السماء
بيمينه ، فيقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ " تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقال البخاري في موضع آخر : حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمى القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى يقبض يوم القيمة الأرضين على إصبع وتكون السماء بيديه ثم يقول : أنا الملك " تفرد به أيضاً من هذا الوجه . ورواه مسلم من وجه آخر .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة ، أئبنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله ابن مقس عن ابن عمر أن

رسول الله صلی الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر " وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمنيه ، سبحانه وتعالى عما يشركون " ورسول الله صلی الله عليه وسلم يقول هكذا بيده يحركها ، يقبل بها ويدبر ، يمجد الرب تعالى نفسه : أنا الجبار ، أنا التكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلی الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا : ليخرن به اه .

قوله : ولمسلم عن ابن عمر - الحديث كذا في رواية مسلم . قال الحميدي وهي أتم ، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه . وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " إن الله يقبض يوم القيمة الأرضين وتكون السماء بيمنيه " وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسى .

قلت : وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظم قدرته وعظم مخلوقاته . وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته ، وكلها تعرف وتدل على كماله ، وأنه هو العبود لا شريك له في ربوبيته وإلهيته وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان ، واقتفى أثراهم على الإسلام والإيمان .

وتتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي صلی الله عليه وسلم ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه ، ولم يقل النبي صلی الله عليه وسلم في شيء منها . إن ظاهرها غير مراد ، وأنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فلو كان هذا حقاً بلغه أمينة أمنته ، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين . وتلقى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيهم صلی الله عليه وسلم ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله ، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا ، كما قال تعالى : ' 3 : 7 ' والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا " وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله صلی الله عليه وسلم ولم يجدوا شيئاً من الصفات ، ولا قال أحد منهم : إن ظاهرها غير مراد ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه ، بل أنكرها على من قال ذلك غاية الإنكار ، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة .

ما الكرسي في العرش إلا كحلقة أقيمت في فلاة من الأرض

بعد ما بين كل سماء والتي يليها والسابعة والكرسي ، الكرسي والعرش
قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأنتمة مملوءة كلها بما هو نص أو
ظاهر أن الله تعالى فوق كل شئ ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه ، مثل قوله تعالى :
' 35 : 10 ' إِلَيْهِ يَصُعدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُرْفَعُهُ ' وقوله تعالى : ' 55 : 3 ' يَا
عِيسَى اِنِّي مَتَوْفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ' وقوله تعالى : ' 4 : 158 ' بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ' وقوله تعالى : '
70 : 3 : 4 ' ذِي الْمَارِجِ * تَرَجَّعَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ' وقوله تعالى : ' 32 : 5 ' يَدْبِرُ الْأَمْرَ
مِنَ السَّمَاوَاتِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ' وقوله تعالى : ' 16 : 50 ' يَخَافُونَ رَبِّهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ' وقوله
تعالى : ' 2 : 29 ' هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاوَاتِ فَسَوَاهَنَ سَبْعَ
سَمَاوَاتٍ ' وقوله تعالى : ' 7 : 54 ' إِنَّ رَبَّكُمْ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَغْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ' وقوله : ' 10 : 3 ' إِنَّ رَبَّكُمْ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَدْبِرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ' ... الْآيَةُ فَذَكَرَ
الْتَّوْحِيدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ' 13 : 2 ' اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ' وقوله تعالى : ' 20 : 4 ، 5 ' تَنْزِيلاً مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى *
الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ' وقوله : ' 25 : 58 ، 59 ' وَتَوَكَّلَ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ
وَسَبَحَ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذَنْبِ عَبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلَ بِهِ خَبِيرًا ' وقوله تعالى : ' 32 : 4 ، 5 ' اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ
أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يَدْبِرُ الْأَمْرُ مِنَ السَّمَاوَاتِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مَا تَعْدُونَ '
وقوله : ' 4 : 57 ' هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا
يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزَلُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعْكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ' فَذَكَرَ عِمَومَ عِلْمِهِ وَعِمَومَ قُدرَتِهِ وَعِمَومَ إِحاطَتِهِ وَعِمَومَ رَؤْيَتِهِ . وقوله تعالى : ' 67 :

16 ، 17 ' " أَمْنِتُم مِّن فِي السَّمَاوَاتِ أَن يَخْسِفَ بَكُمُ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمْنِتُم مِّن فِي السَّمَاوَاتِ أَن يُرْسَلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسْتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ " وَقُولُهُ تَعَالَى : ' 41 : 42 ' " تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ " وَقُولُهُ : ' 2 ' " تَنْزِيلٌ الْكِتَابُ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " وَقُولُهُ تَعَالَى : ' 37 ، 36 : 40 ' وَقَالَ فَرْعَوْنٌ يَا هَامَانَ ابْنَ لَيْ صَرْحًا لَّعِلِي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابُ السَّمَاوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيْهِ مُوسَى وَإِنِي لَأَظْنُهُ كَاذِبًا " . انتهى كلامه رحمه الله .

الإيمان بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بلا تمثيل ولا تعطيل
و قوله تعالى : ' 41 : 42 ' " تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ " وَقُولُهُ : ' 2 ' " تَنْزِيلٌ الْكِتَابُ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " وَقُولُهُ تَعَالَى : ' 37 ، 36 : 40 ' وَقَالَ فَرْعَوْنٌ يَا هَامَانَ ابْنَ لَيْ صَرْحًا لَّعِلِي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابُ السَّمَاوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيْهِ مُوسَى وَإِنِي لَأَظْنُهُ كَاذِبًا " . انتهى كلامه رحمه الله .
قلت : وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نقابة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتبعين . فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت في قوله تعالى : " الرحمن على العرش استوى " قالت : الاستواء غير معقول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحيح . قال : وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال : لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن : كيف الاستواء ، قال : الاستواء غير معقول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىينا التصديق . وقال ابن وهب : كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله " الرحمن على العرش استوى " كيف استوى ؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضة وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ولا يقال كيف ؟ وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة . أخرجوه رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً ، ولفظه قال : الاستواء غير معقول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال الذهبي : فانظروا إليهم كيف أثبتو الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية ، قال البخاري في صحيحه : قال مجاهد استوى علا على العرش . وقال إسحاق بن راهويه سمعت غير واحد من المفسرين يقول : " الرحمن على العرش استوى " أي ارتفع . وقال محمد ابن جرير الطبراني في قوله تعالى : " الرحمن على العرش استوى " أي علا وارتفع .

وشاهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم ، فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف فوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ملائكة الإله مسومينما
وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق ، قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماواته على العرش استوى ، بائن في خلقه ، ولا نقول كما قال الجهمية قال الدارمي : حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك : قيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلفه .

وقد تقدم قول الأوزاعي : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة .

وقال أبو عمر الطملنكي في كتاب الأصول : أجمع المسلمين من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته . وقال في هذا الكتاب أيضاً : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنته عن مالك قوله : الله في السماء وعلمه في كل مكان : ثم قال في هذا الكتاب : أجمع المسلمين من أهل السنة أن معنى قوله : " وهو معكم أين ما كنتم " ونحو ذلك من القرآن : أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء . وهذا لفظه في كتابه .

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة ، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ، ولم يمثلوا ولم يكيفوا ، كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب .

وقال الحافظ الذهبي : وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه : هو الجعد بن درهم . وكذلك أنكر جميع الصفات . وقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة ، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية ، فأظهرها واحتج لها بالشبهات ، وكان ذلك في آخر عصر التابعين فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي وأبي حنيفة ، ومالك والليث بن سعد والثورى ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى . فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على

رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة : ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البهقي : أئبنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرني محمد بن علي الجوهرى - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصي سمعت الأوزاعي يقول : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله فوق عرشه . ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته . أخرجه البيهقي في الصفات ورواته أئمة ثقات

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل ، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه ، كما نفي عن نفسه فقال : " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " اهـ من فتح الباري .

حديث الأوعال الذي رواه العباس

قوله : عن العباس بن عبد المطلب ساقه المصنف رحمه الله مختصراً ، والذي في سنن أبي داود : عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بهم سحابة فنظر إليها فقال : " ما تسمون هذه؟ قالوا : السحاب قال : والمزن قالوا : والمزن . قال : والعنان قالوا : والعنان - قال أبو داود : لم أتقن العنان جيداً - قال : هل تدرؤون ما بعد ما بين السماوات والأرض؟ قالوا : لا ندري قال : إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاثة وسبعين سنة ، ثم السماء التي فوقها كذلك ، حتى عدد سبع سماوات ، ثم فوق السابعة بحر بين أسلفه وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، وبين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش بين أسلفه وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تعالى فوق ذلك " وأخرجه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى : حسن غريب .

وقال الحافظ الذهبى : رواه أبو داود بإسناد حسن وروى الترمذى نحوه من حديث أبي هريرة وفيه : ما بين سماء إلى سماء خمسينأئمة عام ولا منفأة بينهما . لأن تقدير ذلك بخمسينأئمة عام هو على سير القافلة مثلاً ، ونيف وسبعين سنة على سير البريد ، لأنه يصح أن يقال : بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة ، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد . وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك قوله . هذا آخر كلامه .

قلت : فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعـهم ، وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما ، ولا عبرة بقول من ضعفه لكتـرة شواهدـه التي يستـحيل دفعـها وصرفـها عن ظواهرـها .

وهذا الحديث كـأمثالـه يـدل على عـظمة الله وكمـالـه وعـظم مـخلوقـاته ، وأنـه المتـصف بـصفـاتـ الـكمـالـ التي وـصـفـ بها نـفـسـهـ فيـ كـتابـهـ وـوصـفـ بهاـ رـسـولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، وـعـلـىـ كـمـالـ قـدـرـتـهـ وـأنـهـ هوـ العـبـودـ وـحـدـهـ لاـ شـرـيكـ لهـ دونـ كـلـ ماـ سـوـاهـ .

وبـالـلهـ التـوفـيقـ ، وـلاـ حـوـلـ وـلاـ قـوـةـ إـلـاـ بـالـلهـ الـعـلـيـ الـعـظـيمـ ، وـحـسـبـنـاـ اللهـ وـنـعـمـ الـوـكـيلـ .
وـصـلـىـ اللهـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ وـعـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ أـجـمـعـينـ . تمـ كتابـ (ـ فـتـحـ الـمـجـيدـ)ـ بـعـونـ اللهـ
الـحـمـيدـ .

ملاحظة : يوجد على هذا الكتاب تعليقات نفيسة لفضيلة الشيخ ربيع بن هادي المدخلي – أثابه الله – ؛ اطلب الأشرطة من تسجيلات منهاج السنة بالرياض ، وتسجيلات ابن رجب في المدينة المنورة ، وتسجيلات الأصالة بجدة .

فَتْح
الْمَجَدِ

فَتْح
الْمَجَدِ